فوشيه الشارتري

تاريخ الحملة الى القدس

ترجمة د. زياد العسلي

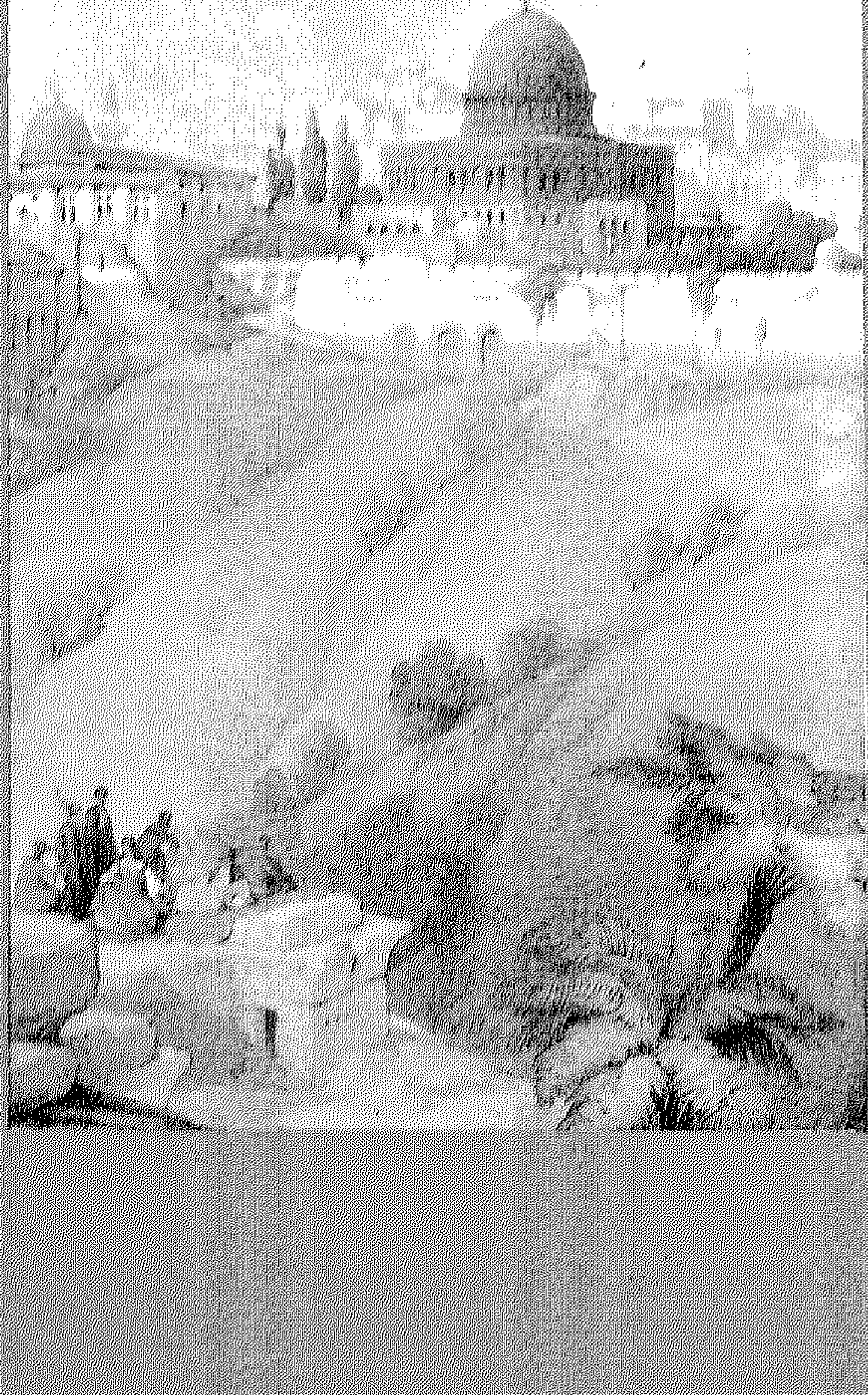

Bibliotheca Alexandrina
0033233

الشروق

تاريخ الحملة
الى القدس

تاريخ الحملة إلى القدس

[١٠٩٥ - ١١٢٧]

تأليف

فوشيه الشارتري

Fulcher of Chartres

ترجمة من اللاتينية إلى الانجليزية

الأخت فرنسيس ريتا ريان

Frances Rita Ryan

حرره وقدمه

هارولد س. فنك

Harold S. Fink

نقله إلى العربية

د. زياد جميل العسلي

فوشيه الشارتري

تاريخ الحملة الى القدس

ترجمة د. زياد العسلي

الشروق

★ فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة الى القدس
(١٠٩٥-١١٢٧)
★ الطبعة العربية الاولى : ١٩٩٠
★ الناشر : دار الشروق للنشر والتوزيع
ص . ب . ٩٢٦٤٦٣
تلفون ٦٢٤٣٢١
تلكس ٢٣٥٥٧ يونيتور
عمان ـ الاردن
★ التوزيع : المركز العربي لتوزيع المطبوعات
ص . ب . ١٣/٥٦٨٧
تلفون ٨٠٣٥٣٧
تلكس ٢٠٩٨٣ آسيب
بيروت ـ لبنان

كلمة المترجم

استحوذت دراسة الدولة الصليبية على قدر متزايد من اهتمامي خلال السنوات العشر الماضية، وقد زودتني هذه الدراسة بتفهم اعمق للحركة الصليبية ودولتها وأنارت امامي بعض السبل التي ما كنت قد طرقتها بدونها. وقد وجدت ان هذه الدراسة شغلت اهتمام عدد كبير من علماء وبحاثة اسرائيل حتى اصبحت الجامعة العبرية من اهم مراكز الابحاث الصليبية في العالم، يستخرجون العبر من دراسة تلك التجربة التاريخية الحية لمجتمع اجنبي حل في البلاد المقدسة واستقر فيها قرابة قرنين من الزمن، وقد امعنت النظر في السبل التي سلكها اجدادنا في مقاومة الصليبيين ودحرهم وقارنتها بالسبل التي نسلكها في عصرنا الحديث لمواجهة النسخة الجديدة للحملات الصليبية.

وقد سرّني ان الحركة الصليبية والجهاد ضدها استقطبت اهتمام عدد متزايد من علماء ومفكري العرب والمسلمين الذين قدموا دراسات جيدة ورصينة للقارىء العربي تهدف الى تعريفه بطبيعة التحدي الذي واجهه اجدادنا في تلك الفترة، الا اننا لا نزال نفتقر الى المزيد من الدراسات العلمية المفصلة عن اوجه حياة المجتمع الذي واجه التحدي الصليبي وحقق النصر عليه بعد الهزيمة، كما نحتاج الى تنسيق هذه الدراسات بنظرة استراتيجية تربطها مع العصر الحديث، وتأخذ من ذلك كله العبرة والاعتبار.

وسأحاول في المقدمة التي وضعتها ان اقدم دراسة مقارنة موجزة بين الحركتين الصليبية والصهيونية ودولتيهما آملا ان اكون قد اوضحت العلاقة بينهما، وكذلك بعض اوجه علاقتنا بكل منهما.

وان المترجم، اذ يضع بين يدي القارىء العربي هذه الترجمة الكاملة لكتب فوشيه الثلاثة، يستميح العذر صادقا، كما فعل فوشيه قبل ثمانية قرون ونيف، لضعف اسلوبه وخشونته، كما يأمل ان يسهم هذا العمل المتواضع في فهمنا للحركة الصليبية، وسبر اغوارها.

الدكتور زياد العسلي

"المقدمة"

لمحة تاريخية

في السابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٠٩٥ م القى البابا اوربان الثاني خطبة في كليرمونت في فرنسا تردد صداها على مر العصور لما خلفت من آثار في الغرب والشرق. فقد دعا البابا اهل اوروبا للقيام بحملة مسلحة، تحت شعار الصليب، لنجدة اخوانهم في بيزنطية ولتحرير القدس والبلاد المقدسة من براثن "الكفار". وشاركت الكنيسة في تنسيق ما دعي فيما بعد بالحملة الصليبية الاولى، التي بدأت بمغادرة اوروبا على دفعات متتالية في العام التالي. واجتمعت جيوشها المتعددة تحت امرة نبلاء عدة، في ربيع عام ١٠٩٧ خارج اسوار القسطنطينية. وهناك انتزع منهم امبراطور بيزنطية الكسيس يمين الطاعة مقابل مساعدته لهم لمتابعة الحملة الى البلاد المقدسة. ثم زحفوا عبر آسيا الصغرى حيث اشتبكت معهم جيوش السلطان السلجوقي قليج ارسلان في حروب مضنية، وكبدتهم خسائر فادحة، ولكنهم شقوا طريقهم نحو انطاكية، حاضرة الشرق الزاهرة، وفرضوا عليها الحصار في خريف ذلك العام. وطال ذلك الحصار ثمانية شهور ذاق فيها الطرفان الامرّين من الحرب والجوع والعطش، ولكن انطاكية سقطت اخيرا في صيف عام ١٠٩٨. وتابع بعض امراء الصليبيين مسيرتهم نحو البلاد المقدسة في خريف ذلك العام فسقطت كثير من بلاد الساحل السوري في قبضتهم الى أن وصلوا الى القدس في صيف عام ١٠٩٩ م.

كانت القدس في تلك الفترة تحت سيطرة الفاطميين الذين كانوا قد انتزعوها قبل ذلك بعام من ايدي سلاجقة الشمال مستغلين فرصة انشغالهم بمحاربة الفرنجة. وكان السلاجقة بدورهم قد انتزعوا القدس من ايدي الفاطميين عام ١٠٧٠ م الى أن استردها هؤلاء منهم قبل الهجمة الصليبية بعام واحد.

دافع حاكم القدس الفاطمي، افتخار الدولة عنها ببسالة وقاوم بشدة الحصار الذي امتد من ٧ حزيران الى ١٥ تموز عام ١٠٩٩ م. ولكنها سقطت اخيرا في ذلك يوم الذي صادف يوم الجمعة ٢٣ شعبان عام ٤٩٢ هـ . وامعن الفرنجة سيوفهم في كل من وجدوا في بيت المقدس "حتى لطخت الدماء الكواحل". وقال ابن الاثير، المؤرخ العربي الذي عاصر تلك الاحداث "وركب الناس السيف ولبث الفرنج في البلدة اسبوعاً يقتلون فيه المسلمين. وقتل الفرنج بالمسجد الاقصى ما يزيد على سبعين الفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الاوطان وجاور بذلك الموضع الشريف"*.

بعد أن احتل الصليبيون مدينة القدس أسسوا فيها امارة تحت حكم الامير جودفري دي بويون الذي شرع في تأسيس الدولة، ولكن المنية عاجلته في العام التالي فخلفه على الامارة شقيقه بلدوين الذي توج نفسه أول ملك لمملكة القدس في عيد الميلاد عام ١١٠٠ م. وحكم بلدوين الاول مدة ثمانية عشر عاما وطد خلالها أركان المملكة ووسع رقعتها.

وبلدوين هذا، هو شقيق جودفري الاصغر، وكان قد انفصل عن الحملة الصليبية الرئيسية في آسيا الصغرى قبل وصولها الى انطاكية وزحف شرقا نحو الرها حيث تآمر على اميرها طوروس الارمني الذي كان قد استغاث به لينجده من المسلمين فأطاح به وأسس امارة الرها عام ١٠٩٨ م، وهي أول امارة صليبية في الشرق ـ ويجدر بالذكر أنها أول امارة تم تحريرها فيما بعد على يد عماد الدين زنكي عام ١١٤٤ م ـ فوطد اركانها وحكمها فترة جاوزت العامين، استدعي بعدها الى القدس ليتولى عرشها اثر وفاة شقيقه. وقد أرسى بلدوين دعائم الدولة وأنشأ مؤسساتها وشن الحروب التوسعية بلا هوادة. وتحالف مع اسطول جنوى ليستمد منه الدعم البحري فسقطت في يده مدن عديدة منها القيصرية وطرطوس والرملة وعكا وطرابلس وبيروت وصيدا. وحارب جيوش الفاطميين التي اتخذت عسقلان قاعدة بحرية لها وأوشكت على أن تفتك به في الرملة، وجيوش طغتكين اتابك دمشق

---

*) بقيت القدس تحت سيطرة الصليبيين الى ان حررها صلاح الدين الايوبي بعد ثلاثة اجيال يوم الجمعة ٢٧ رجب عام ٥٨٣ هـ ، الموافق ٢ تشرين الثاني عام ١١٨٧ م، اثر انتصاره الساحق في معركة حطين. وما قتل ولا جرح في تحرير القدس انسان، وافتدى صلاح الدين بأمواله من الفرنجة من لم يقدر منهم على دفع فديته.

وقد دامت الدولة الصليبية قرابة قرن ونيف بعد واقعة حطين الى ان تضافرت عليها قوى الشرق تحت قيادة جبابرة المماليك بيبرس ثم قلاوون ثم ابنه الاشرف خليل الذي حرر عكا منهم عام ١٢٩١ م. والقى بهم في البحر فعادوا الى الغرب من حيث اتوا.

ومودود أتابك الموصل الذي كاد أن يحطم مملكته. كما زحف بلدوين بجنوده جنوبا نحو صحراء الاردن وسيناء حتى دلتا مصر. وتوفي في العريش في آخر حملاته عام ١١١٨ م.

خلفه على عرش القدس ابن عمه بلدوين لي بورج الذي كان قد خلفه من قبل على ولاية الرها عام ١١٠٠ م. امتلك بلدوين الثاني عرش القدس حتى وفاته عام ١٠٣١ م، وتابع سياسة سلفه التوسعية وفرض حمايته على امارة طرابلس واصبح وصيا على امارة انطاكية اثر مقتل اميرها، كما احتفظ بامارته في الرها، وبذلك سيطر على الامارات الصليبية الأربع. وقد اشتبك في حروب متكررة مع جيوش الفاطميين التي كانت تبحر دوريا الى عسقلان، وجيوش طغتكين اتابك دمشق، وجيوش اميري السلاجقة الغازي وبلك القادمة من حلب والموصل وما وراء الفرات. ووقع بلدوين في اسر بلك لمدة تقل عن العامين، ثم اطلق سراحه، فاستأنف حروبه كما فعل من قبل. وقد تزايد في عهده التعامل التجاري بين المسلمين والصليبيين وعقد بعض التحالفات مع بعض الامراء.

عكست الحركة المناهضة للصليبيين، والتي اتخذت الجهاد الاسلامي شعاراً لها، وضع الشرق الذي تنازعته المشاحنات والحروب بين مختلف الامراء والاتابكة الذين حكموا البلاد والمدن المجاورة. وقد تراوحت هذه الحركة بين الاستسلام والتعامل كما فعل بنو عمار في طرابلس ورضوان امير حلب وبين حمل السلاح وشن الحرب كما فعل هودود حاكم الموصل ومن بعده بلك. واستعمل بعض الامراء الحرب تارة والسياسة تارة اخرى للتعايش مع الدولة الصليبية كما فعل امير دمشق طغتكين ومن بعده معين الدين أنر. ولكن الرد الحاسم بدأ يتبلور في المشرق بعد اربعة عقود حين استلم الاتابك عماد الدين زنكي امارة الموصل واعلن الجهاد، ثم توج كفاحه بتحرير امارة الرها عام ١١٤٤ م. وبعد مصرعه حمل ابنه نور الدين راية الجهاد فوطد حكمه في حلب، وتابع مناوشة الصليبيين مقتنعا بأن تحرير البلاد لن يتم الا بتوحيد الولايات المجاورة للدول الصليبية. وقد لاقت استراتيجيته التوحيدية مقاومة عنيفة من الصليبيين ومن امراء البلدان التي تفصله عن الصليبيين، حتى ان معين الدين انر، امير دمشق، استدعى جيوش الصليبيين لتحميه من نور الدين. غير ان نور الدين نجح في الاستيلاء على الحكم في دمشق عام ١١٥٤ م فاصبحت عاصمته ومنطلق جهاده. ثم انه تابع سياسته التوحيدية باحاطة الدولة الصليبية من دمشق الى القاهرة، فارسل جيوشه، تحت قيادة شيركوه

وابن اخيه صلاح الدين، الى مصر في حملات متتالية واجهوا فيها جيوش امالريك الصليبية، وحليفهم شاور الوزير الفاطمي، الى ان انتصر شيركوه فتم بذلك توحيد البلاد تحت امرة نور الدين ولفظت الدولة الفاطمية انفاسها الاخيرة، استلم صلاح الدين الايوبي امارة مصر بعد وفاة عمه شيركوه الى ان توفي نور الدين، عام ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) فاستلم صلاح الدين امارة دمشق والقاهرة وحلب، وتابع الجهاد بهمة ونشاط وشق الطريق الى حطين عام ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) حين قصم ظهر الجيوش الصليبية المجتمعة، وحرر القدس بعد ذلك بشهور.

سمح انقسام الدولة الاسلامية بعد وفاة صلاح الدين للدولة الصليبية ان تعيش قرنا آخر في الشرق، الى ان تم توحيد البلاد مرة اخرى تحت امرة جبابرة المماليك ابتداء بالظاهر بيبرس، ذلك المجاهد الذي بدع في فن الحرب والسياسة، الذي انطلق من قاعدته في القاهرة ووحد بلاد الشام والعراق، وبدأ بدك المعاقل الصليبية وازالة آثارها، الى ان كسر شوكتهم، وترك لخليفته قلاوون متابعة المهمة التي انتهت بحصار عكا على يده حيث توفي على ابوابها، تاركا لابنه الاشرف خليل شرف تحرير البلاد عام ١٢٩١ م.

عن الكتاب والمؤلف

عندما دعا البابا رجال اوروبا المسيحية لحمل الصليب لتحرير القدس من قبضة "الكفار"، استجاب لندائه الكثيرون ومنهم القسيس فوشيه دو شارتر. وقد انضم فوشيه الى الحملة الاولى التي انتهت باحتلال القدس ثم قضى بقية حياته في القدس، حيث كتب تاريخه هذا، الى ان انقطع عن الكتابة عام ١١٢٧ م وربما توفي في ذلك العام عن عمر يناهز الثمانية والستين عاما.

من المرجح ان فوشيه ولد في شارتر في فرنسا حوالى عام ١٠٥٨ م او ١٠٥٩ م ولا نعرف شيئا عن مستهل حياته هناك الى ان شارك في الحملة الصليبية وأدرك الاهمية التاريخية للأحداث التي عاشها فابتدأ في تدوينها. وقد رافق الحملة الصليبية التي غادرت شارتر الى أن انضم الى بلدوين الاول حين انشق هذا عن الجيش الرئيسي في آسيا الصغرى وزحف بمجموعة صغيرة شرقاً عبر الفرات وأسس امارة الرها الصليبية عام ١٠٩٨ م. وبقي هناك مدة عامين الى أن تولى بلدوين عرش

القدس بعد وفاة اخيه جودفري. وكان فوشيه قسيس بلدوين الخاص ورافقه في حروبه واسفاره، ومن المحتمل انه كان مستشاراً له.

يقع تاريخه في ثلاثة كتب. يبدأ الكتاب الاول بمجلس كليرمونت وخطبة البابا التاريخية وينتهي بوفاة جودفري امير القدس. ويبتدىء الكتاب الثاني باعتلاء بلدوين الاول عرش القدس ووصف الاحداث التي جرت الى وفاته في العريش. ثم يبتدىء الكتاب الثالث باعتلاء بلدوين الثاني عرش القدس الى أن ينتهي فجأة عام ١١٢٧. ومن المرجح ان فوشيه توفي في ذلك العام أو أصيب بمرض أقعده عن الكتابة.

من الواضح ان مركز فوشيه كقسيس بلدوين الخاص مكنه من الاطلاع على دخائل الامور، واتاح له أن يكون شاهد عيان لاحداث لم يسجلها غيره. وقد ارتقت مكانة فوشيه بين المؤرخين المحدثين بعد قرون من الاهمال الى ان ضبط هاجنمير النص اللاتيني لكتب فوشيه الثلاثة، ثم قدم تحليلا لحياته، ومواقفه وأسلوبه وقيمته التاريخية، فوطد بذلك مركز فوشيه كمرجع اساسي لا يستغنى عنه لدراسة الحملة الصليبية الأولى ومملكة القدس الصليبية في عقودها الاولى.

وقامت الراهبة فرانسيس ريان بترجمة نص هاجنمير من اللاتينية الى الانجليزية ونشرت الكتاب الاول عام ١٩١٦ م. واخيرا قام البروفسير فنك بتنقيح ترجمتها للكتابين الثاني والثالث. ونشر المجلد الكامل عام ١٩٦٩ م وقد ترجم المعرب هذا النص الانجليزي الى العربية.

مواقف فوشيه

نظر فوشيه للحملة الصليبية على أنها حرب مقدسة تشبه حروب بني اسرائيل والمكابيين في العهود القديمة. واعتبر أن الفرنجة الذين اجتاحوا البلاد المقدسة قوم مستضعفون دأبوا على الدفاع عن أنفسهم ضد عدو فاتك غادر لا ينفك عن قتالهم والتحرش بهم. كما اعتبر الصليبيين كلهم حجاجا، سواء كانوا مدججين بالسلاح ام عزلا وكل من مات في حجته منهم شهيداً وكل من ارتد عنها جباناً. أما نظرته لسكان البلاد فهي تتميز بالبساطة والشمول. فهم في نظره اعداء المسيح كفار وثنيون، قساة وبرابرة، لا تعرف قلوبهم الرحمة. فجردهم بهذه النظرة من انسانيتهم، وما خطر بباله أن لهؤلاء القوم حقوقاً في الأرض التي ولدوا وعاشوا

وبنوا فيها وعليها، كما فعل اباؤهم واجدادهم من قبلهم. فقد ذكر في قتلى المسلمين بعد سقوط قيسارية والقدس أن جثثهم تراكمت واضرمت فيها النيران لاستخلاص القطع الذهبية التي ابتلعوها قبيل هلاكهم. وسرد ببساطة، دون ابداء اي عاطفة، كيف تلطخت كواحل الفرنجة بالدماء في ساحة الاقصى والصخرة بعد أن قطعت رؤوس الآلاف من المسلمين "فما نجا طفل ولا امرأة"، وبقيت جثثهم متعفنة خلف السور تزكم رائحتها الانوف حتى بعد هذه المجزرة بعام. وفي موضع آخر، ذكر في معرض اشارته للنساء المسلمات اللواتي وقعن في الاسر في مخيم الامير كربوقا اثر هزيمته على ابواب انطاكية "ان الفرنجة لم يمسوهن بأذى، وانما بقروا بطونهن بالحراب". وقل ما ذكر اعداءه بالخير فوصف الاتراك مرة بأنهم "جنس شجاع، مهرة باستعمال القوس". واثر وفاة مودود امير الموصل ذكر أنه "كان وافر الثروة عظيم السطوة ذائع الصيت شديد الهمة" ولكنه أضاف أنه "كان وباء من الله". وقد اطلق على اعدائه اسماء مختلفة فدعاهم بالكفار، والوثنيين والشرقيين والاتراك والفرس والعرب والاحباش، وما دعاهم بالمسلمين سوى مرة واحدة، حين استسلموا في مدينة صور. ولم يميز بين السنّة والشيعة، ولا بين السلاجقة والفاطميين ولا بين خليفة بغداد وخليفة القاهرة فكلهم لديه سواء في كفرهم ووحشيتهم. وقد بلغ مدى جهله بالدين الاسلامي او ازدرائه له، أنه ذكر ان المسلمين اقاموا الصلاة لصنم باسم النبي محمد في قبة الصخرة في القدس. وقد اختلفت نظرة فوشيه العنصرية هذه تجاه الشرقيين عن نظرته تجاه الفرنجة وامرائهم. فأبدى نحو هؤلاء كل تفهم واعجاب، وأشاد بأمجاد كل امير منهم، حتى من اختلف منهم مع سيده بلدوين، وافتخر بانتصاراتهم وبالغ في عدد اعدائهم في الوقائع، وقلل من عدد جنودهم ليظهر تفوقهم في فنون الحرب، وأرجع فضل فوزهم للرب وللصليب المقدس، وهزيمتهم لفسقهم وانغماسهم في الملذات. وقد غض الطرف عن تصرفاتهم الشائنة كما حدث حين غدر سيده بلدوين بحاكم الرها طوروس الارمني الذي أمن له وتبناه في احتفال رسمي وعينه وريثا شرعيا له. ولكن بلدوين دبر مقتله خلال ايام واستولى على امارة الرها، وكذلك حين استسلم بلدوين الثاني وانهار فزعا عندما دك عليه بلك قلعة خربوط.

وهكذا نرى أن فوشيه كان داعية منحازا فليس يخدعنا تقاه ولا ورعه، ولا اقتباسه الكتب السماوية ولا مباهاته بقول الحقيقة. وهو يكتسب اهميته بالنسبة لنا لكونه نموذجا لدعاة الحركة الصليبية ورمزاً للأرضية الفكرية التي ارتكزت عليها.

الحركة الصليبية والتاريخ المعاصر

الحركة الصليبية في جوهرها حركة استيطانية، آمن بها قوم حضروا مسلحين من بلاد الغرب وانتزعوا قطعة من بلاد الشرق، اقاموا عليها دولة تنعموا بخيراتها، واستغلوا من استبقوا من اهلها. ودأبت دولتهم هذه على القتال والانتصار والتوسع الى أن قابلتها قوة شرقية معاكسة نمت وتعاظمت الى أن كسرت شوكتها بعد ثلاثة اجيال، ثم اجهزت عليها واستأصلتها بعد فترة لم تتجاوز القرنين من الزمن.

وليس بودنا أن نناقش اسباب نشوء هذه الحركة أو نستعرض الدوافع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تضافرت في اوروبا فأدت الى نشأتها في تلك الفترة، ولكننا نعتقد جازمين أن طرح هذه الحركة كقضية دينية يباركها الله ويحض عليها ويجزي بالثواب في الدنيا والآخرة من ضحى من اجلها، كان شرطاً أساسياً لانجاحها. وقد طرح البابا اوربان الثاني في خطابه في كليرمونت هذه الحملة على أنها "حجة" تهدف الى "تحرير البلاد المقدسة" من براثن "الكفار" "ذلك الجنس الخسيس" "الذي يعاني من الحقارة والانحطاط، وتستعبده الشياطين والعفاريت" على ايدي "جنود المسيح" الذين يطيعون "اوامر الله والكنيسة المقدسة" ويحملون "شارة الصليب" رمزاً "لايمانهم" واستعدادهم "للشهادة". وهكذا زحف الغربيون نحو البلاد المقدسة تحت شعار "ارادة الله" بعد ان زودت هذه النظرة الدينية بالقاعدة الفكرية الصلبة التي الهبت حماس الغربيين واقنعتهم بصواب قضيتهم، وحملتهم على القتال والموت من أجلها.

ولا يخفى على القارىء أن ديانة اخرى، بعد ثمانية قرون من هذه الاحداث، أوجدت القاعدة الفكرية لانتزاع هذه البلاد ذاتها من ايدي اهلها، فبعثت من ركام التاريخ تعابير تفي بالغرض مثل "ارض الميعاد" و"شعب الله المختار" و"العهد" و"صهيون" و"يهودا" و"السامرة" و"اورشليم" وبذلك تم تشييد الهيكل الدعائي للحركة الصهيونية، آخر الحملات الصليبية وأشدها دهاء. فهذه الحركة لا تزال في جوهرها حركة استيطانية مسلحة، قدمت من بلاد الغرب واستعمرت قطعة من بلاد الشرق واخضعت أهلها واستندت على قاعدتها في الغرب لتقديم الدعم بالرجال والاموال والعتاد. ولكن تغيير الاديان، وما تبعه من تغيير الرموز والشعارات ادى الى اغشاء الأبصار وتضليل العقول. فبدل أن يستمر طرح التناقض بين الغرب المسيحي من جهة والشرق المسلم العربي من جهة اخرى، عرض على انه صراع

بين اليهود والعرب ودعي بالقضية الفلسطينية، فقد تطوع اليهود الغربيون، اثر تعرضهم لعنف اللاسامية الجامح، الى القيام بهذه الحملة الصليبية الحديثة، خدمة لاسيادهم في الغرب، ورأوا بذلك مخرجا من "الغيتو" ومعسكرات الاعتقال. ثم انضم تحت لوائهم، وتحت سلطتهم، اليهود الشرقيون ليقدموا المادة البشرية الضرورية لانجاح هذه الحملة.

دعت الحركة الصهيونية اليهودية، التي ابتدأت بالعمل المنظم في القرن التاسع عشر، الى الاعتراف باليهود كأمة واحدة وبارتباطهم التاريخي بالاراضي المقدسة، وبحقهم بالعودة اليها وانشاء وطن قومي لهم فيها. ولكن بذور هذه الحركة لم تبدأ في القرن الماضي ولم تقتصر على اليهود، اذ ان حلم اليهود في العودة الى اورشليم قديم قدم السبي وايام بابل، ولكنه بقي حلما في مخيلتهم عبر العصور، بما فيها العصور الصليبية حين ذاق اليهود، للمرة الاولى، عنف اللاسامية الغربية الجامح، اذ احرق رعاع الصليبيين احياء اليهود وقراهم في اوروبا وهم في طريقهم الى المشرق عتابا لهم لقتلهم المسيح. وبعد تأسيس دولتهم في القدس نفى الصليبيون من لم يقتل من اليهود مع المسلمين منها ومنعوهم من الدخول اليها الى ان حررها صلاح الدين عام ١١٨٧ وسمح لهم بالعودة اليها. وقد تزايد عدد مهاجري اليهود من اوروبا مع تزايد الاضطهاد الديني ضدهم منذ القرن الثالث عشر. ولكن هجرتهم بقيت محدودة وغير قانونية، وظل حلمهم بالعودة وهما في مخيلة اجيالهم المتعاقبة الى ان تبنته المجتمعات الغربية المسيحية، ووفرت لهم الدعم الذي نقله من مخيلة الكهان الى ارض فلسطين.

وقصة تطور اليهود من كونهم اولى ضحايا الحركة الصليبية المسيحية في القرنين الثاني والثالث عشر الى كونهم منفذي وجنود الحركة الصهيونية التي حظيت وتحظى بعطف ودعم الغرب المسيحي في القرنين التاسع عشر والعشرين هي قصة معقدة تتطلب دراسة شاملة لتاريخ اوروبا والشرق الاوسط، وتحتاج الى كثير من البحث والتقصي. على اننا نرى ان الصراع التاريخي بين الشرق العربي الاسلامي والغرب المسيحي يوفر الخلفية اللازمة لفهم هذه القصة. فالصراع الذي بدأ بالفتوحات الاسلامية ضد الدولة البيزنطية (التي اصبحت رومية اورثوذكسية فيما بعد) واستمر عدة قرون تطور الى الصراع الاسلامي مع اوروبا الكاثوليكية اللاتينية في الاندلس وفي الدولة الصليبية ثم الى الفتوحات العثمانية التي اوصلت المسلمين الى حروب مع القوميات الاوروبية المختلفة، وفروع الديانة المسيحية الثلاثة فيها، الاورثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية.

وقد ادى انحطاط الدولة العثمانية في القرنين الماضيين وهزيمة جيوشها في الشرق الاوسط على ايدي القوات البريطانية وحلفائها العرب خلال الحرب العالمية الثانية الى اعادة السيطرة الغربية على المشرق، وابتدأ بذلك فصل مأساوي الابعاد على الشرق تحددت ملامحه بمعاهدة سايكس بيكو عام ١٩١٦ ثم بوعد بلفور عام ١٩١٧، ووضع هذه الاتفاقيات موضع التنفيذ رغم كل الوعود الغربية للعرب "بمكافأتهم" على الدور الذي لعبوه ضد الدولة العثمانية. وما تاريخ هذا القرن في بلادنا منذ تلك الفترة الى يومنا هذا الا تكريس لسايكس بيكو وبلفور.

ان هذا الصراع التاريخي بين الحضارتين الغربية المسيحية والشرقية العربية المسلمة يوفر الخلفية التاريخية التي ادت الى نشوء وتطور الفكر الصهيوني المسيحي اللايهودي في الغرب. اذ ان التوراة التي اسبغت الشرعية على امتلاك المسيحيين للاراضي المقدسة خلال الحملة الصليبية، استخدمت هي بعينها لاسباغ هذه الشرعية على امتلاك اليهود لفلسطين في القرون التالية. وقد قدمت رجينا شريف بحثا رائدا في كتابها "الصهيونية غير اليهودية" اوضحت فيه دور حركة الاصلاح البروتستانتية، بنظرتها الاصولية وعودتها الى التوراة، في بعث اسطورة شعب الله المختار، واسطورة العهد التي ترتكز على استمرارية الاتصال بين اليهود شعب الله المختار والبلاد المقدسة، ثم اسطورة التبشير بعودة المسيح المنتظر بعد عودة شعب الله المختار الى البلاد المقدسة حيث يؤسس فيها وطنا يدوم ابد الدهر.

وقد جمعت حركة الاصلاح البروتستانتية، منذ مطلعها، بين اللاسامية من جهة، والصهيونية السياسية من جهة اخرى. اذ نرى مارتن لوثر يكتب في القرن السادس عشر "ومن يحول بين اليهود وبين عودتهم الى بلادهم يهودا؟ لا احد! ولسوف نزودهم بكل مؤونة الرحلة، وما ذلك الا لكي نتخلص منهم، فهم عبء ثقيل علينا". وقد تبنت الحركة البيوريتانية من خلال الحركة البروتستانتية، في انجلترا في القرنين السادس والسابع عشر فكرة عودة اليهود الى البلاد المقدسة على انها تحقيق لنبوءات التوراة ودعت اليها. وما ان اطل القرن الثامن عشر حتى رأينا ان هذه الفكرة التي بدأت هامشية بدأت تضرب جذورا بين اعلام الفكر والفلسفة والعلم والادب والشعر. ورأينا رجالا مثل لوك واسحق نيوتون يدعون الى عودة اليهود، كما فعل ذلك بريستلي مكتشف الاكسجين الذي صلى لليهود "لان يتجمعوا من جميع الامم وان يتوطنوا في بلادهم ارض كنعان"، كما دعا جان جاك روسو "لان يصبح لليهود دولة حرة، بمدارسها وجامعاتها". ثم ان باسكال اعرب عن اعجابه باليهود

بصفتهم "الامة الاولى" واعتبر اسرائيل "البشرى الرمزية بقدوم المسيح"، ووصف ايمانيويل كانت اليهود بانهم "الفلسطينيون الذين يقطنون بيننا". واعتقد فخته، الفيلسوف الالماني المعروف بعداوته لليهود ان "لا مكان في اوروبا لليهود وعلى الامة اليهودية ان تعود الى جذورها في فلسطين" ولم ير حلا للمسألة اليهودية او لاوروبا "الا باحتلال البلاد المقدسة لهم ثانية واعادتهم اليها".

ومع انتعاش الحركات الانجيلية والاصولية في انجلترا في القرن التاسع عشر، انتشرت الدعوة بالحاح الى عودة اليهود قبل نهاية القرن وعودة المسيح المنتظر، حسب النظرة الالفية، وقد رادف كل هذه التيارات نظرة رومانسية في الادب يصح ان نسميها بالنظرة الرومانسية الصهيونية. وتتميز هذه النظرة بتعاطفها مع اليهود واعجابها بهم وتظهر "اليهودي الخيالي" متحليا بالجدارة والمقدرة على الاحتمال والبقاء رغم "الكوارث التي حلت بأمته"، ونرى كبار شعراء هذا القرن يعكسون هذا الاعجاب، ويحضون اليهود على العودة الى البلاد المقدسة، وقد فعل ذلك اللورد بايرون، وولتر سكوت، ووليم ووردزوارث، وروبيرت براوننج، وجورج اليوت وغيرهم.

وهكذا نرى ان التيار الصهيوني كان قد جرف المجتمع المسيحي الاوروبي، وحقق الانجازات الفكرية والادبية والشعرية في مخيلة هذا المجتمع قبل ظهور الحركة اليهودية الصهيونية وتنظيمها في اواخر القرن.

ومن نافل القول ان رجال السياسة قد استفادوا من شعبية هذا التيار الذي ساندته قطاعات هامة من شعوبهم:

١ - مجموعة المتدينين الانجيليين الذين اعتقدوا ان عودة اليهود الى الاراضي المقدسة تحقيق لنبوءة آلهية وتبشير بقدوم المسيح المنتظر.

٢ - مجموعة رجال الفكر والادب والعلم التي نظرت اجمالا للمسألة اليهودية كمسألة انسانية يجب ان يوضع فيها حد لتشرد اليهود وعذابهم، كما رأى الكثير منهم ان اليهود اكتسبوا حقهم في وطن مستقل لتفوقهم وقدرتهم على البقاء.

٣ - مجموعة اللاساميين، واعداء اليهود، داخل الكنيسة وخارجها، التي حبذت ترحيل اليهود للخلاص منهم.

٤ - مجموعة، ويبدو انها الاقلية، من اليهود التي ارادت الخلاص من حياة المهجر والعنصرية. ولا بد ان نشيد هنا بمدى مقاومة قطاعات كبيرة من اليهود للفكر الصهيوني الذي لم يأملوا فيه خيراً، وانما اعتبروه مشروعا لا ساميا آخر،

سيؤدي الى انتقاص حقوقهم في اوطانهم بأوروبا، والى حرمانهم من المساواة بغيرهم.

٥ ـ القطاعات العريضة من الشعوب الغربية، من رجال الدين والعلم والادب والسياسة الى العمال والفلاحين والبسطاء الذين جمعتهم نظرة عداء تاريخية تجاه العرب والمسلمين، يسرت لهم تبرير انتزاع الاراضي المقدسة من ايدي سكانها دون ابداء اي اهتمام جدي بحق هؤلاء الناس بالحياة والوطن والاملاك.

من الواضح ان الاعتبارات السياسية والاقتصادية لعبت دورا حاسما في تبلور الحركة الصهيونية كما نعهدها، وان بحث هذه الاعتبارات خارج عن نطاق بحثنا هذا، ولكن العوامل الفكرية والثقافية والحضارية التي اسلفنا ذكرها، مهدت لرجال السياسة نقل المشروع الصهيوني من اذهان الكهان الى ارض فلسطين، ولن نتعرض هنا الا لذكر حفنة بالغة التأثير من هؤلاء السياسيين لنرى مدى التسهيلات التي منحوها للمشروع الصهيوني.

من اول هؤلاء ـ تاريخيا ـ الامير پتومكين، عشيق القيصرة الروسية كاترين الثانية ـ العظمى ـ الذي اصبح رجل روسيا القوي من ١٧٧٤ ـ ١٧٩١، وشن "الحروب التركية" للتوسع جنوبا وغربا. وقد جمع پتومكين هذا بين الحمى الدينية التي كانت تدفعه للاعتزال اياما متتالية للتعبد وبين الفسق والفجور الفاضح، ويهمنا من سيرته انه حاول تحقيق "المشروع اليوناني" الذي يقضي باسقاط الدولة العثمانية في القسطنطينية وبسط النفوذ الروسي الاورثوذكسي عليها، ويتضمن هذا المشروع "تحرير القدس" وترحيل اليهود اليها، واقامة وطن قومي لليهود في فلسطين لايمانه بحقهم فيها. وبذلك كان پتومكين اول من فهم الابعاد الحقيقية لهذا المشروع اذ فطن ان ذلك لن يتحقق الا بعد حروب مضنية، فأسس اول كتيبة عسكرية يهودية في التاريخ المعاصر واسماها "اسرائيلوفسكي" ولا حاجة بنا لتأكيد اهمية بث الروح العسكرية في اليهود ومدى تأثير ذلك على الحركة الصهيونية.

اما الشخصية التاريخية الاخرى التي نود الاشارة اليها فهي نابليون بونابرت الذي دعاه وايزمن "اول صهيوني غير يهودي معاصر". اذ ان نابليون دعا اليهود الى مساعدته خلال حملته على سوريا عام ١٧٩٩ وخاطبهم في كتاب مفعم بالاقتباسات والنبوءات من التوراة على انهم "ورثة فلسطين الشرعيون" وسمى القدس "مدينة داود" ووعدهم "باسم فرنسا" بأن يمنحهم على الفور "ميراث آبائهم في اسرائيل"، وقد حال صمود عكا بين نابليون ويهوده وبين القدس. الا ان الحركة الصهيونية

حققت على يديه انجازا بالغ الاهمية باعتراف احدى الدول العظمى بأن اليهود امة واحدة وبحقهم في اقامة وطن قومي لهم في فلسطين "ارض آبائهم".

على ان الساحة التي انجبت اكبر عدد من الساسة الصهيونيين المسيحيين، واكثرهم فعالية، فهي بريطانيا بلا جدال. وقد تضافرت سلسلة من الاحداث والتحضيرات من قبل المجموعة الدينية الاصولية فأدت الى تأسيس اول قنصلية بريطانية في القدس عام ١٨٣٨ بقرار من اللورد بالمرستون وزير الخارجية، ثم انه عين بعد ذلك اللورد يونج مبعوثا فيها، وهو انجيلي متدين ومن كبار دعاة الحركة الصهيونية، وفوضه بفرض الحماية البريطانية على اليهود لا في فلسطين فحسب بل خارجها في ممتلكات الدولة العثمانية. ومع ان هدف بالمرستون كان سياسيا محضا في خلق مجموعة في المنطقة تدين لبريطانيا بالولاء، كما وان الكاثوليك لفرنسا والاورثوذكس لروسيا، الا ان عددا كبيرا من الشخصيات المسيحية الصهيونية من امثال شارلز تشرتشل، وميتفورد وجيلر تابعت هذا المشروع، داخل المؤسسة السياسية البريطانية، لاسباب دينية، الى ان استجابت هذه المؤسسة لهم وللصهيونيين اليهود في القرن الحالي باعطاء وعد بلفور.

اعتقد ان هذا العرض السريع يساعدنا على ان نرى ان الحركة الصهيونية في القرون الاربعة الماضية كانت في تيارها العريض حركة اوروبية مسيحية، استندت على التوراة كمصدر حق اليهود الشرعي بامتلاك الاراضي المقدسة، وعلى التنبؤات الواردة فيها عن عودة اليهود الى اورشليم قبل عودة المسيح المنتظر. ولم تغب اهمية هذا المصدر عن بال بن جوريون الذي قال "ان التوراة هي عقد تملك الشعب اليهودي للاراضي المقدسة". وقد خلقت هذه الحركة الصهيونية غير اليهودية المناخ السياسي والفكري والمادي لبعث الحركة الصهيونية اليهودية في اواخر القرن التاسع عشر ثم في هذا القرن. ثم ان هذا المناخ المتعاطف والمساند مكن الحركة الصهيونية التي اقتصر تنظيم اعضائها على اليهود، من تحقيق انجازات متصاعدة بدأها هرتزل بعقد اول مؤتمر صهيوني في باسل عام ١٨٩٧، وتابعها وايزمن بالحصول على وعد بلفور عام ١٩١٧، ثم بن جوريون بتأسيس دولة اسرائيل عام ١٩٤٨، ثم اشكول بحملته التوسعية عام ١٩٦٧، ثم بيجن بتحييد مصر عن النزاع عام ١٩٧٩ الى شامير الذي يحاول في وقتنا هذا ان يثبت احتلال بقية ارض فلسطين.

النظرة الصهيونية للصليبية

عكست الدراسات الصهيونية الاولى للحركة الصليبية اهتمام البحاثة اليهود بمصير اليهود في الغرب والشرق خلال الحملات الصليبية. على ان هذا الاهتمام تطور مع الزمن ليعكس نظرة هؤلاء الباحثين للدولة الصليبية على انها النموذج التاريخي الحي الذي يمكن استقراؤه وتمحيصه للاستفادة من تجربته. ومع ان هؤلاء الباحثين ينكرون، باصرار يدعو الى الاستغراب اي تشابه بين الصهيونية والصليبية، إلا ان العدد المتزايد من المؤرخين الاسرائيليين، ومدى كثافة وعمق ابحاثهم بالتجربة الصليبية من جميع نواحيها، يدل على تحسسهم للاهمية الخاصة التي تعنيها لهم تلك التجربة.

لا يجوز بحث موضوع الدراسات الصهيونية للحركة الصليبية دون الاشارة الى جوشوا پراور، الذي هاجر من مسقط رأسه في بولندا عام ١٩٣٦، وانخرط في صفوف الهاجاناه، ثم انغمس في دراسة الحركة الصليبية، وما زال، بعد خمسة عقود ينشر الابحاث ويشرف على تدريب الكوادر المتتالية من مؤرخي اسرائيل المختصين في الدراسات الصليبية، وقد تبوأ ارفع المناصب في المؤسسة التعليمية والثقافية. وفي عام ١٩٨٢ عقد في القدس مؤتمر عالمي على شرفه قدم خلاله اثنان وعشرون عالما ابحاثا في الصليبيات اهديت اليه، وفي اوائل تموز عام ١٩٨٧ في الذكرى الثمانمائة لمعركة حطين، استضاف پراور وزملاؤه مؤتمرا دوليا لدراسة المؤسسات الصليبية في المشرق حضره خمسة وسبعون عالما زاروا خلاله موقع حطين.

تتميز دراسات پراور للحركة الصليبية عن الدراسات التقليدية التاريخية لكونه اول من نظر اليها كحركة استيطانية كولونيالية، فكتب ابحاثا رائدة في تشريح الدولة الجديدة، ومهد لتلاميذه، الذين اصبحوا زملاءه فيما بعد، سبل البحث في كيان هذه الدولة ومؤسساتها، وطبيعة الحكم فيها، والاسس التشريعية لهذا الحكم، ونظامها العسكري، وتطور مفهومها الامني، وتأثير العوامل الجغرافية كالصحراء على الاعتبارات الاستراتيجية، وطبيعة علاقة الصليبيين بالغرب وبالكنيسة والعوامل الدعائية والاعلامية، ثم طبيعة علاقة الصليبيين بالسكان المحليين المدعوين بالاقليات من مسلمين، ومسيحيين شرقيين، ويهود، وبدو، واسماعيلية، وموارنة بكثير من التفصيل، كما بحثوا المشاكل الديمغرافية الناجمة عن قلة عدد الصليبيين وقتل وتهجير سكان المدن الاصليين، ومدى تأثير ذلك على الزراعة والامن الغذائي

واقامة المستوطنات. ثم درسوا الحياة الفكرية والعقلية في تلك الفترة، وفن العمارة وتشييد القلاع التي نشطوا في التنقيب عنها والحفاظ على اثارها. وقد نشر پراور وتلميذه بنفنستي* اطلس لدولة القدس اللاتينية يحتوي على الاسماء الاجنبية للمدن والقرى والخرب والقلاع التي استعملها الصليبيون، مستندين الى المراجع الدينية في التوراة والانجيل، ويجدر بالذكر ان كثيرا من هذه الاسماء اعيدت للاستعمال في هذا الزمن.

اما الشق الاخر من دراساتهم فقد ركز على الدراسات الاسلامية، إذ درسوا الوضع السياسي والاجتماعي المعاصر في المجتمع العربي ـ الاسلامي، والحياة العقلية والفكرية، والادب والاشعار والامثال الدارجة في تلك الفترة، ثم بحثوا في فكرة الجهاد وفاعليتها في تحريض المسلمين على القتال، كما درسوا طبيعة الحكم والعلاقات الطبقية والتجارية والزراعية ومدى انعكاس هذه العوامل على الدولة الصليبية.

وليس يدل على نشاط العلماء الاسرائيليين في هذا المجال اكثر من عضويتهم في جمعية دراسة الصليبيات والشرق اللاتيني ومركزها في بريطانيا، اذ ينضم الآن لهذه الجمعية خمسة وعشرون عالما وعالمة من اسرائيل من اصل ٢٣٧ من جميع انحاء العالم ـ مقابل سبعة علماء عرب. ويجدر بالذكر ان هذا الرقم لا يعكس عدد العلماء اليهود غير الاسرائيليين الذين يمارسون دراساتهم في هذا الموضوع في مختلف الجامعات الغربية.

من الجدير بالملاحظة ان الابحاث الصهيونية في الصليبيات على كثرتها، تكاد تنحصر في مملكة القدس الصليبية ولا تتخطاها الا في النادر، لدراسة الامارات الصليبية الاخرى في طرابلس وانطاكية والرها. وقد يعكس ذلك اهتمام الاسرائيليين عموما بالتركيز على التاريخ غير العربي ـ الاسلامي لفلسطين، ولكنه على اي حال، لا يدل على اهتمام علمي مجرد بالوجود الصليبي في الشرق عامة بل ينحصر ذلك في الكيان الذي قام في الاراضي المقدسة.

يسهل علينا ان نتفهم استياء الصهيونيين من مقارنة حركتهم بالحركة الصليبية لما تتضمنه تلك المقارنة عن اسرائيل كعنصر دخيل على الشرق سيلفظه كما لفظ الدولة الصليبية من قبل. ونعتقد ان تشريحهم للكيان الصليبي يستهدف استخلاص

---

*) ميرون بنفنستي هو اول نائب لرئيس بلدية القدس بعد سقوطها عام ١٩٦٧ ويختص حاليا بدراسة احوال الضفة الغربية.

العبر التي تعينهم على تجنب ذلك المصير. فنرى انهم نجحوا بالفعل في تفادي اخطاء الصليبيين في نواح اساسية عدة، كاستعمال اليهود في الزراعة، وتأسيس الجامعات وتشجيع العلم والفكر، وتهجير السكان الاصليين، وتشجيع الهجرة اليهودية بشتى الوسائل، والتمييز بين الاقليات، وتعميق العلاقات الصهيونية الدولية، والتدخل بشكل فعال في شؤون البلاد المجاورة. ولكنهم لم ينجحوا في نواح اخرى مثل التمسك بالعنصرية وعدم الانصهار في الشرق، والاعتماد على المساعدات الخارجية والفشل في اجتذاب ثم استيعاب عدد اكبر من المهاجرين من البلاد الغربية.

اما التشابه الاساسي بين التجربتين، وهو التشابه الاجتماعي الانساني، فلم يغب عن مخيلة جوشوا براور، اذ نراه يصدّر كتابه الصادر عام ١٩٧٢ "المملكة اللاتينية في القدس" بهذا النص من كتاب فوشيه الذي بين يديك:

"وانني اتوسل اليك ان تتبصر وتمعن الفكر مليا كيف حول الله في زمننا هذا، الغرب الى الشرق.

اذ ان اولئك الذين كانوا غربيين اصبحوا الان شرقيين، ومن كان روميا او فرنجيا قد تحول في هذه البلاد الى جليلي او فلسطيني ومن اتى من الرايم او شارتر اصبح الان مواطنا في صور او انطاكية. وقد نسينا الان امكنة ولادتنا فهي غير معروفة لدى الكثيرين منا الان ولا يرد ذكرها.

ويمتلك البعض البيوت والمنازل بالميراث الآن، واتخذ البعض زوجات لهم لا من بنات جلدتهم بل من السوريات او الارمنيات بل وحتى من الشرقيات اللواتي حظين على بركة العماد، فقد يسكن مع المرء حماه او زوجة ابنه، او ابنه ان لم يكن ابن زوجته او زوج امه. فلدينا هنا احفاد واولاد احفاد. ويعتني البعض بزراعة الكرمة ويحرث الاخرون الحقول.

يلجأ الناس الى استعمال التعابير والبيان من لغات شتى في التحادث فيما بينهم. فاصبحت الكلمات من اللغات المختلفة ملكية مشتركة تعرفها كل امة، ويوحد الدين المشترك ما بين اولئك الذين جهلوا اصلهم. وحقا لقد ورد في الكتاب "الذئب والحمل يرعيان معا والاسد يأكل التبن كالبقر" (اشعياء ٦٥: ٢٥) ومن ولد غريبا اصبح الان كمن ولد هنا، ومن ولد اجنبيا صار كابن البلد.

وبين فترة واخرى، ينضم الينا اقرباؤنا ووالدونا مضحين، ولو على مضض، بكل ما ملكت ايديهم في السابق. وقد جعل الله من كانوا فقراء في الغرب، اثرياء

في هذه البلاد. ومن كان لديهم قليل من المال ملكوا ما لا يحصى من القطع الذهبية هنا، ومن لم تكن لديهم دار امتلكوا بنعمة الله مدينة.

لماذا يعود الى الغرب اذن من وجد الشرق كذلك؟ فالله لا يريد ان يلقى العوز والفاقة اولئك الذين كرسوا انفسهم ليتبعوه بصلبانهم حتى الى النهاية.

انت ترى اذن، ان هذه معجزة خارقة، يجب على العالم بأسره ان يعجب بها. فمن ذا سمع بأمر مثل هذا؟ فالله يشاء ان يغنينا جميعا ويدنينا اليه كأعز اصدقائه. ولانه يشاء ذلك فإننا نتوق اليه بلا تحفظ، فنحن نفعل ما ينال رضاه بقلب تملأه المحبة والخضوع لكي نتولى الملك معه الى ابد الدهر". (فوشيه دو شارتر - الكتاب الثالث)...

نحن والصليبية والصهيونية

اننا لا ننكر، بل نثبت، ان اهتمامنا بالحركة الصليبية يعكس اعتقادنا بأنها النموذج التاريخي الحي الذي يمكن استقراؤه للتفاعل مع الدولة الصهيونية. فوجوه الشبه بين هاتين الحركتين والدولتين صارخة، اذ ان كلا منهما حركة بنيت على الدين، مسلحة عدوانية، استيطانية، غربية المصدر، فلسطينية المستقر، عنصرية غير انصهارية، اعتمدت على الدعم الغربي ماليا وعسكريا وسياسيا ودعائيا واجتماعيا، ثم ان كلا منهما نشأت في فترة انقسام وشرذمة الشرق.

على ان وجوه الخلاف بين هاتين الحركتين لا تقل اهمية عن وجوه التشابه. فالخلاف لا ينحصر بمقارنة الحركتين بل ينطبق ايضا على تباين اوضاع العرب والمسلمين بين الفترة الصليبية والفترة الصهيونية:

١ - بينما نشأت الدولة الصليبية في فترة شبه تكافؤ بين المشرق العربي الاسلامي والغرب المسيحي في القوى السياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية، مالت فيه كفة الشرق الى الرجحان، نرى ان الصهيونية نشأت في فترة تفوق فاضح للغرب على المشرق في جميع هذه المجالات ونخص بالذكر التفوق العسكري. اذ ان المشرق اضطر للدخول في حروب حديثة معتمدا كليا على اسلحة مستوردة من الغرب بشقيه الاوروبي والاميركي وبمعسكريه الاشتراكي والراسمالي. ولهذه المسألة ابعاد خطيرة ابرزها ان المشرق افتقد استقلالية القرارات السياسية والعسكرية التي قد

يراها مناسبة لعدم توفر الاسلحة اللازمة لتنفيذ هذه القرارات، وليس اقل من ذلك اهمية ان المجتمع الصهيوني انخرط في المجتمع الغربي علميا وثقافيا وعسكريا فأصبح اكثر مقدرة على انتاج الاسلحة المتطورة، بينما بقيت مقدرة العرب والمسلمين على تطويع التكنولوجيا وتطوير الاسلحة محدودة ومرتبطة الى حد كبير بمقدار ما يسمح الغرب لهم من الاطلاع على انتاج مؤسساته الفاعلة في هذه الميادين. ولكن تطوير الاسلحة والقدرة العسكرية لا يتم دون بناء قاعدة عريضة من العلماء والتقنيين والمهندسين والعمال تتابع الاتصال مع مصادر العلوم والابحاث في العالم بأسره.

٢ ـ تقدم الدولة الصهيونية في مختلف ابواب المعرفة وتشجيعها للبحث العلمي، وقد سهل هذه المهمة وجود اليهود بكثرة في المؤسسات العلمية والفكرية والثقافية في العالم الغربي ومساهمتهم الفعالة في هذه الميادين. نقارن هذا التفوق بالتخاذل الفكري والعلمي الذي عانت منه الدولة الصليبية وكان احد اسباب فشلها الرئيسية.

٣ ـ ان محصلة تاريخ القرون السبعة الماضية منذ انطواء الحركة الصليبية تضيف كمية هائلة من التجارب والمعارف للمجتمعات الحديثة تمكنها، ان ارادت واستطاعت، من ان تخلق نماذج اقدر على البقاء من النماذج السابقة. وقد اظهرت الدولة الصهيونية مقدرة على الاستفادة ولو بصورة جزئية من التجربة الصليبية. وان التحدي الذي يواجهه المجتمع العربي الاسلامي هو ان يوظف تراكم معارفه خلال القرون السبعة الماضية، والتجربة الصليبية، والجهاد ضدها، في مواجهة المشكلة الصهيونية.

٤ ـ خلق تفوق الغرب السياسي على المشرق، الذي عبر من مرحلة الكولونيالية الى الامبريالية، واقعا يختلف بشكل جذري عن الواقع الذي واجهته الدولة الصليبية. ذلك ان الهيمنة الغربية على كثير من الدول العربية والاسلامية منعت، وستحاول ان تمنع، تطوير قوة مناهضة للدولة الصهيونية. فبينما انحصر تأثير الدولة الصليبية على بعض الامراء وحكام عدد محدود من المدن والقلاع المجاورة، حافظت الاغلبية الساحقة من السلاطين والامراء والحكام على استقلالها، ولم يتوفر للصليبيين وسيلة فعالة للتأثير عليهم سوى الحرب. اما في عصرنا الحديث فإن نفوذ الدول الغربية وشريكتها الصهيونية في معظم البلاد العربية والاسلامية قد تخطى الحكام الى الانظمة والمؤسسات ووسائل الاعلام، فلا يستطيع الحاكم ان يواجههم حتى لو توفرت له ارادة المواجهة. وما يزيد في عمق المأساة ان الشعوب

تحجب الثقة عن حكامها بتهمة التواطؤ مع الغرب، فيلجأ الحكام الى القمع والتضليل، وتتسع بذلك الهوة بين الحاكم والمحكوم وتشلُّ القدرة على الدفاع والمناورة ضد الاعداء.

٥ ـ كان من اهم نتائج الهيمنة السياسية الغربية في عهد الكولونيالية، تقسيم البلاد في المشرق والمغرب العربي الى اقطار عديدة. ويمكن اعتبار معاهدة سايكس بيكو اهم وثيقة سياسية أثرت على المشرق العربي في القرن العشرين، اذ اقتسم البريطانيون والفرنسيون بلاد المشرق بينهما وقسموها الى عدة اقطار هي العراق وسوريا ولبنان والاردن وفلسطين ـ التي كان البريطانيون بدورهم قد وعدوا اليهود بها ـ وبعد ان نالت هذه الاقطار "استقلالها" تأسست فيها حكومات كرست شرعية هذه التجزئة، وتربت فيها اجيال يكاد ينحصر انتماؤها لقوميتها "القطرية".

من الواضح ان تطور المقاومة المشرقية للحركة الصهيونية كما وصفناه يختلف جذريا عن هذه المقاومة للحركة الصليبية التي بدأت ضعيفة مشتتة في المناطق المجاورة للدولة الصليبية، ثم ترعرعت تدريجيا تحت شعار الجهاد الاسلامي العام، بينما فعلت التجزئة والقطرية فعلها في تشتيت القوى العربية والاسلامية في هذا الظرف الراهن، يضاف الى ذلك ارتباكنا في تحديد هويتنا الحقيقية، بل وتحديد اعدائنا الحقيقيين، والخلط بين التناقضات الاساسية والتناقضات الفرعية.

وأدى هذا كله الى تخبط في اجراءات السياسة والحرب، وأوقعنا في اخطاء خطيرة قادتنا احيانا الى الاركان على حسن نوايا مقسمي بلادنا في سايكس بيكو و"الوثوق بهما"، والى خوض صراعات دموية عربية / عربية او اسلامية / اسلامية لم يستفد منها سوى الاعداء، من مستعمرين وصهاينة، وترتب على ذلك فشل كبير وخذلان في شؤون السياسة والحرب.

د. زياد العسلي

مقدمة المؤلف

١) انه لمن المبهج للاحياء، بل انه من النافع للأموات، أن تُقرأ في الصحائف المسطورة اعمال الشجعان من الرجال، لا سيما اولئك الذين يقاتلون من أجل الله[1] أو أن تتداولها ألسنة المؤمنين بخشوع اذ هي محفوظة في ثنايا ذاكرتهم، فالاحياء عند سماعهم بمقاصد اسلافهم التقيه، وكيف اطاع هؤلاء ناموس الاناجيل، وازدروا متاع الحياة الدنيا وهجروا والديهم وزوجاتهم وأموالهم مهما عظمت، يحفزهم ذلك على ان يتبعوا الله ويكرسوا انفسهم له. (متى ١٢: ٢٩، مرقس ١٠: ٢٩، لوقا ١٨: ٢٩، متى ١٦: ٢٤، مرقس ٨: ٣٤، لوقا ٩: ٢٣)(*)

وأما الأموات الذين قضوا في سبيل الله، فإن جليل الفائدة يعود عليهم اذا ما تذاكر المؤمنون من الاحياء سير واعمال اسلافهم الصالحة الورعة فدفعهم ذلك الى الدعاء لموتاهم ومباركة ارواحهم، وتقديم العطايا المقرونة بالصلوات من أجلهم ومحبة بهم، سواء عرفوهم أم لم يعرفوهم.

---

* متى ١٢: ٢٩
ام كيف يستطيع أحد أن يدخل بيت القوي وينهب امتعته ان لم يربط القوي اولا وحينئذ ينهب بيته.
مرقس ١٠: ٢٩ - ٣٠
فأجاب يسوع وقال الحق اقول لكم ليس أحد ترك بيتا او اخوة او اخوات اوابا اواما اواولادا او حقولا لاجلي ولاجل الانجيل الا ويأخذ مئة ضعف الان في هذا الزمان بيوتا واخوه وأخوات وأمهات واولادا وحقولا مع اضطهادات وفي الدهر الآتي الحياة الابدية.
لوقا ١٨: ٢٩ - ٣٠
الحق اقول لكم ان ليس احد ترك بيتا او والدين او اخوة او امرأة او اولادا من أجل ملكوت الله، الا ويأخذ في هذا الزمان اضعافا كثيرة وفي الدهر الآتي الحياة الابدية.
متى ١٦: ٢٤
حينئذ قال يسوع لتلاميذه ان اراد احد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني.
مرقس ٨: ٣٤
ودعا الجميع من تلاميذه وقال لهم: من اراد ان يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني.
لوقا ٩: ٢٣
وقال للجميع ان اراد احد ان يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني.

٢) لهذا، ومدفوعا بإلحاح الطلب من بعض رفاقي، فقد سردت بعناية وترتيب أعمال الفرنجة المجيدة، حين أطاعوا أوامر الله الجلية، وقاموا مسلحين، بحجتهم الى القدس لتعظيم المخلص. وقد سردت بأسلوب بسيط ولكنه صادق، ما اعتقدت أنه جدير بالذكر وسجلت على قدر ما استطعت، ما شاهدت بأم عيني في تلك الرحلة.[٢].

٣) ومع أنني لا اجرؤ على مقارنة أعمال الفرنجة السابقة الذكر، بانجازات الاسرائيليين او المكابيين العظيمة، أو كثير من شعوب الله المختارة، التي حباها بالمعجزات المتعددة الخارقة، الا أنني لا اعتقد أن انجازات الفرنجة تقل عنها شأنا، فالمعجزات الآلهية تحققت مراراً بينهم. وقد سعيت جاهداً لاحياء ذكراها بالكتابة. وكيف يختلف الفرنجة عن الاسرائيليين او المكابيين؟ فالحق أننا رأينا هؤلاء الفرنجة في ذات البلاد، وكثيرا ما كانوا على مقربة منا، أو سمعنا عنهم في اماكن تبعد عنا، يعانون من تمزيق الاعضاء، والصلب، والضرب والموت بالسهام، أو بتقطيع الاوصال او بأي وسيلة اخرى للشهادة، وذلك كله في سبيل محبة المسيح. ولم تقعدهم التهديدات ولا الاغراءات. بل لو أن سيف الجزار كان على مقربة منا لما تحاشى الكثيرون منا الشهادة محبة في المسيح.

٤) كم من الالاف المؤلفة من الشهداء لاقت حتفها المبارك في هذه الحملة! من ذا الذي اشتدت قساوة قلبه فيسمع بأعمال الله هذه دون ان تهتز أعمق مشاعر الخشوع في نفسه ولا يطلق صوته بمديح الرب؟ من ذا الذي لا يأخذه العجب إذ يرى كيف استطعنا ونحن قلة في قلب بلاد اعدائنا لا ان نقاوم فحسب بل ان نعيش؟ من ذا الذي سمع بمثل هذا؟ فإلى جانبٍ منا كانت مصر والحبشة والى الجانب الاخر كانت بلاد العرب، وسوريا واشوريا وميديا، وبلاد ما بين النهرين وفارس. هنا فصلنا بحر عظيم[٣] عن بلاد المسيحيين، ووضعنا الله بمشيئته في قبضة الجزارين. ولكن ذراعه الجبارة قد حمتنا "طوبى للأمة التي الرب الهها" (مزامير ٣٣: ١٢)

٥) سوف نسرد فيما يلي تاريخ بداية هذا العمل، ونخبر كيف كرست جميع الشعوب الغربية، قلوبها وسواعدها من دون حساب من أجل انجاح هذه الحملة.

(هنا تنتهي مقدمة فوشيه)

١) تظهر هذه المقدمة في معظم نسخ الطبعة الثانية التي بدأت في عام ١١٢٤ م، وفي احدى نسخ الطبعة الأولى ويعتقد الباحث هاجنمير ان المقدمة كتبت بين عامي ١١١٨ - ١١٢٠ م.

٢) يذكرنا فوشيه اذ يصف اسلوبه بالبساطة او الخشونة انه انحدر من شارتر، التي اشتهرت انذاك بالدراسات الكلاسيكية، ولا بد انه كان يدرك ذلك، فقد اورد بالفعل اسنادات كثيرة الى الكتاب الكلاسيكيين. وقد استعمل في كتابته اللغة اللاتينية المتوسطة لا الكلاسيكية، ويبدو أن ذلك سبب له بعض الحساسية. وتجدر الملاحظة أنه كشف النقاب هنا عن كونه شاهد عيان للحملة الصليبية الأولى.

٣) البحر الابيض المتوسط.

الكتاب الاول

هنا يبدأ الكتاب الاول من اعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس

المجلس الذي عقد في كليرمونت

١) في عام ١٠٩٥ بعد ميلاد سيدنا المسيح، بينما كان هنري، المدعو بالامبراطور، يحكم في المانيا[١] والملك فيليب في فرنسا[٢] واستشرت الشرور في مختلف انحاء اوروبا بسبب التذبذب في الايمان. وقد حكم البابا اوربان الثاني[٣] في تلك الفترة في روما، وكان رجلا باهرا في الذات والصفات، مكافحا بحكمة وجلد من اجل اعلاء مركز الكنيسة المقدسة.

٢) لقد رأى الناس بأسرهم من الكهنة والعامة، وقد وطئوا الديانة المسيحية بأقدامهم واهملوا السلام كل اهمال، وتناحر امراء البلاد واحدهم مع الاخر في حروب لا تنقطع. رأى الناس يسرقون متاع الدنيا بعضهم من بعض، ورأى كثيرا من الاسرى يحتجزون من غير حق ويلقون بهمجية في غياهب السجون الى أنْ تدفع فديتهم الفاحشة أو يعانون من عذاب الشرور الثلاثة: الجوع والعطش والبرد الى أن يلقوا حتفهم سراً. ثم رأى الاماكن المقدسة وقد انتهكت حرماتها والصوامع والكنائس قد التهمتها النيران، وما سلم من الاذى أحد من البشر، وصارت الشؤون البشرية والآلهية موضع ازدراء وسخرية.

٣) عندما سمع اوربان أن الاتراك قد احتلوا المناطق الداخلية من اراضي بيزنطية وأن المسيحيين خضعوا لشعب متوحش هدام[٤]، هزته مشاعر التقى والورع واجتاز، مدفوعا بمحبة الله، الجبال هابطا الى اراضي فرنسا ودعا الى مجلس يعقد في اوفيرن، في مدينة كليرمونت[٥]. تألف هذا المجلس الذي كان قد بعث الدعاة للتحضير له في جميع النواحي، من ٣١٠ أعضاء من الاساقفة والقساوسة.[٦].

٤) وفي اليوم المحدد، التأم الجمع حول البابا اوربان فألقى فيهم خطاباً بليغاً تناول فيه الغرض الذي دعا من اجله[٧]. وبصوت مفعم بالآسى اخبرهم عن عذاب الكنيسة، والقى موعظة بليغة عن العواصف الهوجاء التي تجتاح العالم الذي انحط فيه مستوى الديانة كما ذكرنا من قبل.

٥) وبخشوع، حث الجميع على ان يسترجعوا قوة ايمانهم وأن يثيروا في نفوسهم العزم على خذل الاعيب الشيطان، وأن يعملوا على أن يعيدوا للكنيسة المقدسة، التي أضعفها الاشرار، مركزها المجيد التليد.

خطاب اوربان في المجمع

١) ايها الاخوة الاحباء
يا خدم الله في هذه الديار! لقد اتيتكم انا، اوربان، الحبر الاعظم، بإذن من الله حبر العالم أجمع، في هذه الفترة العصبية الحرجة، نذيراً من العناية الآلهية، و"انني لأمل أن يكون وكلاء سرائر الله صالحين مؤمنين لا يشوبهم رياء"
(١ كورنتوس ٤ : ١ ـ ٢)*

٢) اذا كان احدكم منحرفا او مخادعا، بعيدا عن الاعتدال والتعقل والعدل، مانعا كلمة الله على الارض، فسأحاول بعون الله أن أقوّم أعوجاجه. فالله قد جعلكم وكلاء على بيته حتى اذا ما حان الوقت زودتموه بما تيسر من القوت. وستحل عليكم البركة المؤكدة اذا ما وجدكم رب الوكالة مؤمنين[٨].
(متى ٢٤ : ٤٥ ـ ٤٦)**

٣) انكم تسمون رعاة، فلا تتصرفوا كالاجراء. كونوا رعاة حقيقيين واحملوا عصيكم بأيديكم، ولا تغفلوا، واحرسوا من جميع النواحي القطيع الذي عهد اليكم.
(يوحنا ١٠ : ١٢ ـ ١٣)***

---

* ١ كورنتوس ٤ : ١ ـ ٢
هكذا فليحسبنا الانسان كخدام المسيح ووكلاء سرائر. ثم يسأل في الوكلاء لكي يوجد الانسان امينا.

** متى ٢٤ : ٥٤ ـ ٤٦
فمن هو العبد الامين الحكيم الذي اقامه سيده على خدمه ليعطيهم الطعام في حينه. طوبى لذلك العبد الذي اذا جاء سيده يجده يفعل هكذا.

*** يوحنا ١٠ : ١٢ ـ ١٣
اما الذي هو اجير وليس راعيا الذي ليست له الخراف فيرى الذئب مقبلا فيترك الخراف ويهرب فيخطف الذئب الخراف ويبددها. والاجير يهرب لأنه اجير ولا يبالي بالخراف.

٤) اما اذا خطف الذئب، بسبب اهمالكم وتقصيركم، خروفا فإنكم لم تخسروا ما اعده الله لكم فحسب بل ستلقون في جحيم من حقت عليهم اللعنات بعد ان تقرعكم عصا الجلاد.

٥) وكما جاء في الكتاب المقدس "انتم ملح الأرض" (متى ٥ - ١٣) ولكن اذا فشلتم فكيف يتم التمليح؟ آه كم من الرجال يجب أن يملحوا (متى ٥ : ١٣، مرقس ٩: د لوقا ١٤: ٣٤) عليكم ان تملحوا، بملح حكمتكم المصلحة، الجهلاء الذين يتكالبون على ملذات هذا العالم. وإلا فإنهم سينقلبون الى حجارة بسبب طغيانهم وسيجدهم الله مفتقرين الى ملح الحكمة عندما يخاطبهم.

٦) لانه ان وجد فيكم دودا، اي خطايا، بسبب تقاعسكم عن القيام بواجباتكم، فسيأمر بالحال بطرحكم محتقرين في قرارة جهنم (مرقس ٩: ٤٨) وبما انكم لن تقدروا على أن تعوضوا هذه الخسارة له، فسيحكم عليكم باللعنة ويقصيكم في الحال من حضرته ويحرمكم من محبته.

٧) ولكن الذي يملح عليه أن يكون حكيما بعيد النظر، متواضعا، عليما محبا للسلام، باحثا عن الحقيقة، تقيا عادلا، منصفا وطاهرا. اذ كيف يجعل الجاهل غيره عالما، او المتعالي غيره متواضعا والمدنس غيره طاهرا؟ اذا كان المرء يكره السلام فكيف يستطيع احقاق السلام؟ واذا ما تلوثت يدا امرىء فكيف يستطيع تنظيف من تلوث بقذارة اخرى؟ فقد ورد في الكتاب "ان كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما في حفرة" (لوقا ٦: ٣٩)*

٨) اذن اصلحوا انفسكم اولا حتى لا تجوز عليكم الملامة اذا ما اصلحتم من تحت وصايتكم. وان اردتم أن تكونوا حقا اخلاّء الله فاعملوا عن طيب خاطر بما يرضيه.

٩) اريدكم على الأخص ان تراعوا شؤون الكنيسة وأن تحافظوا على شرائعها حتى لاتضرب هرطقات المتاجرة بالدين جذورها بينكم، واعلموا ان البائعين والشارين، يلفحهم سوط الله (متى ٢١: ١٢، مرقس ١١: ١٥، لوقا ١٩: ٤٥، يوحنا ٢: ١٥)** سوف يقادون تعساء عبر ابواب ضيقة الى الهلاك

---

* لوقا ٦: ٣٩
هل يقدر اعمى ان يقود اعمى اما يسقط الاثنان في حفرة.

** متى ٢١ - ١٢
ودخل يسوع الى هيكل الله واخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام.

الشامل.

(لوقا ١٣: ٢٤، متى ٧: ١٣)*

١٠) صونوا حرية الكنيسة بكل مراتبها من القوى الدنيوية، وقوموا بدفع الاعشار من كل خيرات الارض للرب بامانة، فلا تباع ولا تستبقى.

١١) فلتحق اللعنة على كل من يختطف اسقفا، ولتحق اللعنة على كل من يختطف راهبا او قسا او راهبة، او خدامهم، او الحجاج او التجار، ويمسهم بالاذى. وليحق الطرد من الكنيسة والحرمان منها على اللصوص وحارقي البيوت وعلى كل من يمد لهم يد العون.

١٢) لقد قال جريجوري "علينا ان نعتبر بشكل خاص مدى قسوة العقوبة التي سننزلها فيمن يسرق من الاخرين، اذا ما حقت عليه لعنة الجحيم، لانه لم يكن كريما بما ملكت يداه". وذاك ما حصل للرجل الغني في الرواية المعروفة

= مرقس ١١: ١٥

وجاءوا الى اورشليم ولما دخل يسوع الهيكل ابتدأ يخرج الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام.

لوقا ١٩: ٤٥ - ٤٦

ولما دخل الهيكل ابتدأ يخرج الذين كانوا يبيعون ويشترون فيه قائلا لهم مكتوب أن بيتي بيت الصلاة وانتم جعلتوه مغارة لصوص.

يوحنا ٢: ١٥

فصنع سوطا من حبال وطرد الجميع من الهيكل الغنم والبقر وكب دراهم الصيارف وقلب موائدهم.

* لوقا ١٣: ٢٤

اجتهدوا ان تدخلوا من الباب الضيق فإني اقول لكم ان كثيرين سيطلبون ان يدخلوا ولا يقدرون.

متى ٧: ١٣

ادخلوا من الباب الضيق، لانه واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدي الى الهلاك وكثيرون هم الذين يدخلون منه.

في الكتاب المقدس (لوقا ١٦: ١٩ - ٣٠)* فهو لم يعاقب لسرقة اموال الاخرين بل لأنه اساء استعمال الثروة بعد ان حصل عليها.

١٣) يقال يا اخوتي الاحباء انكم رأيتم العالم وقد عاث فيه الشر فسادا لأمد طويل، وخاصة في بعض نواحي مقاطعاتكم كما قيل لنا. ولربما سبب تقصيركم في احقاق العدل ان لا يكاد يجرؤ أحد على السفر في الطرقات مؤملا السلامة، خوفا من الخطف على يد قطاع الطرق في النهار، او اللصوص في الليل، فهو معرض للعنف او للاحتيال سواء كان في داخل المباني او خارجها.

١٤) وعليه فانه يتحتم عليكم تجديد المصالحة المعروفة باسم "مصالحة الله" التي اقرها الاباء المقدسون منذ أمد طويل. وانني احضكم بشدة على أن تراعوا تنفيذها بدقة في كل ابرشية. لا بل اقول انه اذا ما نكث امرء، لطمع او لكبر في نفسه، عهود هذه المصالحة بملء ارادته فليحق عليه الحرمان بالسلطة المخولة من الله، وبإرادة هذا المجلس.

تحريضات البابا بخصوص الحج الى القدس:[٩]

١) عندما تم الاتفاق على هذه الامور، وغيرها، قام جميع الحاضرين، من الكهنة والعامة، بعفوية، بشكر الله على كلمات البابا اوربان. ووعدوه مخلصين باطاعة مراسيمه. ولكن البابا اضاف على الفور ان محنة لا تقل، بل تزيد، عن التي ذكرت بل هي اسوأ المحن على الاطلاق، تحيق بالمسيحية في طرف آخر من العالم.[١٠]

---

* لوقا: ١٦: ١٩ - ٣٠

كان انسان غني وكان يلبس الارجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفها وكان مسكين اسمه لعازر الذي طرح عند بابه مضروبا بالقروح. ويشتهي ان يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغني. بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه. فمات المسكين وحملته الملائكة الى حضن ابراهيم. ومات الغني ايضا ودفن فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب ورأى ابراهيم من بعيد ولعازر في حضنه. فنادى وقال يا ابي ابراهيم ارحمني وارسل لعازر ليبل طرف اصبعه بماء ويبرد لساني لاني معذب في هذا اللهيب. فقال ابراهيم يا ابني اذكر انك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلايا. والان هو يتعزى وانت تتعذب. وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد اثبتت حتى ان الذين يريدون العبور من هنا اليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون الينا. فقال اسألك اذن يا ابت ان ترسله الى بيت ابي. لان لي خمسة اخوة حتى يشهد لكم لكيلا يأتوا هم ايضا الى موضع العذاب هذا. قال له ابراهيم عندهم موسى والانبياء ليسمعوا منهم. فقال لا يا ابي ابراهيم بل اذا مضى اليهم واحد من الاموات يتوبون فقال له ان كانوا لا يسمعون من موسى والانبياء ولا ان قام واحد من الاموات لا يصدقون.

٢) قال "بما انكم يا ابناء الله قد وعدتموه بأن تحفظوا السلام بينكم، وأن تخلصوا أكثر مما مضى في المحافظة على حقوق الكنيسة، فإن عليكم، وقد قوم الله اعوجاجكم ان تؤدوا مهمة ملحة لكم ولله، تستطيعون ان تظهروا فيها مدى صدق نواياكم. عليكم ان تسارعوا لمد يد العون لاخوانكم القاطنين في المشرق الذين يحتاجون الى مساعدتكم وطالما التمسوها.(١١)

٣) ان الاتراك، وهم شعب فارسي، قد هاجموهم كما يعلم الكثيرون منكم. وتقدموا داخل الاراضي الرومانية الى ان وصلوا الى ذلك الجزء من البحر المتوسط الذي يدعى "ذراع القديس جورج"(١٢) لقد انتزعوا شيئا فشيئا من اراضي المسيحيين، كما وهزموهم في سبع معارك حتى الآن، وقتلوا وأسروا الكثيرين، وهدموا الكنائس ودمروا مملكة الله. وان سمحتم لهم بأن يتابعوا عدوانهم يصبح احتلالهم وقهرهم لشعب الله المؤمن أشمل وأعمّ.

٤) لذا، وبصلاة خاشعة، فإنني، لا بل ان الله وليس أنا، يحثكم يا جنود المسيح على أن تحضوا الرجال مهما كانت مراتبهم، فرسانا كانوا ام مشاة، اغنياء كانوا أم فقراء، ان يسارعوا لسحق هذا الجنس الخسيس من اراضينا(١٣) ويمدوا يد العون للسكان المسيحيين قبل فوات الأوان.

٥) انني اخاطب الحاضرين، وأعلن للغائبين، وعلاوة على ذلك فإن يسوع المسيح يأمر بما يلي: كل من يذهب الى هناك سوف تغفر له كل خطاياه اذا ما واجه حتفه زاحفاً في البر أو عابرا البحر، او مقاتلا الكفار، انني امنح ذلك لكل من يذهب، مستمدا القوة من السلطة التي وضعها الله فيّ.

٦) يا خزينا، ويا عارنا، اذا ما انتصر جنس يتسم بهذه الحقارة والانحطاط، وتستعبده الشياطين والعفاريت، على شعب انعم الله القدير عليه بالايمان وتباهى باسم المسيح! آه كم من المعايير سترمون بها حتى من الرب نفسه اذا لم تقوموا بعون من يعتبرون مثل انفسكم في الدين المسيحي.

٧) واضاف البابا: دع اولئك الذين اعتادوا على شن حروبهم الخاصة بطيش على المؤمنين، ان يزحفوا على الكفار بحرب تبدأ الآن ولا تنتهي الا بالنصر. وليصبح اولئك الذين طال كونهم لصوصا جنودا للمسيح. دع اولئك الذين حاربوا في الماضي ضد اخوانهم واقاربهم يحاربون بحق ضد البرابرة. دع اولئك الذين كانوا يستأجرون لقاء عدة قطع من الفضة (متى ٢٧ : ٣)*

* متى ٢٧ : ٣
حينئذ لما رأى يهوذا الذي اسلمه انه قد دين ندم ورد الثلاثين من الفضة الى الرؤساء الكهنة والشيوخ.

يحصلون الآن على ثواب مخلد. دع اولئك الذين كانوا ينهكون انفسهم متلفين اجسادهم وارواحهم يعملون الآن للمجد المثني. أجل فعلى هذه الناحية سيقف التعساء والفقراء، وعلى تلك السعداء والاثرياء. هنا اعداء الله، وهناك اصدقاؤه.

٨) لا تدعوا حائلا يُعق من يريد الذهاب، دعهم يرتبون امورهم، ويجمعون اموالهم، وعندما ينتهي فصل الشتاء ويحل الربيع، دعهم يبدأون بحماس هذه الرحلة في رعاية الله".

عن اسقف لابوى والاحداث التي تلت

١) بعد أن نطقت هذه الكلمات، وثارت حمية الحضور، وعد الكثيرون منهم، اعتقادا منهم ان لا شيء يفوق هذا الأمر اهمية: بأن يذهبوا على الفور، وان يحثوا من لم يحضر الاجتماع ان يفعل مثل ذلك. كان بين الحاضرين اسقف لابوى واسمه اديمار[١١] وهو الذي اصبح فيما بعد الرئيس الروحي الذي قاد بحكمته وحسن تدبيره جيش الرب برمته، والهمه بحزم بأن يؤدي مهمته.

٢) بعد أن تم قرار المجلس على هذه الامور التي ذكرنا، وتمت الموافقة عليها بالاجماع اعطيت بركات الغفران، وانفض الجمع. وبعد ان رجع الجميع الى بيوتهم اخبروا من لم يعلم بما جرى. وعندما نشرت قرارات المجلس في كل اطراف المقاطعات وافق الجميع، حالفين الايمان، على الحفاظ على السلام والتقيد "بمصالحة الله".

٣) وبالفعل فإن كثيرا من الناس، من مختلف المراتب، ما ان سمعوا بغفران الذنوب الا وأقسموا على أن يذهبوا بأرواح طاهرة، سواء أمروا بالذهاب ام لا.

٤) أواه كم اسعد نفوسنا واثلج صدورنا، أن نرى هذه الصلبان المصنوعة من الحرير، ومن الجوخ المذهب، أو أي نسيج فاخر آخر، وقد حاكها هؤلاء الحجاج، فرسانا وعامة على اكتاف ارديتهم. لقد فعلوا ذلك اطاعة لأمر البابا اوربان حال حلفانهم القسم بالذهاب، كان من اللائق ان يقوم شعار الرب ورمز انتصاره، بحماية وتثبيت هوية جنوده الذين كانوا يتجهزون في سبيل الدفاع عن عزته. وبما انهم زينوا انفسهم بشعار دينهم هذا، فإنهم في النهاية احرزوا من الرمز الحقيقة بحد ذاتها. لقد ارتدوا الشارة الخارجية لكي يدركوا

الحقيقة الداخلية.

٥) من الـواضح أن النـوايا الحسنـة تؤدي الى انجاز الاعـمال الحسنة والعمـل الحسن يؤدي الى خـلاص الروح. واذا مـا كان من الخـير ان تتوافـر النـوايـا الحسنة فإن من الافضل، بعد التأمل، أن يتبعها العمل. وعليه فإن افضل ما يكون أن يدخر الانسان ذخيرة من الاعمال الحسنة، حتى يتوافر له من خـلالها غذاء للروح. فلينو كل امرىء ان يعمل صالحا حتى يحقق عملا اصلح، وفي النهاية اذا كـان مستحقا، يحصـل على افضـل ما يكـون، وهـذا مـا لا تنقص قيمته الى الابد.

٦) شعر

"وبهذه الطريقة بدأ اوربان الرجل العاقل المبجل

عملا، بعد التأمل، اينعت منه الدنيا".

فقد أعاد احلال السلام، وأعاد توطيد حقوق الكنيسة كسابق عهدها، كما أنه بذل جهودا جبارة لطرد الكفار من بلاد المسيحيين. وبما أنه كافح، بلا هوادة، من اجل تمجيد كل شيء منبعه الرب، فقد خضع له الجميع بالطاعـة وقبلوا سلطته الابوية.

عن الخلاف بين البابا اوربان وجيبرت

١) أما الشيطان، الذي يسعى دائما وأبـدا لتحطيم الانسـان ويجول في الارض كـالاسد البـاحث عن فريسـة يلتهمها (١. بـطرس ٥: ٨)* فقـد أقـام لبث الفوضى بين الناس، منافسا معينا للبـابا اوربـان ويدعى جيـبرت(١٥) وقد بـدأ هذا الرجل، مدفوعا بالعجرفة، ومدعوما بصفـاقة امـبراطور بـافاريـا(١٦) سابق الذكر، يغتصب المركز البابوي بينما تمسك جـريجوري المعـروف بهيلد يبرانـد، وهو البابا الذي سلف اوربان، بمركزه في الكنيسة، حتى انـه منع جـريجوري نفسه من الاقتراب من كنيسة القديس بطرس.

٢) ولما أصر جيبرت على تعنته، رأى افـاضل النـاس أن لا يعترفـوا به. وقـد انتخب اوربان شرعيا بعـد موت هيلد يـبراند وتم تنصيبـه من قبل الاسـاقفة

---

* ١ بطرس ٥: ٨
اصحوا واسهروا لان ابليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمسا من يبتلعه هو.

الكرادلة[١٧] وقد مال الجزء الاعظم من الناس واكثرهم ورعا الى طاعته.

٣) وبدعم من الامبراطور المذكور، وحماس معظم مواطني روما، افلح جيبرت في ابعاد اوربان عن كنيسة القديس بطرس[١٨] لمدة طويلة. ولكن اوربان تجول خلال الفترة التي أبعد فيها عن كنيسته في انحاء البلاد يقرب القلوب لله ويصحح اعوجاج من غوى.

٤) وقد ازداد جيبرت غطرسة بحكم تبوئه المركز الرئيسي في الكنيسة. ولكنه اظهر تساهلا مع أهل الخطيئة ومارس ظلما اعمال منصب البابوية مع جماعته، وهزأ بأعمال اوربان وأبطل مفعولها.

٥) ولكن اوربان في العام الذي مر به الفرنجة في روما في طريقهم الى القدس،[١٩] استولى على السلطة الكنسية بمساعدة سيدة فاضلة اسمها ماتيلدا كانت في تلك الفترة واسعة النفوذ في منطقة روما التي انحدرت منها.[٢٠]

٦) كان جيبرت في المانيا في تلك الفترة. وهكذا اصبح في روما باباوان. واحتار الناس فيمن يطيعون ومن يستشيرون ومن سيشفي مرضاهم. وقد فضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك.

٧) ولكن كان واضحا لذوي العقل من الرجال ان اوربان كان الافضل. فالحق ان الافضل هو من يضبط اعصابه وعواطفه ويحكمها كما لو كانت عدوته.

٨) كان جيبرت بصفته اسقف مدينة رافينا واسع الثراء، وكان يختال في مظاهر البذخ والترف. ومن العجيب ان هذه الثروات لم تشف غليله. وهل يعقل ان يعتبر نموذجا للحياة المثالية من يعشق المظاهر ويتطاول بجرأة على اغتصاب عرش سلطة الله؟ الحق ان هذا المركز يجب ان لا ينتزع بالقوة، بل ان يقبل بخشوع وتواضع.

٩) ليس من العجب أن العالم بأسره قد أصيب بالقلق والحيرة. فإذا ما اضطربت امور كنيسة روما، وهي مصدر التصحيح لجميع المسيحيين، فإن المرض الساري في أعصابها الرئيسية سيعتري اعضاءها التابعين لها، وسيزيد من ضعفهم معاناتهم من اجلها.

١٠) اجل. الحق يقال ان هذه الكنيسة التي هي أمنا، التي تربينا في احضانها والتي حذونا مثالها، وتقوينا بمشورتها، قد ضربت بصفاقة من قبل جيبرت المتعجرف. وعندما يضرب الرأس هكذا تتداعى بقية الاعضاء في الحال.

شعر
"اذا ما اصيب الرأس
فإن بقية الاعضاء يصيبها الاذى"

١١) وعندما مرض الرأس بهذا الشكل، ازداد ضعف الاعضاء بسبب الألم في جميع انحاء اوروبا حيث داس الناس، سواء كانوا اقوياء أم ضعفاء، وسواء داخل الكنيسة أم خارجها، بإقدامهم على السلام والفضيلة والدين. أصبح من الواجب وضع حد لكل هذه الشرور، واقتضت الخطة التي وضعها البابا اوربان بأن الصراع والقتال الذي دار حتى الان بين المسيحيين سيدور ضد الكفار.

١٢) والان فإنني سأوجه قلمي الى التاريخ لكي اخبر من لم يعلم عن رحلة الذاهبين الى القدس، وما جرى لهم وكيف توجت مشاريعهم وأعمالهم بالنجاح بعون الله. ولقد جمعت أنا فوشيه دو شارتر، الذي ذهبت مع الحجاج، بعناية فائقة وحيطة بالغة، كل ذلك في ذاكرتي من أجل الأجيال القادمة، تماما كما شاهدتها بأم عيني.(٢١)

فترة مغادرة المسيحيين مع اسماء قادة الحجاج

١) في شهر آذار من عام ١٠٩٦ وعقب المجلس الذي عقده البابا اوربان كما ذكرنا في تشرين الثاني(٢٢)، في اوفيرن كليرمونت، شرع بعض الذين اسرعوا في التحضير واتموا تجهيزاتهم في الرحلة المقدسة. ولحقهم آخرون في نيسان او ايار، في حزيران او تموز او حتى في آب وايلول وتشرين الاول حسب مقدرتهم على توفير الموارد اللازمة لدفع التكاليف(٢٣)

٢) ومن نعمة الله أن الحبوب والنبيذ في ذلك العام توافرت بكميات هائلة في جميع البلدان فلم يشح الخبز خلال الرحلة لاولئك الذين اختاروا ان يتبعوا اوامر الرب بصلبانهم.

٣) ولما كان من المناسب ذكر اسماء قادة الحجاج في تلك الفترة فإنني اذكر هيوج العظيم شقيق فيليب ملك فرنسا، اول الابطال الذين عبروا البحر(٢٤). نزل هيوج مع رجاله في ديرازو، وهي مدينة في بلغاريا(٢٥). ولكنه اندفع بطيش في قوة ضئيلة، فقبض عليه المواطنون وحملوه الى امبراطور القسطنطينية

وهناك بقي فترة من الزمن لا يملك مطلق الحرية.[٢٦].

٤) وبعده بيهمند ابوليا، ابن روبيرت جيسكارد، من امة النورمان، الذي مر بجيشه في نفس الطريق.[٢٧].

٥) وبعده جودفري، دوق اللورين، وقد سافر عبر هنغاريا في قوة اكبر.[٢٨]

٦) وريموند، كونت بروفنسال[٢٩] ومعه القوط والجاسكون، ثم اديمار اسقف لابوى وقد زحفوا عبر دلماشيا.

٧) كان أول من عبر هنغاريا المدعو بطرس الناسك، بعد أن جمع حوله حشدا من المشاة، وعددا ضئيلا من الفرسان[٣٠]. وبعد ذلك اصبح ولتر المعدم، الذي كان جنديا قديرا، قائد هذه المجموعة. وقد لاقى هذا حتفه مع عدد كبير من رفاقه بين نيكوميديا ونيقيا على ايدي الاتراك.[٣١]

٨) وفي شهر تشرين الاول، بدأ روبيرت كونت نورمانديا، ابن وليم الفاتح ملك انجلترا، رحلته بعد ان حشد جيشا كبيرا من النورمان والانجليز والبريطانيين وقد ذهب معه ستيفن كونت بلوا الذي كان زوج شقيقته[٣٢]، وروبيرت كونت الاراضي الواطئة[٣٣] ومعه حشد من النبلاء.

٩) وهكذا اتت هذه الجموع الغفيرة من جميع البلدان الغربية، وتكاثر الجيش يوما بعد يوم ونما في مسيرته من شراذم قليلة العدد الى مجموعة من الجيوش، وجمع اعدادا لا تحصى من بلاد عديدة تنطق بلغات شتى. ولكنهم لم يجتمعوا في جيش واحد الا في مدينة نيقيا.

١٠) ماذا اقول بعد ذلك؟ لقد تحركت الجزر في البحار، والممالك في الارض حتى صدق الانسان ان نبوءة داود قد تحققت "كل الامم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون امامك يا رب" (مزامير ٨٥: ٩) وكما قال الذين اتوا بعد ذلك بحق "لنسجد عند موطىء قدميه" (مزامير ١٣١ : ٦) ولقد قرأنا كثيرا عن هذه الرحلة في كلام الانبياء، ولن نعيد تكرار ذلك هنا لئلا نسبب الملل.

١١) كم اصابهم الأسى، وكم اجهشوا بالبكاء وندبوا ونحبوا، عندما فارقوا اصدقاءهم، وزوجاتهم العزيزات عليهم، وابناءهم وممتلكاتهم مهما كثرت، وأباءهم وامهاتهم واخوتهم واقرباءهم الاخرين.

١٢) ومهما هطلت عبرات مودعيهم امامهم، فإن احدا لم يتقاعس عن الذهاب لأنهم، من أجل محبة الله، تركوا ما يملكون وكلهم ثقة واقتناع بأنهم سيرثون مائة ضعف بما وعد الرب لمحبيه (متى ١٩: ٢٩، مرقس ١٠: ٢٩ ـ ٣٠،

لوقا ١٨ : ٢٩ - ٣٠)*

١٣) ثم اخبر الزوج زوجته عن موعد رجوعه مؤكدا لها، اذا ما كتب الله له الحياة، بأنه راجع لها. ثم طلب من الله ان يعتني بها وقبلها مطولا، ووعدها عبر دموعه انه سيعود. ولكنها لخوفها من أنها لن تقع عيناها عليه ثانية اغمي عليها وهي تترحم على من تحب، وتندب فقدانه كما لو أنه فارق الحياة. ثم انه غادر، كمن ليس في قلبه شفقة - مع انه كان شفوقا - وكمن لم يهتز بدموع زوجته وحزن محبيه - مع ان قلبه امتلأ بالوجل - بعزم وحزم.

١٤) كانت التعاسة من حظ المتخلفين والسعادة من حظ المسافرين. وماذا نستطيع ان نقول اكثر من ذلك؟ من قبل الرب كان هذا، وهو عجيب في اعيننا (متى ٢١ : ٤٢)

رحلة كونت النورمان وما جرى في روما خلال وجودهم هناك

١) ثم اجتزنا نحن الفرنجة الغربيين الغال، وسافرنا عبر ايطاليا الى مدينة لوكا الشهيرة. وعلى مقربة منها قابلنا البابا اوربان الثاني، وقد تحادث معه روبيرت النورماندي وستيفين بلوا واخرون منا من الذين رغبوا في محادثته. وبعد ان منحنا بركاته سرنا الى روما تملأنا الغبطة.[٣٤]

٢) عندما دخلنا الباسيلكيا في كنيسة القديس بطرس، وجدنا رجال جيبرت ذلك البابا الغبي[٣٥]، امام المذبح. وقد تخاطفوا باجرام وسيوفهم مشرعة، العطايا المقدمة على المذبح، وتراكض بعضهم في صفوف الكنيسة نفسها يرموننا بالحجارة ونحن ساجدون في الصلاة. اذ انهم ما رأوا احدا مخلصا لاوربان الا وازمعوا على قتله في الحال.

٣) وفي احد ابراج الباسيليكا كان رجال البابا اوربان يحرسونه بعزيمة وايمان مقاومين اعداءه. وقد اصابنا الحزن عندما رأينا المنكرات ترتكب هناك. ولكننا تمنينا من كل قلوبنا ان لا يحدث أمر الا انتقاما للرب. وقد رجع

---

* متى ١٩ : ٢٩
وكل من ترك بيوتا او اخوة او اخوات او ابا او اما او امرأة أو اولادا او حقولا من اجل اسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الابدية.
مرقس ١٠ : ٢٩ - ٣٠
فأجاب يسوع وقال الحق اقول لكم ليس احد ترك بيتا او اخوة او اخوات او ابا او اما او امرأة او اولادا او حقولا لأجلي ولأجل الانجيل، الا ويأخذ مئة ضعف الآن في هذا الزمان بيوتا واخوة واخوات وامهات واولادا وحقولا مع اضطهاد وفي الدهر الآتي الحياة الابدية.

كثيرون من الذين حضروا معنا الى بيوتهم وقد اضعفهم الجبن.

٤) أما نحن فقد واصلنا الرحيل عبر اواسط كمبانيا ووصلنا الى باري، وهي مدينة وافرة الثراء على شاطىء البحر. وهناك في كنيسة القديس نيقولا صلينا بحرارة للرب ثم ذهبنا الى الميناء املين العبور في الحال. ولكن البحارة اعترضوا لاقتراب فصل الشتاء مما قد يعرضنا للخطر. فاضطر الكونت روبيرت النورمندي الى الانسحاب الى كالابريا حيث قضى الشتاء. أما روبيرت كونت الاراضي الواطئة فقد عبر في الحال.[٣٦]

٥) في تلك الفترة، وجد كثير من العامة انفسهم بلا معين وخشوا من الحاجة في المستقبل، فباعوا سلاحهم وخلعوا ثياب الحج ورجعوا بنذالة الى ديارهم. ولهذا حق عليهم احتقار الله وحلّ عليهم الخزي والعار.

غرق الحجاج وظهور المعجزة الآلهية

١) في عام ١٠٩٧ وبعودة الربيع في اذار، رجع كونت النورمان، وكونت ستيفين بلوا مع اتباعهما الى البحر، اذ ان ستيفين ايضا كان ينتظر الوقت الملائم للابحار. وعندما تم تجهيز الاسطول في اوائل نيسان، الذي صادف عيد الصعود[٣٧]، ركبوا البحر في ميناء برنديزي.

٢) "يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه. ما ابعد احكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء" (رومية ١١ : ٣٣) اذ اننا رأينا احدى السفن العديدة القريبة من الشاطىء وقد انشقت من وسطها دون سبب واضح وابتلعها البحر. فهلك بذلك اربعمائة شخص من الجنسين وصعدت عن ارواحهم المدائح الغفرانية الى الله.

٣) عندما جمع المحيطون بهم ما استطاعوا من جثث الموق، وجدوا أن الصلبان قد حفرت فعلا في جلد بعضهم بين الكتفين. كم هو لائق ان شعار النصر هذا، الذي لبسوه على ثيابهم وهم احياء، سيبقى بارادة الله رمزا لايمان اولئك الذين ضحوا بأنفسهم في خدمته. ثم كم كان ملائما أن هذه المعجزة قد اظهرت لمن شاهدها أن الاموات قد حصلوا برحمه الله على الأمن والسلام في الحياة الابدية. وهكذا فإن نبوءة التوراة قد تحققت دون ادنى ريب "العادلون، وأن ماتوا قبل أوانهم سيكونون في امان".

٤) لقد نجا عدد ضئيل من الركاب الذين صارعوا الموت، وابتلعت الامواج

خيلهم وبغالهم وفقد الكثير من الاموال. وقد راعنا منظر هذه الكارثة، حتى ان بعض ضعاف النفوس ممن لم يركبوا السفن بعد، ارتدوا على اعقابهم وتركوا الحج قائلين انهم لن يؤمنوا لهذا البحر الغادر على ارواحهم ابدا.

٥) اما نحن، وكلنا اعتماد وثقة بالله القدير، فقد اقلعنا في البحر تدفع اشرعتنا نسمة هادئة، وتعزف من حولنا ابواق عديدة. وفي اليوم الرابع(٣٨) وصلنا البر قرب مدينة ديرازو، على بعد عشرة اميال على ما اعتقد. ودخل اسطولنا في ميناءين ووطئنا اليابسة والغبطة تملأ نفوسنا، وعبرنا امام المدينة المذكورة.

٦) وهكذا سرنا عبر اراضي البلغار وسط جبال شاهقة ومناطق مهجورة، ثم وصلنا الى جدول سريع يسميه السكان المحليون بنهر الشيطان، وتلك تسمية حقة، اذ شاهدنا كثيرا من العامة تغرق في هذا النهر، بعد ان كانوا قد املوا ان يخوضوه خطوة خطوة لكن التيار جرفهم بقوة هائلة. ولم يستطع احد من المشاهدين ان ينقذ أياً منهم وذرفنا عليهم دموع الرحمة الوافرة. ولولا ان الفرسان قدموا العون للمشاة فأجازوهم على ظهر خيولهم المدربة لهلك عدد غفير منهم. ثم ضربنا الخيام قرب الشاطىء وقضينا الليلة هناك تحيط بنا جبال شاهقة خالية من السكان.

٧) في مطلع النهار عزفت الابواق، وبدأنا نتسلق جبل الباجولاتس (الباجورا) وبعد أن تسلقناه اجتزنا مدن لوكريسيا وبوتيللا ومونـاستير ولـوفيانت (اديسا) وستيللا ووصلنا نهر البارداريوس (الفاردار)(٣٩) مع ان هذا النهر يقطع عادة بالقوارب الا اننا خضناه بعون الله دون قوارب. وفي اليوم التالي ضربنا خيامنا امام مدينة سالونيكا وهي مدينة غنية بالبضائع من كل صنف.

٨) بعد ان توقفنا اربعة ايام(٤٠) اجتزنا مقدونية عبر وادي فيلبي وعبر كريسوبوليس، وكريستوبوليس وبريتوريا وتيسنوبوليس، وماركرا وترايانوبوليس ونيابوليس، وباناذوكس، ورودوستو، وهرقليه وسلامبريا وناتورا الى ان وصلنا الى القسطنطينية. وضربنا خيامنا امام المدينة(٤١) واسترحنا لمدة اربعة عشر يوما.(٤٢)

٩) ولكننا لم نحاول ان ندخل المدينة لعدم موافقة الامبراطور (لانه خشي ان نتآمر عليه ونسبب له الضرر) لذا توجب علينا ان نشتري حاجياتنا اليومية خارج الاسوار. وقد احضر المواطنون هذه الحاجيات بأمر الامبراطور ولم يسمح لنا بدخول المدينة الا بمعدل خمسة او ستة اشخاص كل ساعة. وهكذا

بينما كنا نغادر المدينة كان بعضهم يدخلها ليصلوا في كنائسها.[٤٣]

من القسطنطينية الى نيقيا

١) ما أجمل وأنبل مدينة القسطنطينية! كم فيها من كنيسة وقصر بناها أمهر الحرفيين: كم اعجوبة يرى الناظر في شوارعها العريضة بل وفي شوارعها الضيقة. من الممل ان يعدد المرء الثروات الموجودة فيها من الذهب، والفضة، والاردية بجميع اصنافها، والاثار المقدسة. فالتجار يحضرون اليها من رحلاتهم العديدة كل ما يحتاج اليه البشر[٤٤]. واقدر ان عشرين الف خصي يعيشون هنا على الدوام.[٤٥]

٢) وبعد ان استرحنا بما فيه الكفاية[٤٦] عقد قادتنا بعد التشاور اتفاقية مع الامبراطور واقسموا عليها وكان جودفري وبيهمند اللذان سبقانا الى هنا، قد وافقا عليها. ولكن الكونت ريموند رفض ان يوقع، مع ان كونت الاراضي الواطئة وقع كما فعل الاخرون.[٤٧]

٣) كان من المحتم علينا اقامة علاقات ودية مع الامبراطور اذ لم يكن باستطاعتنا دون مساعدته ومشورته ان نقوم بهذه الرحلة، كما لن يكون باستطاعة من يتبعنا على هذه الطريق ان يفعل ذلك. وقد وهب الامبراطور للامراء كثيرا من الهدايا. وخلع عليهم الاردية الحريرية بما ارضاهم واعطاهم الجياد والاموال التي احتاجوا اليها للقيام بهذه الرحلة.[٤٨]

٤) بعد ذلك عبرنا البحر الذي يدعى "ذراع القديس جورج" واسرعنا الى مدينة نيقيا"[٤٩]. كان اللورد بيهمند، والدوق جودفري والكونت ريموند، وكونت الاراضي الواطئة قد شرعوا بحصارها منذ ايار، وكانت آنذاك تحت حكم الاتراك، وهم جنس شجاع من الشرق، ماهرون باستعمال القوس. وكانوا قد عبروا نهر الفرات من بلاد الفرس قبل خمسين سنة واخضعوا كل الاراضي الرومانية البيزنطية حتى حدود نيكوميديا.[٥٠]

٥) اه كم رأس مقطوعة وكم عظمة من عظام الهالكين وجدناها مطروحة في البراري قرب البحر حول نيكوميديا! كان الاتراك في ذلك العام (في معركة ١٠٩٦ م) قد ابادوا اهلنا الذين لم يختبروا القوس وكيفية استعماله. وقد هز

هذا المنظر مشاعرنا وسكبنا الدموع الغزيرة.[٥١]

حصار نيقيا وسقوطها

١) عندما سمع محاصرو نيقيا[٥٢] بوصول قائدينا كونت نورماندیا وستيفين بلوا، حضروا فرحين لمقابلتنا ورافقونا الى مكان جنوب المدينة حيث ضربنا خيامنا.

٢) كان الاتراك في السابق قد جمعوا قواتهم[٥٣]، آملين ان يردوا المحاصرين ان استطاعوا بعيدا عن المدينة، او ان يدافعوا عنها بجنودهم بفاعلية اكثر. ولكن رجالنا ردوهم على اعقابهم بضراوة، وقتلوا اكثر من مئتين منهم. وعندما رأوا ان الفرنجة اشداء متمرسون في فنون الحرب تراجعوا مهرولين الى داخل اناضوليا يتحينون الفرصة لاعادة الهجوم مرة ثانية.[٥٤].

٣) كنا آخر من وصل الى الحصار في الاسبوع الاول من تموز[٥٥].

٤) في ذلك الوقت الفت الجيوش العديدة التي احتشدت هناك جيشا واحدا، يقدر العارفون بأنه ضم ٦٠٠,٠٠٠ رجل قادر على الحرب ومن بينهم كان هنالك ١٠٠,٠٠٠ مدرع ومدجج بالقلانس والدروع. هذا بالاضافة الى من لم يحمل منهم السلاح، اي رجال الدين والنساء والاطفال.[٥٦]

٥) وماذا بعد ذلك؟ لو ان جميع من غادروا ديارهم للاشتراك في هذه الحملة المقدسة قد اجتمعوا في ذلك المكان لجاوز عددهم ستة ملايين محارب بدون شك. ولكن بعضهم رجع من روما، ومن ابوليا، ومن هنغاريا ومن دلماشيا لانهم لم يطيقوا المشقات. وفي اماكن عديدة قتل الكثيرون بالآلاف كما مات عدد كبير من المرضى الذين حضروا معنا. وقد امتلأت الطرق والحقول بقبور الحجاج الذين دفنوا بالعلن.[٥٧]

٦) علينا ان نوضح انه طيلة حصارنا لمدينة نيقيا كانت المؤونة والغذاء تصلنا بواسطة السفن وبرضى الامبراطور.[٥٨] ثم أمر قادتنا بصنع الآلات الحربية من الاكباش والابراج الخشبية والمجانيق.[٥٩] واطلقت السهام من الاقواس والحجارة من المجانيق، وحارب رجال اعدائنا ورجالنا كرا وفرا بكل ما اوتوا من قوة. وطالما هاجمنا المدينة بالآتنا الحربية ولكن مناعة الاسوار الحصينة

احبطت هجومنا وقد سقط عدد كبير من الاتراك ومن رجالنا مصابين بالسهام او بالحجارة.

٧) الحق اقول ان الحزن كان سيملأ نفسك، والدموع كانت ستهطل من عينيك، لو انك شاهدت الاتراك يقتلون اي نفر من رجالنا يقترب من السور، اذ انهم كانوا ينزلون الخطافات الحديدية ويختطفون الجثة لكي ينهبوها. ولم يجرؤ او يقدر أحد من رجالنا على ان ينقذ الجثة من اياديهم. وبعد أن كان الاتراك يعرون هذه الجثث كانوا يقذفونها خارج الاسوار.

٨) وباستعمال الثيران والحبال، جررنا قوارب صغيرة من بحيرة سفيتوت عبر اليابسة الى نيقيا، ثم القيناها في البحيرة لحراسة مداخل المدينة لمنع وصول المؤن والتجهيزات اليها.[٦٠]

٩) بعد ان حاصرنا المدينة خمسة اسابيع، والقينا الرعب في قلوب الاتراك بهجماتنا، عقدوا مؤتمرا وارسلوا الوسطاء الى الامبراطور وسلموا له المدينة سرا، بعد ان ضيقنا عليهم بقوتنا ومهارتنا.[٦١]

١٠) ثم ادخل الاتراك مجموعة من التركوبول[٦٢]، ارسلهم الامبراطور الى هناك. واستلم هؤلاء المدينة بكل ما فيها من ثروات باسم الامبراطور تماما كما امرهم. وبعد مصادرة كل هذه الاموال، أمر الامبراطور باعطاء الهدايا والمنح لقوادنا، هدايا من الذهب والفضة والثياب. وامر بتوزيع قطع النحاس التي يسمونها "ترترون" على المشاة.[٦٣]

١١) في اليوم الذي سقطت او استسلمت نيقيا بهذه الطريقة، كان قد انقضى عشرون يوما من شهر حزيران.[٦٤]

المعركة المميتة بين المسيحيين والاتراك

١) بعد أن اخذ امراؤنا الاذن بالرحيل من الامبراطور، غادرنا في اليوم الثالث قبل بدء شهر تموز متجهين الى داخل بلاد الاناضول. وبعد أن سرنا مسافة يومين، وصلتنا تقارير بأن الاتراك نصبوا لنا شركا في سهل ظنوا انه يتوجب علينا اجتيازه وتوقعوا ان يحاربونا هناك.[٦٥]

٢) عندما سمعنا بذلك، لم تخذلنا الشجاعة.[٦٦] ولما استطلع كشافتنا في ذلك المساء كثيرا من الاتراك على بعد منا اعلمونا بذلك على الفور. فاقمنا الحراس طوال الليل يحمون الخيام من جميع النواحي. وفي ذلك الصباح[٦٧]، في مطلع

شهر تموز، حملنا السلاح، وعلى عزف الابواق قسمنا الجيش الى اجنحة المعركة وسار القواد والضباط على رأس الفصائل والكتائب، وباعلام خفاقة بدأنا الزحف بانتظام.

٣) وفي الساعة الثانية من النهار[٦٨] اقترب كشافتهم من حراسنا، وحين علمنا بذلك، ضربنا خيامنا قرب مستنقع هناك، وخلعنا حمولة سروجنا وحضرنا انفسنا للقتال.

٤) وبعد ذلك، انتظر الاتراك، اولئك الفرس الكفرة، الذين كان اميرهم سليمان يملك نيقيا، واراضي رومانيا (الاناضول) بحق سلطته[٦٩]، وقد تجمعوا، مطيعين اوامر سليمان، وأتوا الى معونته من مسيرة ثلاثين يوما. كان معه كثير من الامراء مثل امير كرادجيم، وامير ياثوس وغيرهم.[٧٠] وبلغ عددهم ٣٦٠,٠٠٠ مقاتل[٧١] اي حملة القوس والنشاب، اذ كان من عادتهم ان يتسلحوا بتلك الطريقة. وكانوا جميعا يمتطون الخيول، اما نحن فكان لدينا مشاة كما كان لدينا حملة القوس والنشاب.

٥) في تلك الفترة، كان الدوق جودفري والكونت ريموند وهيوج العظيم قد تغيبوا عنا لمدة يومين، فقد انفصلوا عنا، لسبب لا اعلمه، بمجموعة كبيرة من الرجال في احد مفترقات الطرق[٧٢] ولذلك تحملنا في المعركة خسائر لا تعوض وهلك عدد كبير من رجالنا يوازي عدد الاتراك الذين نجوا من الموت والأسر. ولأن جماعتنا الذين انفصلوا عنا تأخروا في استلام رسائلنا فقد تأخروا في القدوم لمساعدتنا.

٦) في تلك الاثناء، كان الاتراك يزمجرون كالذئاب المفترسة، ويقذفوننا بضراوة بافواج كثيفة من السهام كالغيوم. وقد اصبنا بصدمة من جراء ذلك. ولما كنا نواجه الموت، وحيث ان كثيرا من رجالنا اصيبوا بجراح، فقد اركَنا الى الفرار. وليس ذلك بعجيب اذ ان اساليب الحرب هذه لم تكن معروفة لدينا.

٧) وفي الجانب الآخر من المستنقع، شقت كتلة متراصة من الاعداء طريقها بضراوة الى ان قاربت خيامنا. ودخل الاتراك خيامنا وتخاطفوا امتعتنا وقتلوا بعض جماعتنا عندما برزت مقدمة جيش هيوج العظيم، والكونت ريموند والدوق جودفري على ساحة هذه الكارثة في المؤخرة. ولما تراجع رجالنا الى الخيام ظن رجال الاعداء الذين دخلوا الخيام اننا عدنا الى مهاجمتهم فولوا الادبار. وما ظنوه شجاعة وبسالة كان، لو انهم علموا، خوفا ورعبا

شديدين.

٨) ماذا اقول بعد ذلك؟ كنا تجمعنا مع بعضنا كما تتجمع الاغنام، ترتعد فرائصنا ويملأنا الخوف، ويحيطنا العدو من جميع النواحي حتى اننا لم نقدر على التحرك في أي اتجاه. وضح لنا آنذاك ان ما حصل لنا كان نتيجة خطايانا. اذ أفسد الترف بعضنا، بينما افسد الجشع والرذائل الاخرين، وصعدت قرقعة شديدة الى السماء، لا من رجالنا ونسائنا واطفالنا فحسب، بل من الكفار الهاجمين علينا، حينذاك لم يبق لنا امل في النجاة.

٩) اعترفنا حينذاك بأننا مذنبون آثمون امام مجلس العدالة، واستعطفنا بكل تواضع رحمة الله. كان معنا اسقف لابوى حامينا، ومعه اربعة اساقفة اخرين، وكثير من القساوسة المتدثرين بالاردية البيضاء، فتوسلوا بخشوع الى الله ان يكسر اعداءنا، وان يمن علينا برحمته. وانشدوا باكين وبكوا منشدين، وهرول كثير من الناس الى القساوسة موقنين ان نهايتهم قد دنت ليعترفوا بخطاياهم.[٧٣]

١٠) قاوم قادتنا، الكونت روبيرت النورمندي، وستيفين كونت بلوا، وروبيرت كونت الاراضي الواطئة، وبيهمند، الاتراك بكل قدرتهم وحاولوا مرارا ان يهاجموهم. ولكن الاتراك صدوهم بضراوة.

هرب الاتراك وانتصار المسيحيين

١) ان الرب لا يمنح النصر لمجد النبلاء، ولا لابداع المحاربين، وانما يعطيه بمحبته لاولئك الذين صفت قلوبهم وقت حاجتهم ولاولئك الذين تحصنوا بالقوة الربانية. لذلك فإنه ربما قد استجاب لشفاعتنا، فأعاد لنا قوتنا شيئا فشيئا واضعف الاتراك. اذ اننا حين رأينا رفاقنا[٧٤] قادمين لنجدتنا في المؤخرة مجدنا الرب، واستعدنا شجاعتنا ورصصنا الصفوف والفيالق، وجهدنا في مقاومة العدو.

٢) أواه كم قتل الاتراك في ذلك اليوم من رجالنا الذين تخلفوا عنا في الطريق.[٧٥] فمنذ الساعة الاولى للنهار وحتى الساعة السادسة اعاقتنا المصاعب. ولكن معنوياتنا ارتفعت شيئا فشيئا بعودة رفاقنا ودعمهم لنا[٧٦].

وبما ان المعجزة الربانية حلت علينا فقد دار الاتراك فجأة وولوا ادبارهم.

٣) ولاحقناهم نصرخ بشراسة فوق الجبال، وعبر الوديان، ولم نتوقف الى ان وصل اسرع رجالنا الى خيامهم. وعندها حمل بعض رجالنا كثيرا من جمال وجياد الاتراك بممتلكاتهم وحتى خيامهم التي هجروها في ذعرهم. ولاحق الاخرون فلولهم حتى حلول الظلام. ولما كانت خيولنا قد جاعت وتعبت فإننا احتفظنا ببعض خيولهم.[٧٧].

٤) ومن معجزات الله الكبرى، انه خلال اليومين او الثلاثة التاليين، لم يتوقف الاتراك عن الفرار مع أن احدا، غير الله، لم يلاحقهم بعد ذلك.[٧٨]

٥) ثم تابعنا رحلتنا بحذر. وقد اصابنا عطش شديد في بعض الايام حتى ان عددا من الرجال والنساء هلكوا عطشا[٧٩] وفر الاتراك بلا انتظام، وبحثوا لانفسهم عن ملاجىء يختبئون فيها في الاناضول.

املاق المسيحيين

١) بعد ان بلغنا انطاكية الصغرى، في مقاطعة بيسيديا، توجهنا الى قونية. وفي تلك الانحاء، كنا مرارا في حاجة الى الخبز والطعام. اذ اننا وجدنا بلاد الاناضول، واراضيها ممتازة تدر الخيرات والمنتوجات من كل الاصناف، وقد دمرها الاتراك وخربوها وهجروا أهلها.

٢) ولكنك كثيرا ما كنت ترى الناس في بحبوحة لوفرة المحاصيل التي جنيناها من المزارع المنتشرة في انحاء البلاد. تم ذلك بمعونة الرب الذي أطعم بخمسة ارغفة وسمكتين خمسة الاف نسمة (متى ١٧ : ٢١، مرقس ٦ : ٣٨ - ٤٤، لوقا ٩: ١٦، يوحنا ٦ : ٩ - ١٠)* وبذلك قنعنا كلنا، واقررنا

---

* متى ١٧ : ٢١

فقالوا له ليس عندنا ههنا الا خمسة ارغفة وسمكتان، فقال ائتوني بها الى هنا. فأمر الجموع ان يتكئوا على العشب ثم اخذ الارغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر واعطى الارغفة للتلاميذ، والتلاميذ للجموع فأكل الجميع وشبعوا ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوءة والاكلون كانوا نحو خمسة الاف رجل ما عدا النساء والاولاد.

مرقس ٦ : ٣٨ - ٤٤

فقال لهم كم رغيفا عندكم اذهبوا وانظروا ولما علموا قالوا خمسة وسمكتان فأمرهم ان يجعلوا الجميع يتكئون رفاقا رفاقا على العشب الاخضر. فاتكأوا صفوفا صفوفا مئة مئة، وخمسين خمسين. فأخذ الارغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك ثم كسر الارغفة واعطى تلاميذه ليقدموا اليهم. وقسم السمكتين للجميع. فأكل الجميع وشبعوا، ثم رفعوا من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوءة من السمك وكان الذين اكلوا من الارغفة نحو خمسة آلاف رجل.

مغتبطين ان كل هذه العطايا كانت هبة ورحمة من الله.

٣) ولقد كنت تضحك، او ربما كنت تبكي رثاء، لو انك رأيت كثيرا من هؤلاء الناس، ممن لم تتوافر لهم الدواب التي هلك كثير منها، وقد حملوا حاجياتهم من الثياب والطعام وغير ذلك مما يحتاجه الحجاج، على كبش او جدي او خنزير او كلب. وقد قصمت الحمولات ظهور هذه الحيوانات الهزيلة وشققتها، واضطر الفرسان المسلحون ان يركبوا ظهور الثيران في بعض الاحيان.

٤) ترى من سمع خليطا من اللغات في جيش واحد كهذا؟ اذ اجتمع فيه الفرنجة، والفلمنجيون والفريسيون، والجاليون، واللوبرجيون، واللوثارنجيون، والبافاريون، والالمان، والنورمان والانجليز والاسكتدلنديون والاكوتيانيون والطليان والداشيون والابوليون والاسبان، والبريطانيون والاغريق والارمن. ولو اراد بريطاني او الماني ان يخاطبني لما استطعت اجابته او فهم سؤاله.[٨٠]

٥) ورغم اختلاف ألسنتنا، كنا اخوة في محبة الرب، وكلنا متفقون في الرأي. واذا ما فقد واحد منا بعض حاجياته، حفظها من وجدها لعدة ايام سائلا عن فاقدها الى ان يجده ويعيد اليه حاجته. وكان ذلك لائقا بأولئك الذين اشتركوا في هذه الرحلة المقدسة.

اعمال وبطولات الكونت بلدوين وشقيق جودفري والاستيلاء على مدينة اوديسا المسماة الرها

١) عندما وصلنا الى مدينة هرقلية، رأينا علامة معينة في السماء، ظهرت بشكل بياض ناصع على هيئة سيف يشير الى الشرق.[٨١]. لم نعرف ما كانت تنبىء عن المستقبل، وتركنا الحاضر والمستقبل بيد الله.

٢) ثم اتينا الى مدينة مزدهرة اسمها مراش (مرعش) ارتحنا فيها بهدوء ثلاثة ايام.[٨٢] وبعد ان ابتعدنا عنها مسيرة يوم، واصبحنا على بعد مسيرة ثلاثة ايام من انطاكية سوريا، انسحبت انا، فوشيه، من الجيش (الرئيسي) واتجهت مع الكونت بلدوين شقيق الدوق جودفري يسارا في البلاد.[٨٣]

٣) كان بلدوين فارسا عظيم المقدرة وكان قد غادر الجيش مع الرجال الذين احضرهم معه واحتل بشجاعة فائقة المدينة التي تدعى طرسوس سيليسيا،

واخذها من تنكريد الذي كان ادخل رجاله فيها بموافقة الاتراك، وبعد ان ترك حراسه هناك، رجع بلدوين الى الجيش الرئيسي.[٨٤]

٤) وهكذا، واثقا بالله وبقوته الشخصية، جمع بلدوين بضعة فرسان وبدأ رحلته نحو الفرات، وهناك اخذ عدة مدن عنوة وبالحيلة، كانت اهمها مدينة تل باشر[٨٥] وقد سلمها الارمن الذين كانوا يسكنون فيها بسلام، وخضعت مدن اخرى كثيرة له.

٥) عندما انتشرت هذه الاخبار في ارجاء البلاد، ارسل امير مدينة الرها[٨٦] وفدا الى بلدوين. وهي مدينة ذائعة الصيت تقع في منطقة من اخصب المناطق، وهي في الناحية السورية من بلاد ما بين النهرين، تبعد نحو عشرين ميلا من نهر الفرات ونحو مائة من انطاكية.[٨٧].

٦) وطلب الدوق من بلدوين ان يذهب الى هناك لكي يصبحا صديقين كوالد وولده، طالما كتبت لهما الحياة. واذا ما صادف ومات دوق الرها، فإن لبلدوين ان يتملك المقاطعة على الفور ميراثا دائما له وكأنه الابن الشرعي للدوق. ولما يكن لهذا ولد ولا بنت، ولم يكن قادرا على حماية ولايته من الاتراك، فإنه كاغريقي، رغب أن يدافع بلدوين عنه وعن ولايته اذ انه سمع ان بلدوين وفرسانه كانوا من أشد الفرسان وأكثرهم بسالة.

٧) حالما سمع بلدوين بهذا العرض واقتنع بصحته من المندوبين القادمين من الرها الذين اقسموا امامه بصدق كلامهم سار بجيشه الصغير المؤلف من ثمانين فارساً[٨٨]، وعبر الفرات. وبعد العبور سارعنا في السفر طوال الليل، يملأنا الخوف، مارين بين مختلف البلاد الشرقية المنتشرة هنا وهناك.

٨) عندما سمع الاتراك القاطنون في مدينة سياموساتا الحصينة بقدومنا، نصبوا لنا الكمائن في الطريق التي اعتقدوا اننا سنسلكها. ولكن ارمنيا معينا حمانا في قلعته في الليلة التالية وحذرنا ان ننتبه لمصائد الاعداء هذه، ولهذا السبب اختبأنا هناك ليلتين.[٨٩]

٩) وفي اليوم الثالث هجم الاتراك وقد ازعجهم تأخرنا، وتركوا كمائنهم، ورفعوا راياتهم وغدوا امام القلعة التي اختبأنا فيها وسلبوا الماشية التي كانت ترعى في الحقول.

١٠) خرجنا لقتالهم، ولكن لقلة عددنا لم نستطع ان ننازعهم. ورمونا بالسهام ولكنهم لم يجرحوا احدا منا. ولكنهم تركوا واحدا من رجالهم وقد صرعه رمح على ارض المعركة وقد احتفظ الرجل الذي صرعه بحصانه. ثم انصرف

الاعداء وبقينا نحن في مكاننا.

١١) وفي اليوم التالي، تابعنا الرحلة، ولو كنت معنا لادهشك ان ترى كيف كان الارمن يخرجون بخضوع لملاقاتنا عند مرورنا امام مدنهم بالصلبان والاعلام، مقبلين اقدامنا وثيابنا محبة بالرب لأنهم سمعوا بأننا سنحميهم من الاتراك الذين رزحوا تحت وطأة ظلمهم من قبل.[٩٠]

١٢) واخيرا وصلنا الى الرها، حيث استقبلنا الامير المذكور وزوجته مع كل المواطنين بحرارة ونفذوا وعودهم لبلدوين على الفور.[٩١]

١٣) بعد مكوثنا هناك خمسة عشر يوما، تآمر المواطنون بخبث لقتل اميرهم، وذلك لأنهم كانوا يكرهونه ولرفع بلدوين الى القصر ليحكم البلاد. قدم هذا الاقتراح وتم تنفيذه. وقد اصاب الأسى بلدوين ورجاله لأنهم لم يقدروا أن يحصلوا له على الرحمة.[٩٢]

١٤) ما ان قبل بلدوين من المواطنين مركز الامارة الذي شغر بمقتل الامير بهذه الجريمة المنكرة، حتى شن حربا على الاتراك الذين كانوا في بلاده، وقد هزمهم عدة مرات او قتلهم. ولكن كثيرا من رجالنا قتلوا ايضا على أيدي الاتراك.

١٥) أنا، فوشيه دو شارتر، كنت قسيس بلدوين هذا. وأريد الأن ان اعود لاتمام الحكاية التي خرجت عنها، الا وهي حكاية جيش الله.

وصول الفرنجة الى انطاكية وفظائع الحصار

) وصل الفرنجة الى انطاكية في سوريا في شهر تشرين الاول، وهي مدينة كان قد بناها سيليكوس بن انطاكيوس وجعلها عاصمة له، وكان اسمها في السابق ربلاطا. وهي تقع على الضفة الاخرى من النهر المسمى الاورونتوس (العاصي)[٩٣]. صدرت الاوامر بضرب الخيام امام المدينة بينها وبين اول حجارة المعالم. وهنا دارت معارك عديدة فيها بعد الحقت خسائر فادحة بالطرفين. وعندما اندفع الاتراك من المدينة قتلوا العديد من رجالنا ولكن بعد ان دارت عليهم الدوائر دبت فيهم الفجيعة حين دحرناهم.

) انطاكية مدينة كبيرة جدا، شديدة التحصين منيعة الموقع. لا يمكن ان يأخذها عدو من الخارج اذا ما توافرت فيها الامدادات والغذاء واذا ما عقد سكانها عزمهم على الدفاع عنها.[٩٤]. وفيها كنيسة ذائعة الصيت بنيت تمجيدا

لذكرى بطرس الرسول الذي اصبح اسقفا فيها بعد ان استلم من السيد المسيح صدارة الكنيسة ومفاتيح مملكة السموات.(٩٥)

٣) وهناك كنيسة اخرى، مستديرة الشكل، بنيت تمجيدا لمريم المباركة، وهي مبنية بطريقة تتناسب مع مقامها،(٩٦) وكانت هذه الكنائس كلها تحت حكم الاتراك لمدة طويلة، ولكن الله، العالم بكل الامور، حفظها لنا خالصة لم يمسها ضرر حتى نتشرف بعبادته داخلها في يوم من الايام.

٤) يبعد البحر ثلاثة عشر ميلا عن انطاكية على ما اعتقد. ولأن نهر العاصي يصب في تلك البقعة، فإن السفن المحملة بالبضائع الآتية من مختلف الاصقاع تحضر في قناة الى انطاكية نفسها.(٩٧) وهكذا تتجهز المدينة بالبضائع من البر ومن البحر فتمتلىء بالخيرات من كل نوع.

٥) اقسم امراؤنا، وقد رأوا مناعة المدينة وصعوبة اقتحامها، بعضهم لبعض، ان يأخذوها، بإذن الله، اما بالقوة او بالحيلة.

٦) وجدوا عدة قوارب في النهر المذكور، فأخذوها وجعلوا منها جسرا عائما عبروا فوقه لتنفيذ خططهم (٩٨)ولم يكونوا قبل ذلك قادرين على خوض النهر.

٧) لما رأى الاتراك هذه الجموع الغفيرة من المسيحيين تحيط بهم، اصابهم الهلع، وأيقنوا أنهم لن يستطيعوا الفرار منهم. وبعد ان تشاوروا فيما بينهم ارسل اوكسيانوس (ياغي سيان) امير انطاكية ابنه سانكسادو (شمس الدولة) الى السلطان، اي امبراطور الفرس،(٩٩) يحثه على تقديم العون بأسرع ما يمكن. ذلك لأنه لم يكن لديه أمل الا بعون محمد حاميهم. وشارع سانكسادو (شمس الدولة) لاداء المهمة الموكلة اليه.

٨) اما الذين بقوا في المدينة، فقد حموها، وهم ينتظرون وصول المساعدة التي طلبوها، ويحيكون المؤمرات الخطيرة ضد الفرنجة. ومع ذلك فقد احبط هؤلاء حيلهم بقدر ما استطاعوا.

٩) وفي أحد الايام قتل الفرنجة سبعمائة من الاتراك، وهكذا فإن الذين نصبوا مصيدة للفرنجة وقعوا فيها.(١٠٠) وقد كانت قوة الرب واضحة جلية هنا. ورجع كل رجالنا سالمين الا واحدا اصيب بجراح.

١٠) كم قتل من مسيحيين في المدينة: من اغريقيين، وسوريين وأرمن على يد الاتراك في فورة غضبهم، وكم رأس القوا بها من فوق الاسوار رموها بالمجانيق(١٠١) على مرأى من الفرنجة وقد اوقع ذلك بنفوس رجالنا كثيرا من الأسى. كان الاتراك يكرهون هؤلاء المسيحيين لأنهم خشوا ان يساعدوا

الفرنجة بطريقة ما على صدّ هجوم تركي.

١١) بعد ان حاصر الفرنجة المدينة فترة من الزمن، وتجولوا في الاراضي المجاورة بحثا عن الطعام ولم يجدوا خبزا يبتاعونه[١٠٢]. بدأ الكثيرون يخططون سرا للانسحاب من الحصار والفرار اما عن طريق البحر او البر.

١٢) ولكن لم يكن لديهم اموال يعتاشون بها. وقد اضطروا ان يبحثوا عمّا يقتاتون به في اماكن نائية، والخوف يلازمهم، اذ ابتعدوا اربعين او خمسين ميلا عن الحصار. وهناك في المناطق الجبلية، قتل الاتراك كثيرا منهم في كمائن نصبوها لهم.

١٣) شعرنا ان المصائب قد حلت بالفرنجة بسبب خطاياهم وانهم فشلوا لهذا السبب في أخذ المدينة بعد طول هذه المدة. فإن الترف والجشع والعجرفة والسطو قد أفسدت نفوسهم.

١٤) بعد ان عقد الفرنجة المشاورات فيما بينهم طردوا النساء سواء كن متزوجات ام لا، من المعسكر، اعتقادا بأن قذارتهن في عبث الحياة الصاخبة قد اغضبت الله. وبحثت هؤلاء النسوة عن ملجأ لأنفسهن في القرى المجاورة.[١٠٣]

١٥) وقد أصاب البؤس والشقاء الغني كما أصاب الفقير بسبب الجوع والمذابح اليومية. ولو لم يحفظ الله، وهو الراعي الصالح، قطيعه متجمعا لهرب الجميع من هناك على الفور بلا جدال، رغم كل الايمان التي اقسموها من اجل احتلال المدينة. وبسبب شح الغذاء، انطلق الكثيرون الى القرى المجاورة بحثاً عن الطعام، ولم يرجعوا بعد ذلك الى المعسكر وتركوا الحصار نهائيا.

١٦) في تلك الفترة رأينا شعاعا أحمر في السماء كما شعرنا بزلزلة عظيمة في الارض، مما أوقع الخوف في قلوبنا. وقد رأى الكثيرون علامة معينة، على شكل صليب، بيضاء اللون، تسير في طريق مستقيم الى الشرق[١٠٤].

فقر المسيحيين المدقع وفرار الكونت بلوا

١) في عام ١٠٩٨ بعد ان خلت الاراضي حول انطاكية من الجموع الفقيرة من شعوبنا، تزايد البؤس في نفوس الكبار والصغار بسبب الجوع الشديد.

٢) وأكل الناس جذوع البقليات التي ما زالت تنبت في الحقول، وجميع انواع الاعشاب غير المملحة وحتى الاشواك، التي لم يستطيعوا إجادة طهيها بسبب

انعدام الحطب لاشعال النار، فألهبت ألسنة آكليها. وأكلوا الخيول ايضا، والحمير، والجمال والكلاب وحتى الجآذر، بل ان الفقراء منهم أكلوا جلود الحيوانات وبذور الحبوب التي وجدوها في روث الماشية.(١٠٥)

٣) وقد تحمّل الناس البرد والحر ووابل الامطار من أجل محبة الله. وقد تمزقت خيامهم وبليت وتعفنت بسبب الامطار المستمرة. ولذا فإن عددا كبيرا من الناس لم يجدوا لأنفسهم غطاء الا السماء.

٤) كما يجرب الذهب ثلاث مرات في النار ويمحص سبع مرات (مزامير ١٢ : ٧)* كذلك اعتقد ان الرب جرب المختارين، وبعد عذاب شديد، طهرهم من ذنوبهم. ومع ان سيف الحشاشين القتلة لم يفشل في عمله المميت، الا ان كثيرا من الناس تحملوا عذاب الاحتضار الطويل، وبسرور تقبلوا اسمى درجات الشهادة، ولعلّهم استلهموا السلوان من مثال ايوب المقدس الذي نظف روحه بعذاب جسده وهو دوما يذكر الرب (ايوب ٢ : ١٠)** فعندما حاربوا الكفار كانوا يجاهدون في سبيل الله.

٥) ان الله، الذي خلق الجميع، يأمر كل من خلق ويدعم كل ما يأمر، يحكم بأمره، يصلح ما يشاء، ويدمر ما يشاء. وانني اشعر ان الكفار سيدمرون ليدفعوا ثمن العذاب الذي اراده الله للمسيحيين، فهم الذين طالما وطئوا بأقدامهم القذرة كل ما يخص الرب مع ان ذلك حصل بمشيئته، وكما يستحق الناس. الحق انه سمح للمسيحيين بأن يذبحوا ليعظم خلاصهم وللاتراك بأن يذبحوا لاحقاق اللعنة على أرواحهم اما اولئك الاتراك الذين كتب لهم الخلاص، فإنه قد ارضى الله ان يعمدهم قساوستنا(١٠٦) "اما اولئك الذي كتب لهم، فإنه ناداهم وعظمهم" (رومية ٨: ٣)***

٦) ماذا بعد؟ انسحب بعض رجالنا كما سمعتم، من حصار عظيم الشدة،

---

* مزامير ١٢ : ٧
كلام الرب كلام نقي كفضة مصفاة في بوطة في الارض ممحوصة سبع مرات.

** ايوب ٢ : ١٠
فقال لها تتكلمين كلاما كإحدى الجاهلات. الخير نقبل من عند الله والشر لا نقبل في كل هذا لم يخطىء ايوب بشفتيه.

*** رومية ٨ : ٣٠
والذي سبق فعينهم فهؤلاء دعاهم ايضا. والذين دعاهم فهؤلاء بررهم ايضا. والذين بررهم فهؤلاء مجدهم ايضا.

بعضهم من الحاجة وبعضهم من الجبن، والبعض الآخر خوفا من الموت. انسحب الفقراء اولا وبعدهم الأغنياء.

٧) ثم ترك ستيفن بلوا الحصار وابحر الى دياره في فرنسا. وقد اصابنا جميعا الأسى لذلك، لأنه كان رجلا عريقا نبيلا شديد البأس. وفي اليوم التالي لسفره استسلمت مدينة انطاكية للفرنجة ولو انه ثابر لأصابه فرح عظيم مع الاخرين. اذ ان فعلته جلبت عليه الاحتقار. فالبداية الحسنة لا تجدي المرء ان لم ينته نهاية حسنة(١٠٧). اما في الامور التي تخص الله فإنني سأختصر لئلا اضل سواء السبيل. ففي هذه الامور علي ان احذر لئلا أتوه عن الحقيقة.

٨) بدأ حصار انطاكية كما ذكرنا في شهر تشرين الاول واستمر طوال الشتاء والربيع حتى شهر تموز(١٠٨) وقد تبادل الاتراك والفرنجة الهجمات والهجمات المعاكسة، فانتصروا وانهزموا، اما نحن فقد انتصرنا اكثر منهم. وقد حدث مرة ان كثيرا من الاتراك وقعوا، خلال فرارهم، في نهر العاصي وغرقوا بتعاسة.(١٠٩) وعلى هذا الشاطىء وذاك حارب الشعبان مرات عديدة.

٩) بنى امراؤنا قلاعا امام المدينة(١١٠) وبهجمات متعددة منها، استطاع رجالنا ببسالة ان يصدوا الاتراك. وبذلك استطاعوا في كثير من الاحيان ان يمنعوا دوابهم عن المراعي. لم نحضر شيئا من الارمن في المناطق المجاورة، ومع ذلك فإنهم عملوا لاضرارنا في مرات عديدة.

استسلام مدينة انطاكية

١) على اي حال، عندما رضي الله، مستجيبا لدعوات قومه بلا ريب، أن يضع حدا لمتاعبهم، بعد أن صبوا له التضرعات والابتهالات اليومية، فمنحهم بمحبته ان يتسلموا المدينة سرا من خلال خيانة بعض الاتراك، رجعت بذلك المدينة الى حكم المسيحيين. اسمع اذن بخيانة وان لم تكن خيانة.

٢) لقد ظَهَر الرب لتركي(١١١) معين، كانت قد كتبت عليه بركة الله، وقال له "انهض ايها النائم. انني آمرك ان ترجع هذه المدينة للمسيحيين". استغرب الرجل ذلك ولكنه حفظ أمر الرؤيا سرا.

٣) ظهر الرب له ثانية وقال "ارجع هذه المدينة للمسيحيين لأنني الذي آمر بذلك، انا يسوع المسيح" احتار الرجل فيما يفعل وذهب الى سيده حاكم

انطاكية[١١٢] واعلمه بأمر الرؤيا فأجابه هذا قائلا "أتريد ايها الغبي ان تطيع شبحا؟" فعاد الرجل ولزم الصمت.

٤) ظهر الرب له مرة اخرى وقال "لِمَ لم تفعل ما امرتك به؟ لا تتردد لأنني انا الذي آمر بهذا انا رب الجميع" فلما زال الشك من نفسه بدأ الرجل يخطط سرا مع رجالنا في مؤامرة تمكنهم من الاستيلاء على المدينة.[١١٣]

٥) عندما تم الاتفاق اعطى الرجل ابنه رهينة للورد بيهمند الذي كان اول من سمع بهذه الخطة وأول من اقتنع بها. وفي الليلة المتفق عليها، ادخل الرجل عشرين من رجالنا فوق السور تسلقوا على حبال ادلاها. وعلى الفور وبدون توان، فتحوا البوابة ثم دخل اربعون رجلا آخرون من جنودنا عن طريق تسلق الحبال وذبحوا ستين من الاتراك الذين وجدوهم يحرسون الابراج. وعند ذلك صاح الفرنجة جميعا صيحة رجل واحد "هذه ارادة الله، هذه ارادة الله" وكانت تلك صيحة الاشارة التي كنا نطلقها حين نوشك على انجاز اي عمل مجيد.[١١٤]

٦) اثر سماعهم تلك الصيحة دب رعب هائل في نفوس الاتراك، وبدأ الفرنجة الهجوم على المدينة في الحال، اذ ان عتمة الفجر بدأت بالتلاشي.[١١٥] ولما رأى الاتراك راية بيهمند ترفرف في الاعالي، والفوضى ضاربة اطنابها، وسمعوا ابواق بيهمند تعزف في اعالي الاسوار، ورأوا الفرنجة يقتحمون الشوارع بسيوف مشرعة ويقتلون الناس بوحشية اصابتهم الرهبة وامعنوا في الفرار لا يلوون على شيء. وهرب من الاتراك من استطاع ان يصل الى القلعة على جرف الجبل[١١٦]

٧) بدأ العامة من رجالنا يستولون على كل ما وقعت ايديهم عليه في الطرقات وفي البيوت، اما الفرسان، الذين خبروا فنون الحرب، فقد واصلوا تقصي وقتل الاتراك.

٨) اما امير انطاكية المدعو اوكسيانيوس (ياغي سيان) فقد فر منها ووجده بعض الفلاحين الارمن، وقطعوا رأسه واحضروه في الحال للفرنجة.

اكتشاف الحربة المقدسة

١) بعد سقوط المدينة وجد رجل ما حربة[١١٧] في حفرة في الارض تحت كنيسة القديس بطرس.[١١٨] ادعى الرجل بعد ان اكتشف الحربة انها كانت ذات

الحربة التي اطلقها لونجينس كما ورد في الانجيل فطعنت الجنب الايمن من يسوع المسيح[119] "ولكن واحدا من العسكر طعن جنبيه بحربة وللوقت خرج دم وماء" (يوحنا ١٩ : ٣٤) وادعى ان الحواري اندراوس هو الذي اوحى له بذلك.

٢) عند اكتشاف الحربة، روى الرجل القصة للاسقف لابوي، وللكونت ريموند، ولم يصدق الاسقف هذه القصة، لكن الكونت أمل ان تكون صحيحة.

٣) عندما سمع الناس بذلك اصابهم الابتهاج ومجدوا الله، ولفترة مائة يوم[120] كانت الحربة موضع اجلال وتبجيل. وحملها الكونت ريموند بفخار وتولى حمايتها، ثم اعترى التردد كثير من الكهنة والعامة، وظنوا ان هذه لم تكن حربة الرب المقدسة وانما حربة اخرى وجدها ذلك الرجل المأفون المخادع.

٤) وفي الشهر الثامن بعد احتلال مدينة انطاكية، وبعد ثلاثة ايام من الصوم والصلوات التي اشترك فيها الجميع، اشعلوا كومة من الحطب في وسط حقل امام مدينة اركاح، وقام الاساقفة بتقديم البركة التحكيمية فوق النار، وركض الرجل الذي وجد الحربة مسرعا خلال الجمر الملتهب لتثبيت امانته، بناء على طلبه. بعد ان مر الرجل خلال النار، ايقنوا انه كان مذنبا اذ ان جلده احترق، وعلموا انه اصيب اصابة مميتة. وظهرت نتيجة ذلك فيما بعد، فقد توفي الرجل[121] بعد اثني عشر يوما مكتويا بعذاب الضمير.

٥) ولما كان كل امرىء قد بجل الحربة محبة واجلالا للرب، فقد اصيب بعد هذه المحنة كل الذين آمنوا بها بحزن عميق وفقدوا ايمانهم بها. ومع ذلك فإن الكونت ريموند احتفظ بها لفترة طويلة بعد ذلك.[122]

محاصرة المسيحيين داخل انطاكية من قبل الاتراك

١) في اليوم التالي لاحتلال انطاكية كما ذكرنا، وصل حشد غفير لا يعد ولا يحصى من الاتراك وضربوا حصارا حول المدينة. اذ ما ان علم السلطان، ملك بلاد الفرس، بحصار الفرنجة لانطاكية حتى جمع على الفور حشدا غفيرا من الرجال، وارسل جيشا ضد الفرنجة وكان قائد هذا الجيش يدعى كربوقا[123]

٢) وبقي ثلاثة اسابيع امام مدينة الرها، التي كان يملكها بلدوين آنذاك ولما لم

يفلح بأخذها سارع الى انطاكية لانقاذ الامير اكسيانوس (ياغي سيان)[١٢٤]

٣) لما رأى الفرنجة هذه الامور، وهنت عزائمهم ولم يخفف من ذلك ان عقوبتهم قد تضاعفت بسبب خطاياهم. اذ ان كثيرا منهم ما ان دخلوا المدينة حتى عاشروا النساء انتهاكا للشرع[١٢٥].

٤) ثم دخل المدينة حوالى ٦٠,٠٠٠ تركي عن طريق القلعة من طرف الجرف الشاهق. وحصروا رجالنا بحملات عنيفة متكررة. ولكنهم لم يمكثوا طويلا اذ دب الرعب فيهم وغادروا المدينة ليحاصروها من الخارج.[١٢٦] وبقي الفرنجة محاصرين داخل الاسوار في حالة من القلق والبلبلة يصعب تصورها.

الرؤى التي ظهرت داخل المدينة

١) في تلك الاثناء ظهر الرب، غير ناس عباده، لكثير من الناس وقد كرروا ذكر هذه الحقيقة وطمأنهم ووعدهم انهم سيفرحون بالنصر في القريب. ثم ظهر الرب لرجل دين معين كان فارا لخوفه من الموت، وقال له "الى اين انت ذاهب يا اخي" فأجاب "انني فار، لئلا يسعفني سوء الحظ وأهلك"

شعر

"وهكذا فر الكثيرون لئلا يذوقوا الموت الزؤام"

فأجاب الرب رجل الدين "لا تهرب بل عد وقل للآخرين انني سأكون معهم في المعركة فقد طمأنت نفسي صلوات أمي، وسوف اكون رحيما على الفرنجة. وقد اوشكوا على الهلاك بسبب خطاياهم. دع أملهم في ان يكون ثابتا وسوف اكتب لهم النصر على الاتراك. دعهم يتوبون وسوف يخلصون، لأنني انا الذي اكلمك انا الرب" فرجع رجل الدين في الحال وذكر ما سمع.[١٢٧]

٢) في تلك الاثناء اراد كثير من الفرنجة ان يهبطوا ليلا من الاسوار بالحبال ويهربوا، خائفين من الموت جوعا او بحد السيف. وقد ظهر امام احد الهابطين شقيقه الذي كان قد مات وقال له "الى اين انت هارب يا اخي؟ اقعد ولا تخف، فإن الرب سيكون معكم في نضالكم. وان رفاقكم في هذه الرحلة، الذين سبقوكم الى الموت، سيحاربون معكم ضد الاتراك". فأصابت الدهشة الرجل لسماع كلام من مات. وامتنع عن الفرار واخبر الباقين بما جرى.[١٢٨]

٣) لم يستطيعوا ان يطيقوا هذا العذاب اكثر من ذلك. اذ لم يبق لديهم ما يأكلونه مما اوهنهم وأنهك جيادهم. وعندما طاب للرب ان ينهي متاعب خدامه، اتفقوا كلهم على الصيام ثلاثة ايام وتقديم الصدقات والصلوات علهم بهذه الكفارات والصلوات يستعطفون الله(١٢٩)

الفرنجة يأمرون بالهجوم على الاتراك

١) بعد التشاور، اخبر الفرنجة الاتراك عن طريق بطرس الناسك، انهم ان لم يغادروا الارض التي كان يملكها المسيحيون في الماضي بسلام، فإنهم، اي الفرنجة سيشنون عليهم هجوما في اليوم التالي. واذا ما فضّل الاتراك فإن السجال سيقع بين خمسة او عشرة او عشرين او حتى مائة فارس يختارون من بين الطرفين، لئلا تراق دماء كثيرة اذا ما احتدم القتال بين جميع المحاربين. وسوف يستلم الطرف الذي ينتصر رجاله على الاخرين، المدينة بسلام ويحكمها دون نزاع بعد ذلك.(١٣٠)

٢) طلب الفرنجة ذلك، ولكن الاتراك لم يستجيبوا لهم اذ كانت لديهم ثقة بأعدادهم الهائلة وقوتهم واعتقدوا انهم يستطيعون التغلب علينا وإبادتنا.

٣) كان عددهم يقدر بثلاثمائة الف من فرسان ومشاة(١٣١) وكانوا يعلمون ان فرساننا قد اصابهم الوهن فاصبحوا ضعفاء كالمشاة.

٤) ثم رجع مبعوثنا بطرس واعطى جوابهم. وعندما سمع الفرنجة حضروا انفسهم دون تردد للمعركة، واضعين كل آمالهم في الله.

٥) كان قواد الاتراك كثيرين وواحدهم يدعى امير ومنهم كربوقا ومالديكان وأميسليمان وعدد كبير يزيد عن الحصر.(١٣٢)

التجهيز للمعركة

١) كان امراء الفرنجة هم هيوج العظيم وروبيرت كونت نورمانديا، وروبيرت كونت الاراضي الواطئة والدوق جودفري، والكونت ريموندو بيهمند ونبلاء آخرون اقل منهم شأنا.(١٣٣) رحم الله روح اديمار اسقف لابوى، الذي كان هو نفسه حواريا دائم العطف على الناس يخفف عنهم ويزيد قوة ايمانهم بالرب.

٢) آه للورع الذي يؤدي الى الحذر! في الليلة السابقة اصدر اديمار بنفسه امرا للمنادي ان يطعم كل فارس فرسه بنصيب اكبر من العلف، مهما شح، لئلا يسقط الفرس في اليوم التالي ساعة المعركة منهكا من الجوع. صدر الامر بذلك وتم التنفيذ.

٣) وهكذا خرجوا كلهم من المدينة جاهزين للمعركة، في مطلع فجر اليوم الرابع قبل نهاية تموز[١٣٤]. تم تنظيم المشاة والفرسان في سرايا وفصائل تسبقها الرايات، وكان معهم الكهنة متشحين اردية بيضاء، يبكون لجميع الناس وينشدون للرب ويصبون الدعاء، من اعماق ارواحهم المؤمنة.

٤) عند ذلك رآهم رجل تركي يدعى امير داليس وكان فارسا مقداما فأصابته دهشة عظيمة لمرآهم يتقدمون وراياتهم مرفوعة، وايقن حين رأى رايات قادتنا التي كان يعرفها تتقدم واحدة تلو الاخرى بنظام، ان المعركة لا بد قريبة.

٥) كان يعرف انطاكية، وتعلم ان يعرف الفرنجة، فأسرع الى كربوقا يخبره بما رأى وقال له "ما بالك تلعب الشطرنج؟ انظر فإن الفرنجة قادمون" فأجاب هذا "اهم قادمون للقتال؟" فأجابه امير داليس "لست موقنا من ذلك حتى الان ولكن امهلني قليلا".

٦) عندما رأى امير داليس رايات امرائنا مرفوعة في الناحية الاخرى تتقدم بشكل حربي وتتبعها الصفوف المتراصة بانضباط عسكري سارع في العودة وقال لكربوقا "اعتقد ان المعركة واقعة ولكن انتظر قليلا لأنني لا اميز الرايات التي اراها".

٧) وبعد التدقيق شاهد علم اسقف لابوى يتقدم في الفصيلة الثالثة.

شعر

"وبدون اي ابطاء قال لكربوقا

انظر لقد حضر الفرنجة، اهرب الآن او حارب بشجاعة لانني ارى علم البابا متقدما.

ارتجف الآن لئلا يهزمك اولئك الذين اعتقدت انك ستبيدهم عن وجه الارض".

٨) قال كربوقا "سأبعث رسولا للفرنجة يخبرهم انني سامنحهم اليوم ما طلبوا مني بالامس" فقال امير داليس "لقد فات الأوان على هذا الكلام" ومع ذلك فإن كربوقا بعث الطلب ولكنه لم يحظ بما ابتغى. اما امير داليس فسرعان ما

"انسحب من عند سيده، ونهر فرسه
وفكر في الانسحاب، ولكنه حث رفاقه
على أن يحاربوا ببسالة وان يطلقوا سهامهم"[١٣٥]

المعركة، انتصار المسيحيين وفرار الاتراك

١) كان هيوج العظيم والكونت روبيرت النورماندي، وروبيرت كونت الاراضي الواطئة قادة الصف الاول في الهجوم وتبعهم جودفري في الصف الثاني ومعه الالمان واللورثارنجيون وبعدهم اتى اسقف لابوى مع رجال الكونت ريموند والجاسكونيين والبروفنساليين وتخلف الكونت نفسه في المدينة ليحميها. ثم حشد بيهمند الجموع بمهارة في المؤخرة.[١٣٦]

٢) عندما رأى الاتراك صفوفهم وقد اخترقها اقتحام جيش الفرنجة برمته بدأوا يتدافعون الى الامام فرادى ليطلقوا السهام كعادتهم[١٣٧] ولكن الرعب القاتل المنزل من السماء القي في قلوبهم فأمعنوا جميعا في الفرار كما لو ان العالم كله سقط عليهم. وطارد الفرنجة الهاربين بأسرع ما استطاعوا.

٣) ولكن لما كانت خيول الفرنجة قليلة العدد ومنهكة من الجوع فإنهم لم يستطيعوا القبض على كثير من الكفار ولكن خيام الاتراك بقيت مضروبة في معسكرهم ووجد فيها الفرنجة حاجيات من مختلف الاصناف، كالذهب والفضة والاردية والاثواب المختلفة والاوعية واشياء كثيرة اخرى تركها الاتراك او القوها في فزعهم وفرارهم المضطرب وعلى سبيل المثال كان هناك خيول وبغال وجمال وحمير وعمامات فاخرة واقواس وسهام وكنانات[١٣٨]

٤) فر كربوقا رشيقا كالغزال، ذاك الذي طالما ذبح الفرنجة بالكلام وبالوعيد والتهديد. ولكن لماذا فر ذلك الذي ملك جيشا عظيما ومعه كل هؤلاء الفرسان المدججون؟ لأنه جرؤ ان يتحدى الله! الرب الذي شاهد ابهة كربوقا من بعد فدمر قوته تدميرا ساحقا..

٥) هرب اولئك الاتراك الذين امتلكوا خيولا سريعة جيدة، اما المتخلفون فقد تركوا للفرنجة وقد اخذ كثير من هؤلاء، وخاصة من المشاة الشرقيين[١٣٩]. ومن ناحية اخرى، فإن قليلا من رجالنا أصيبوا بجراح. أما النساء اللواتي وجدن في خيام العدو فإن الفرنجة لم يمسوهن بأذى، وانما بقروا بطونهن بالحراب.

٦) وبصوت مفعم بالابتهاج، انشد الجميع بعظمة الله[١٤٠]، فبرحمته البارة، انقذ من اشد الاعداء قساوة، اولئك الذين وضعوا ثقتهم به عندما كانوا في اشد محنة وامس حاجة وبسطشه بعثر الاتراك منهزمين بعد ان كادوا يهزموا المسيحيين. وعاد رجالنا الى المدينة جذلين وقد اغنتهم الاسلاب التي غنموها من الاعداء.

٧) "عندما سقطت مدينة انطاكية القديمة
كانت تقل سنتين عن الالف والمائة
بعد ميلاد سيدنا الذي ولدته العذراء في شارة الجوزاء
عندما اشرقت الشمس ضعف التسعة"[١٤١]

٨) وفي اوائل آب، توفي الاسقف اديمار، عل روحه تحل في سلام ابدي[١٤٢] آمين. ثم عاد هيوج العظيم الى القسطنطينية ومنها الى فرنسا[١٤٣]

ارسلت هذه العصبة المجيدة من القواد هذه الرسالة الى بابا روما بهذا الخصوص

١) الى فائق الاحترام، اللورد البابا اوربان[١٤٤]

من بيهمند، والكونت ريموند سنت جيل، والدوق جودفري لورين، والكونت روبيرت النورماندي، والكونت روبيرت فلاندرز، والكونت يوستاس بولون[١٤٥]

تحية وبعد،

خدمة مخلصة وخضوعا صادقا للمسيح كما يحق على الابناء لأبيهم الروحي.

٢) اننا نرغب ونتمنى ان نحيطكم علما بأننا برحمة الله الوافرة وبمعونته الجلية، اخذنا مدينة انطاكية، وأن الاتراك الذين لطخوا بالعار سيدنا يسوع المسيح قد انهزموا وقتلوا، وأننا كحجاج يسوع المسيح الى القدس قد انتقمنا لجراح الرب القدير، وأننا بعد ان حاصرنا الاتراك، حاصرنا اتراك آخرون قدموا من خراسان والقدس ودمشق وامكنة كثيرة اخرى[١٤٦]، وكيف تمّ خلاصنا برحمة يسوع المسيح.

٣) بعد الاستيلاء على نيقيا[١٤٧] تغلبنا كما سمعت، على جموع غفيرة من الاتراك نازلناها في تموز[١٤٨] في دوريلا ييم وشردنا سليمان الجبار وجردناه من كل اراضيه واملاكه. وبعد امتلاكنا واخضاعنا كل رومانيا (اناضوليا) تقدمنا لحصار انطاكية[١٤٩] وقد تحملنا في الحصار كثيرا من المصاعب خاصة من

هجمات الاتراك المجاورين والكفار، يشنونها علينا مرارا باعداد غفيرة، حتى انه صدق القول اننا كنا محاصرين من قبل الذين كنا نحاصرهم في انطاكية.

٤) بعد الانتصار في كل المعارك، وبعد ان تمجد الدين المسيحي بهذه الانجازات فإنني بيهمند توصلت الى اتفاقية مع رجل تركي سلم لي المدينة. وقبل مطلع فجر الثالث من حزيران وضعت السلالم على سور المدينة التي كانت تقاوم المسيح وذبحنا اوكسيانوس (ياغي سيان) طاغية المدينة وكثيرا من جنوده، واحتفظنا بزوجاتهم واولادهم وعائلاتهم مع ذهبهم وفضتهم وكل املاكهم.

٥) ولكننا لم نستطع ان نحتل قلعة المدينة[١٥٠] التي كان الاتراك قد حصنوها، وعندما اتممنا استعداداتنا لاقتحامها في اليوم التالي، شاهدنا اعدادا لا تحصى من الاتراك تتحرك في جميع انحاء المنطقة وكنا نتوقع حضورهم لمحاربتنا لعدة ايام ونحن لا نزال خارج المدينة. وفي اليوم الثالث بعد امتلاكنا المدينة، ضربوا الحصار حولنا، ودخل اكثر من مئة الف[١٥١] منهم القلعة السالفة الذكر آملين ان يندفعوا من ابوابها الى قسم من المدينة تحتها كان جزء منه معنا والجزء الاخر معهم.

٦) ولكننا من موقعنا على مرتفع آخر [١٥٢] مقابل للقلعة حمينا الممر بين الجيشين المؤدي الى المدينة حتى ان الاتراك بأعدادهم الهائلة، لم يستطيعوا ان يقتحموا الممر. وحاربنا داخل وخارج الاسوار ليلا ونهارا، واخيرا اجبرنا العدو على التراجع الى معسكره، عبر بوابة القلعة التي تفضي الى المدينة.

٧) عندما رأوا انهم لن يستطيعوا ايقاع الضرر بنا من تلك الناحية، احاطوا بنا من جميع النواحي حتى ان احدا لم يستطع الخروج او الدخول الى المدينة. وقد ثبط ذلك من عزائمنا وبث الكآبة في نفوسنا، حتى ان كثيرين منا، وقد اهلكنا الجوع والمحن الاخرى، ذبحوا والتهموا خيولهم وحميرهم[١٥٣] التي كانت تموت بدورها من الجوع.

٨) في تلك الاثناء، وباطلالة رفق ورحمة من الله القدير، وبعون منه، وجدنا الحربة المقدسة التي طعن بها لونجينوس جنب مخلصنا[١٥٤]. وقد اوحى القديس اندراوس ثلاث مرات لاحد خدمة الرب واراه المكان الذي رقدت فيه الحربة المقدسة في كنيسة المبارك بطرس امير الرسل وقد استمددنا الطمأنينة والقوة من هذا الاكتشاف وغيره من الايحاءات، فبعد ان تملكتنا

الكآبة والوجل اصبح الواحد منا يحث الآخر بكل شجاعة وتحفز على القتال.

٩) بعد ان تحملنا الحصار لثلاثة اسابيع واربعة ايام واعترفنا بذنوبنا وأوكلنا انفسنا لله انطلقنا من ابواب المدينة في تشكيل عسكري ليلة عيد القديسين بطرس وبولس[١٥٥]. كان عددنا ضئيلا جدا حتى ان العدو لم يظن اننا سنحاربه بل سنهرب.

١٠) وعندما تمت جميع التجهيزات، واصطف مشاتنا وفرساننا في انضباط منتظم، تقدمنا ببسالة بالحربة المقدسة نحو مركز قوة وتجمع العدو واجبرناهم على الفرار من مواقعهم المتقدمة ولكنهم كعادتهم تبعثروا في جميع الاتجاهات، وارادوا ان يحيطوا بنا باحتلالهم التلال والطرقات بقدر استطاعتهم، وأملوا ان ينحرونا بهذه الطريقة. ولكننا خبرنا حيلهم والاعيبهم في معارك سابقة وبعون الله ورحمته استطعنا نحن الاقل عددا ان نجبرهم على التكتل. وبيد الرب اليمنى تقاتل معنا، أجبرنا الاتراك بعد تجمعهم ان يهربوا ويتخلوا عن معسكراتهم وكل ما تحتوي.

١١) بعد ان هزمنا الاتراك ولاحقناهم طوال اليوم وقتلنا آلافا عديدة منهم، عدنا الى المدينة جذلين سعداء، ثم سلم امير معين القلعة السابقة الذكر لبيهمند ومعها الف رجل. وتنازل راضيا عنهم لبيهمند، فاعتنقوا الديانة المسيحية. وهكذا خلص سيدنا يسوع المسيح كل انطاكية واسلمها لديانة روما.

١٢) وبما ان الاتراح لا بد وان ترافق الافراح، فإن اسقف لابوى، الذي ارسلته الينا وكيلا، توفي في اول آب. وقد حدث ذلك بعد المعركة التي لعب فيها دورا نبيلا، وبعد ان اخضعت المدينة.

١٣) لذا فإننا نسألك الآن ونحن ابناؤك الذين فجعوا بفقد والدهم الذي اوكلت علينا، وانت والدنا الروحي: لما كنت انت قد دشنت هذه الحجة، وبعظاتك جعلتنا نترك بلادنا وكل ما فيها، ولما كنت قد انذرتنا بأن نتبع المسيح بحمل الصليب، لما كنت حثثتنا على ان نمجد اسم المسيح بما كنت تبشر، فإننا نتوسل اليك ان تحضر الينا، وان تحث كل من يستطيع ان يحضر معك. فهنا منشأ المسيحيين (اعمال الرسل ١١: ٢٦)* فبعد ان جلس بطرس

---

* اعمال الرسل ١١: ٢٦
فحدث انهما اجتمعا في الكنيسة سنة كاملة، وعلما جمعا غفيرا، ودعي التلاميذ مسيحيين في انطاكية.

المقدس على العرش في الكنيسة التي نرى اليوم اصبح الذين كانوا يدعون جليليين في السابق (اعمال الرسل ١ - ١١، ٢ : ٧)* يدعون مسيحيين. فهل في هذه الدنيا ما هو انسب من ان تحضر أنت. وانت والد الكنيسة المسيحية ورأسها، الى هذه المدينة الرئيسية، عاصمة الاسم المسيحي، وتنهي الحرب التي هي مشروعك بنفسك؟

١٤) لقد اخضعنا الاتراك، والكفار وأما الهراطقة من الاغريق والارمن والسوريين واليعاقبة، فلم نستطع ان نخضع. لذلك فإننا نسأل ونكرر السؤال، ان تحضر انت، يا ابانا العزيز كأب ورأس الى موطن اسلافك. ان تجلس انت، وانت نائب القديس بطرس، على عرشه، وأن تستعملنا كابنائك المطيعين في تنفيذ كل ما ترى وان تمحق وتدمر بسلطتك وبقوتنا كل الهرطقات بجميع انواعها. وهكذا تكمل معنا حجة يسوع المسيح التي اخذناها على عاتقنا بعد ان ناديت بها، وتفتح لنا ابواب القدس، والقدس الاخرى، وتحرر كنيسة قيامة الرب، وتمجد اسم المسيحيين فوق جميع الاسماء. لانك ان حضرت معنا واتممت الحجة التي دشنت فإن العالم بأسره سيدين لك بالطاعة.

لعل الرب الازلي، الذي يحكم الى الديمومة يلهمك ان تفعل ذلك. آمين.

الحملة على مدن اخرى، حصار عرقة، رحلة الفرنجة ووصولهم اليها

١) بعد ان أنهك تعب الايام الطوال رجالنا وخيولنا، استجموا وتغذوا اربعة اشهر في ضواحي انطاكية. فاستردوا عافيتهم [١٥٦]. وبعد التشاور سار جمع من الجيش الى داخل بلاد سوريا رغبة في تأجيل الزحف على القدس. وقد قاد هذا الجمع بيهمند والكونت ريموند[١٥٧] وظل بقية الامراء على مقربة من انطاكية.

---

* اعمال الرسل ١ : ١١
وقالا ايها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون الى السماء. ان يسوع هذا الذي ارتفع عنكم الى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقا الى السماء.
اعمال الرسل ٢ : ٧
فبهت الجميع وتعجبوا قائلين بعضهم لبعض اترى ليس جميع هؤلاء المتكلمين جليليين.

٢) احتل هذان القائدان ورجالهما مدينتي البحرة (بارا) ومعرة النعمان (مارا) مظهرين بسالة عظيمة في القتال. وقد احتلوا المدينة الاولى بسرعة فائقة [١٥٨] وأفنوا مواطنيها عن بكرة ابيهم. وصادروا كل ما فيها. ثم سارعوا الى المدينة الثانية وحاصروها عشرين يوما عانى رجالنا خلالها من الجوع الشديد. ويقشعر بدني اذ اذكر ان كثيرا من رجالنا وقد اضناهم الجوع، وعذبهم الى حد الجنون اقتطعوا لحم العجز من جثث الشرقيين المطروحة وطبخوه وأكلوه، ملتهمين اللحم بوحشية قبل ان يتم طهيه.[١٥٩] وهكذا فإن الضرر اصاب المحاصِرين اكثر من المحاصَرين.

٣) في تلك الاثناء صنع الفرنجة الآلات الحربية بقدر استطاعتهم. وقربوها الى الاسوار، وببركة الله، عبروا فوق هذه الآلات في هجوم بالغ الجرأة. وفي اليوم الذي تلاه قتلوا جميع الشرقيين من أرفعهم الى اوضعهم ونهبوا كل ممتلكاتهم.

٤) عندما دمرت المعرة بهذا الشكل، عاد بيهمند الى انطاكية. ثم طرد منها رجال الكونت ريموند الذين كان قد تركهم لحماية قطاعه منها[١٦٠] وبعد ذلك امتلك بيهمند انطاكية وكل المنطقة حولها بدعوى ان المدينة امتلكت بفضل مفاوضاته وحيلته.

٥) ونتيجة لذلك ضم الكونت ريموند اليه تنكريد وتابع الزحف الى القدس. ثم ان الكونت روبيرت النورماندي انضم الى هذه القوات في اليوم التالي لرحيلهم من المعرة.[١٦١]

٦) في عام ١٠٩٩ بعد ميلاد سيدنا المسيح، تقدمت هذه القوات الى المدينة المنيعة المسماة عرقة[١٦٢] على سفح جبل لبنان. وقد قرأنا ان منشئها كان اراكيوس، ابن كنعان، وحفيد نوح، ولان احتلالها كان في منتهى الصعوبة فقد حاصروها قرابة خمسة اسابيع دون أن ينجزوا شيئا البتة.

٧) لحق الدوق جودفري وروبيرت كونت الاراضي الواطئة هذا الجيش على مقربة وعندما حاصرا مدينة جبالا[١٦٣] الحصينة وصلتهما رسالة بطلب العون لمساعدة الجيش في حصار عرقة، فتركا جبالا على الفور، وسارعا لمساعدة الجيش، ولكن بعد تطويقهم للمدينة لم تقع المعركة المتوقعة.

٨) في حصار عرقة، ضرب انسليم اوف ريبمونت بحجر فمات، وقد كان فارسا مقداما.

٩) في هذه الفترة عقد الفرنجة المشاورات فيما بينهم، وقرروا ان ضررا فادحاً لا يرأب صدعه سيحيق بهم جميعا ان هم اطالوا فترة بقائهم هنا وفشلوا في أخذ قلعة عرقة. فاستقر رأيهم على ان الحكمة تقتضي ان يفكوا الحصار ويتابعوا الزحف، فمع ان طريقهم كانت خالية من حركة المرور التجارية، الا انه ما زال في الوقت متسع لوصولهم الى القدس خلال فترة الحصاد. ولو أنهم بدأوا المسيرة في الحال فسوف يكون باستطاعتهم ان يقتاتوا على الحصاد في كل مكان وعلى المعاش الذي يزودهم به الله، وبقيادته يستطيعون الوصول الى غايتهم المنشودة. تمت الموافقة على هذا الاقتراح واتخذ قرار بذلك.(١٦٤)

١٠) بعد ان طووا خيامهم، بدأوا الرحيل ومروا بمدينة طرابلس. ثم واصلوا المسيرة الى قلعة جبيل في شهر نيسان، وبدأوا يعتاشون على الحصاد. تابعوا مسيرتهم ومروا على مقربة من مدينة بيروت ثم وصلوا الى مدينة قرأنا اسمها بلغتنا على انها صيدا، وهي ارض الفينيقيين، وقد انشأها صيدون بن كنعان الذي انحدر منه الصيدانيون. ومن صيدا نزل رجالنا الى صرفند ثم الى صور وهي مدينة رائعة حقا، ومنها الى ابولونيوس الذي قرأنا عنه، وعن هاتين المدينتين قال المبشر "في نواحي صور وصيدا" (متى ١٥ : ٢١) ويسمي سكان هذا المنطقة احداهما بساجيتا والثانية صور. وفي العبرانية يسمونها سور.(١٦٥)

١١) ثم وصلوا الى قلعة تدعى الزف(١٦٦)، تبعد ستة اميال عن بطولومي. ثم مروا امام بطولومي التي كانت تدعى عكا (اكون) سابقا ويخطىء بعضهم ويسمونها الكارون، ولكن هذه مدينة فلسطينية قرب عسقلان بين يبنه واشدود. وفي الواقع فإن بطولومي / عكا / يحدها جنوبا جبل الكرمل. وبعد ان اجتازوها مر رجالنا ببلدة تدعى حيفا الى يمينهم، ثم اقتربوا من دورا وبعد ذلك من القيصرية في فلسطين. وقد كانت هذه تدعى منذ اوائل العصور باسم آخر هو "برج ستراتون" وفيها مات هيرود اجريبا، حفيد هيرود الذي ولد المسيح في ايامه، ميتة بائسة وقد اكلته الديدان (اعمال الرسل ١٢ : ٢٣)*

١٢) سار الفرنجة بعد ذلك والبحر ومدينة ارسوف الى يمينهم، ودخلوا مدينة

---

* ففي الحال ضربه ملاك الرب لانه لم يعط المجد لله. فصار يأكله الدود ومات.

راماشا (الرملة) وكان سكانها الشرقيون قد فروا قبل ذلك بيوم. ووجد الفرنجة فيها كثيرا من الحنطة فحملوها على ظهور دوابهم ونقلوها الى القدس.

١٣) وبعد تأخير اربعة ايام، عينوا خلالها اسقفا لكنيسة القديس جورج، واقروا رجالا للدفاع عن البلدة، خط الفرنجة طريقهم الى القدس. وفي ذلك اليوم وصلوا الى ايماوس (عمواس) قرب مودين، مدينة المكابيين[١٦٧]

١٤) وفي اليوم التالي، امتطى مئة من خيرة الفرسان خيولهم، ومروا عند الفجر قرب القدس، واسرعوا الى بيت لحم. كان بينهم تنكريد وبلدوين[١٦٨] وعندما اكتشف المسيحيون القاطنون هناك، ومنهم الاغريق والسوريون، ان الفرنجة قد وصلوا، غلبت عليهم السعادة والغبطة، ولكنهم لم يعرفوا بادىء الامر من كان هؤلاء الناس وظنوا انهم اتراك او عرب.

١٥) وعندما شاهدوهم عن قرب، وتيقنوا من انهم فرنجة، امتلأوا فرحا، وحملوا صلبانهم على الفور وخرجوا للقائهم يبكون وينشدون بخشوع. بكوا لخوفهم ان عددا في هذه القلة من الناس يمكن بكل سهولة ابادته على يد الجموع الغفيرة من الكفار الذين كانوا قد عرفوا بوجودهم في البلاد. وانشدوا لانهم رحبوا بقدوم اولئك الذين طالما تمنوا حضورهم، وشعروا بأنهم سيعيدون للديانة المسيحية التي طال انتهاك الكفار لها، الاعتبار التي هي جديرة به.

١٦) وبعد ان قدموا الابتهالات الخاشعة لله في كنيسة مريم المباركة وزاروا مهد مولد المسيح، واعطوا قبلة السلام للسوريين، سارعوا راجعين الى المدينة المقدسة، القدس.

١٧) انظر فقد ظهرت بقية الجيش تقترب من المدينة. كانوا قد مروا عن جبعون الى يسارهم، وهي تبعد خمسين استادا عن القدس، وفي جبعون اعطى يشوع اوامره للشمس والقمر[١٦٩] (يشوع ١٠ : ١٢ - ١٣)* وعندما رفع رجال المقدمة بيارقهم واعلامهم هاجمهم المواطنون في الحال. ولكن الذين اسرعوا في الخروج من المدينة، ارتدوا على اعقابهم بسرعة اكبر.

* يشوع ١٠: ١٢ - ١٣
حينئذ كلم يشوع الرب يوم اسلم الرب الاموريين امام بني اسرائيل، وقال امام عيون اسرائيل يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي ايلون فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من اعدائه أليس هكذا مكتوبا في سفر ياشر؟ فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل.

شعر

كان حزيران مضيئا بحرارة الشمس السابعة[170] عندما طوق الفرنجة القدس في الحصار.

موقع القدس

١) تقع القدس في منطقة جبلية خالية من الاشجار والينابيع والجداول باستثناء عين سلوان (سلوام) التي تبعد مسافة رمية سهم من المدينة، وقد يتوفر فيها الماء في بعض الاحيان او يشح بسبب قلة المجاري. وتقع هذه العين في الوادي على سفح جبل صهيون من تيار جدول قدرون. وهذا الجدول يطفو عادة ويفيض في فصل الشتاء وسط وادي يهوشفات.[171]

٢) تحتوي الاحواض والصهاريج المتعددة داخل المدينة والتي تمتلىء بأمطار الشتاء، على كمية كافية من المياه. كما يوجد خارج المدينة احواض اخرى لانعاش الناس والحيوانات.

٣) من المسلم به ان المدينة منبسطة انبساطا متناسبا، فلا هي صغيرة ولا هي كبيرة، عرضها من السور الى السور اربع رميات سهم. وفي غربها يقع برج داود يحفه السور على الجانبين. وفي جنوبها يقع جبل صهيون على بعد اقل من رمية سهم، وفي شرقها يقع جبل الزيتون على بعد الف خطوة خارج المدينة.

٤) وبرج داود هذا مبني من حجر صلب في نصفه الاعلى قوالب ضخمة مربعة مختومة بالرصاص المصهور. وبوسع خمسة عشر او عشرين رجلا، اذا ما توفر لهم الغذاء، ان يدافعوا عنه ضد هجمات اي عدو.

٥) وفي المدينة نفسها يقع هيكل الرب وهو مستدير الشكل، وقد بني حيث شيد سليمان في قديم الزمان هيكله البديع. ومع انه لا تجوز مقارنة البنيان الحالي بالقديم، الا ان منظره فائق الروعة يدل على مقدرة مذهلة بالاعمار.[172]

٦) وكنيسة القيامة مستديرة الشكل ايضا وقد بقيت قمتها مفتوحة لتسمح بدخول الضوء من كوّة دائمة حذق في بنائها معماري ماهر.[173]

٧) لا اقدر، لا اجرؤ، ولا ادري كيف أعدد الاشياء التي تحتويها، او احتوتها

في الماضي، لئلا اضلل اولئك الذين يقرأون او يسمعون عن هذه المسألة. بعد ان دخلنا الهيكل ولمدة خمس عشرة سنة اثر ذلك،(١٧٤) كانت هناك صخرة محلية في وسطه. وقيل ان تابوت العهد ومعه الجدث وصحائف موسى قد حفظت في داخلها، وان يوشع ملك يهودا امر بوضعها هناك قائلا "لن تستطيع ان تنقلها من هذا المكان" (II ´aralip 35:3) اذ انه تنبأ بمستقبل السبي.

٨) ولكن ذلك يتنافى مع ما نقرأ في وصف ارميا في كتاب المكابيين الثاني بأنه قد خبأها بنفسه في بلاد العرب قائلا انها لن تكتشف حتى يجتمع خلق كثير. وكان ارميا معاصرا ليوشع. ولكن الملك يوشع مات قبل ارميا.

٩) قيل ان ملاك الرب وقف امام الصخرة المذكورة (صموئيل الثاني ٢٤: ٨ ـ ٢٥)* واهلك الناس بسبب حماقة داود في احصائهم مما اغضب الرب (صموئيل الثاني ٢٤: ١ ـ ٢، ١٥ ـ ١٧)** ولما كانت هذه الصخرة قد شوهت الهيكل فإنه تم تغطيتها وتبليطها بالرخام. وقد وضع فوقها مذبح الان، وعليه وضع الكهنة جوقة المرتلين. كان الشرقيون يكنون فائق الاحترام لمعبد الله وقد فضلوا اداء صلاتهم هنا عن اي مكان آخر، مع ان صلاتهم

---

* صموئيل الثاني ٢٤: ٨ ـ ٢٥

"فجاء جاد في ذلك اليوم الى داود وقال له اصعد واقم للرب مذبحا في بيدر ارونه اليبوسي. فصعد داود حسب كلام جاد كما امر الرب. فتطلع ارونه ورأى الملك وعبيده يقبلون اليه فخرج ارونه وسجد للملك على وجهه الى الارض. وقال ارونه لماذا جاء سيدي الملك الى عبده. فقال داود لاشتري منك البيدر لكي ابني مذبحا للرب فتكف الضربة عن الشعب. فقال ارونه لداود فليأخذه سيدي الملك ويصعد ما يحسن في عينه انظر البقر للمحرقة والنوارج وادوات البقر حطبا. الكل دفعه ارونه المالك الى الملك. وقال ارونه للملك الرب الهك يرضى عنك. فقال الملك لارونه لا بل اشتري منك بثمن ولا أصعد للرب آلهي محرقات مجانية. فاشترى داود البيدر والبقر بخمسين شاقلا من الفضة. وبنى داود هناك مذبحا للرب وأصعد محرقات وذبائح سلامة واستجاب الرب من اجل الارض فكفت الضربة عن اسرائيل".

** صموئيل الثاني ٢٤: ١ ـ ٢

وعاد فحمي غضب الرب على اسرائيل فاهاج عليهم داود قائلا امض واحص اسرائيل ويهوذا. فقال الملك ليوآب رئيس الجيش الذي عنده طف في جميع اسباط اسرائيل من دان الى بئر سبع وعدوا الشعب فاعلم عدد الشعب.

صموئيل الثاني ٢٤: ١٥ ـ ١٧

فجعل الرب وباء في اسرائيل من الصباح الى الميعاد فمات من الشعب الملاك يده على اورشليم ليهلكها فندم الف رجل وبسط وقال للملاك المهلك الشعب كفى. الان رد يدك وكان ملاك الرب عند بيدر ارونه اليبوسي فكلم داود الرب عندما رأى الملاك الضارب الشعب. وقال ها انا اخطأت وانا اذنبت واما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا. فلتكن يدك علي وعلى بيت أبي.

ذهبت سدى لأنها قدمت لوثن نصب باسم محمد. ولم يسمحوا للمسيحيين بدخول الهيكل.

١٠) وهناك معبد آخر، فخم ورائع البنيان يدعى هيكل سليمان، ولكنه ليس الهيكل الذي بناه سليمان. ولم نستطع بسبب ضيق ذات اليد، ان نحافظ عليه في ذات الحالة التي وجدناه فيها. ولذا فقد تلف جزء كبير منه.[١٧٥]

١١) كانت هناك مجار في شوارع المدينة يغسل فيها ماء المطر كل الاوساخ.

١٢) كان الامبراطور ايلييسي[١٧٦] هادريان قد زين هذه المدينة وزادها بهاء، وجمل شوارعها وميادينها بالأرصفة. وقد سميت القدس على اسمه «اليا» ولهذا السبب، وكثير غيره عظم شأن القدس واشتهر صيتها.

حصار مدينة القدس

١) عندما شاهد الفرنجة المدينة، وأدركوا صعوبة احتلالها[١٧٧] امر قوادنا بصنع سلالم خشبية آملين بعون الرب ان يدخلوا المدينة بنقل هذه السلالم الى جوار السور ونصبها هناك والتسلق عليها الى قمة السور بهمة ونشاط.

٢) تم تشييد السلالم، واصدر الامراء الامر بالهجوم في اليوم السابع بعد وصولهم. وعلى عزف الابواق في مطلع النهار[١٧٨] هاجم رجالنا المدينة من جميع النواحي بعزيمة جبارة. ولما تابعوا الهجوم حتى الساعة السادسة من النهار ولم يستطيعوا الدخول عن طريق السلالم لقلتها، عدلوا عن الهجوم على مضض.

٣) وبعد التشاور، امر القادة المهندسين ببناء آلات الحرب[١٧٩] آملين بعون الله ان تحقق لهم مبتغاهم اذا ما قربوها الى جانب السور، فتم تنفيذ ذلك.

٤) لم يعان رجالنا من نقص الخبز واللحوم، وانما عانوا هم ودوابهم من جفاف المنطقة، وخلوها من الجداول ومن شح ماء الشرب. لذلك نقلوا المياه بمشقة من القرب من بعد أربعة او خمسة أميال حسب ما اقتضت الحاجة.[١٨٠]

٥) عندما تم تجهيز الآلات اي المجانيق والاكباش، بدأ رجالنا بالتحضير لمهاجمة المدينة مرة ثانية. ومن جملة ما اخترعوا لهذا الغرض، برجاً من اخشاب قصيرة اذ لم تتوافر لهم اخشاب كبيرة في هذه النواحي. وعندما صدرت الاوامر نقلوا اجزاء البرج ليلا الى ناحية المدينة وفي الصباح التالي

نصبوه قريبا من السور، ومعه المجانيق والاكباش التي جهزوها. وبعد ان حضروه وغطوه من الخارج بجلود الحيوانات لحمايته دفعوه شيئا فشيئا الى جوار السور.[181]

٦) وباشارة من عزف الابواق تسلق عدد قليل من خيرة الجنود وأشجعهم البرج، ولكن الشرقيين اقاموا وسائل الدفاع ضدهم واطلقوا بالمجانيق جذوات صغيرة ملتهبة مغموسة بالزيت والشحوم على البرج ومن فيه. وقد هلك كثيرون من الطرفين في ذاك القتال.[182]

٧) ومن موقعهم في جبل صهيون شن ريموند ورجاله هجوما عنيفا بآلاتهم الحربية. ومن الناحية الاخرى شن رجال الدوق جودفري، والكونت روبيرت النورماندي وروبيرت كونت الاراضي الواطئة هجوما اعنف واقسى على السور. تلك حصيلة حوادث ذلك اليوم.

٨) في اليوم التالي، وعلى عزف الابواق، تابعوا ذات المهمة بعزيمة وهمة أشد. ولذلك شقوا ثغرة في السور بدكه بأكباشهم في مكان واحد. كان الشرقيون قد علقوا عمودين من الحطب امام فتحة في أعلى السور وربطوها بالحبال لتزويدهم بالحماية من الحجارة التي يقذفها المهاجمون. ولكن ما ظنوا انه لمصلحتهم، انقلب لمضرتهم فيما بعد بإذن العناية الالهية. اذ عندما قرب الفرنجة البرج المذكور من السور استعملوا السيوف القصيرة لقطع الحبال التي علق فيها العمودان. وصنعوا من هذين العمودين جسرا مدوه بمهارة من البرج الى قمة السور.

٩) في تلك الاثناء، كان رجالنا يقذفون الجذوات الملتهبة على السور، فاشتعلت النيران في احد ابراج السور الحجرية والتهمت الحطب والاخشاب حول البرج وانتشر الدخان والحرائق فلم يقدر احد من الحراس على البقاء هناك اطول من ذلك.[183]

١٠) وفي الحال دخل الفرنجة المدينة بجلال في ظهر اليوم الذي يسمى اليوم المهيب Dies Veneris اليوم الذي فدى فيه المسيح العالم بأسره على الصليب[184]. وخلال عزف الابواق والضجيج والجلبة شنوا هجومهم ببسالة صارخين "رب اعطنا العون" ورفعوا راية على قمة السور على الفور، فدب الرعب الهائل في قلوب الكفار، واستعاضوا عن جرأتهم السابقة بأن ولّوا الادبار وفروا في أزقة المدينة وشوارعها الضيقة وكلما ازدادوا امعانا في الفرار زاد امعان مطارديهم.

١١) لم يدرك الكونت ريموند ورجاله، الذين كانوا يضيقون الحصار والهجوم من ناحية اخرى من المدينة ما جرى، الى ان رأوا الشرقيين يقفزون من اسوار المدينة. وعندما رأوا ذلك هبوا وهم في قمة الابتهاج داخلين المدينة بأسرع ما في قدرتهم، وانضموا الى رفاقهم يلاحقون ويذبحون اعداءهم الاشرار بلا توقف.

١٢) فر بعض هؤلاء، عربا واحباشا[١٨٥] الى برج داود، وحشد آخرون انفسهم في هيكل سليمان ومعبد الرب، وفي ساحة هذا البنيان شن رجالنا هجوما عنيفا على الشرقيين فلم يكن لهم من سيوفنا مفر.

١٣) اما الشرقيون الذين صعدوا الى قبة هيكل سليمان، فقد اطلقت عليهم السهام وخروا صرعى يتساقطون على رؤوسهم. وقد قطعت رؤوس ما يقرب من عشرة آلاف شخص في هذا الهيكل، ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى. ماذا أقول؟ لم يبق منهم احد ولم يرحموا امرأة ولا طفلا.[١٨٦]

الغنائم التي اخذها المسيحيون

١) كم كانت تصيبك الدهشة لو انك شاهدت رجالنا من المشاة وحملة الترس، بعد ان اكتشفوا ألاعيب الشرقيين، يبقرون بطون من ذبحوا ليستخرجوا من امعائهم الدنانير الذهبية التي كانوا قد ابتلعوها وهم على قيد الحياة. وللسبب ذاته، وبعد بضعة ايام، جمع رجالنا كومة عظيمة من الجثث واحرقوها رمادا لكي يسهل عليهم الحصول على هذا الذهب.[١٨٧]

٢) ثم ان تنكريد اندفع الى هيكل الرب وجمع كثيرا من الذهب والفضة والاحجار الكريمة. ولكنه اعادها واضعا الاشياء او ما يعادلها في المكان المقدس. هذا مع ان الخدمات الإلهية لم تعقد بعد هناك حتى ذلك الوقت. لقد مارس الشرقيون هنا عبادتهم الوثنية بشعائر خزعبلية، كما انهم لم يسمحوا بدخول المسيحيين اليه[١٨٨]

٣) وبسيوف مشرعة ركض رجالنا في المدينة
لا يستبقون احدا، حتى اولئك الذين يستعطفون الرحمة
وتساقط الجمع كما يتساقط التفاح المتعفن
من الاغصان المهزوزة او جوز البلوط من الشجر المتمايل.[١٨٩]

بقاء المسيحيين في المدينة

١) بعد هذه المذبحة العظيمة، دخلوا بيوت المواطنين يتملكون ما وجدوا فيها، وقد رتبوا ذلك بحيث ان اول من يدخل بيتا، سواء كان بيت غني او بيت فقير، فلن يعارضه بذلك اي افرنجي، وله ان يسكن ويمتلك ذلك البيت او القصر وكل ما فيه كما لو كان بيته حقا. وهكذا تبادلوا القرار بحق الاستملاك وبهذه الطريقة اصبح الكثير من الفقراء اغنياء.(١٩٠)

٢) ثم ذهب رجال الكهنوت والعامة الى كنيسة القيامة والى هيكل الرب المجيد، منشدين ترتيلة جديدة بصوت مفعم بالابتهاج، ومقدمين العطايا والابتهالات الخاشعة تملأهم وزاروا الاماكن المقدسة والغبطة تفعمهم كما كانوا يتمنون ان يفعلوا منذ أمد طويل.(١٩١)

٣) يا له من يوم طالما تحرقنا شوقا اليه: يا زمانا هو اجدر الأزمنة بالذكرى! ويا عملا فوق كل الاعمال! لقد اشتهينا هذا اليوم لأنه في اعماق قلوب كل المؤمنين بالديانة الكاثوليكية كانت تعتمل الرغبة بأن المكان الذي اختاره خالق جميع المخلوقات، الاله الذي صار رجلا في رحمته المتعددة للانسان، واضفى بميلاده وموته وصعوده عليه هدية الخلاص، ان هذا المكان سيعاد الى جلاله الازلي على ايدي اولئك الذين آمنوا ووثقوا به. لقد تمنوا ان هذا المكان الذي تدنس بخرافات سكانه الوثنيين سيطهر من الوباء.

٤) لقد كان زمانا جديرا بالذكرى، وذلك حق لأنه في هذا المكان تستعاد ذكرى كل ما فعل او علّم في الارض، ربنا الاله يسوع المسيح كرجل بين الرجال، وتتجدد في مخيلة جميع المؤمنين الصادقين. وان هذا الانجاز الذي اختار الرب ان يتم على يد شعبه، اولاده وعائلته الاحباء الذين اختارهم لهذه المهمة، سوف يخلد وتجري ذكراه على ألسنة جميع الامم الى أبد الآبدين.

تنصيب ملك وبطريرك في المدينة واكتشاف صليب الرب

١) "في سنة الالف ومائة ينقصها واحد
من المولد العذري للرب المجيد،
عندما اشرقت شمس تموز خمس عشرة مرة

احتل الفرنجة بعزيمتهم مدينة القدس
وسرعان ما جعلوا جودفري اميرا على بلاد آبائهم".

أجمع رجال جيش الرب في المدينة المقدسة على اختيار جودفري اميرا للدولة[192] ليحميهم ويحكمهم. وقد اختاروه لنبل طباعه ومهارته الحربية، وجلده ثم علاوة على ذلك، لوسامة طلعته.

٢) ثم وضعوا الشرائع في كنيسة القيامة وفي هيكل الرب لخدمته[193] وقرروا في ذلك الوقت ان لا يعينوا بطريركا الى ان يستقصوا من البابا في روما عمن يرغب في تعيينه في مركز السلطة[194]

٣) في تلك الاثناء، إلتمس بعض الاتراك العرب وحوالى خمسمائة من الاحباش السود، الذين كانوا قد لجأوا الى قلعة داود، من الكونت ريموند الذي اقام بقرب تلك القلعة، ان يسمح لهم بأن ينجوا بأرواحهم اذا ما تركوا اموالهم هناك، فأذن لهم بذلك وانسحبوا الى عسقلان.[195]

٤) وقد ارضى الله في تلك الفترة العثور على قطعة صغيرة من صليب الرب وكان قد خبأها في قديم الزمان بعض الرجال الصالحين في مكان سري.[196] وقد اكتشفها الآن، وبإرادة الله رجل سوري كان خبأها وحفظها بمعرفة والده. وحمل الجميع هذه القطعة، وهي على شكل صليب طلي جزء منه بالذهب والفضة، الى كنيسة القيامة ومنها الى الهيكل منشدين بانتصار، مقدمين الشكر لله الذي حفظ هذا الكنز لنفسه ولنا عبر كل هذه العصور.

وصول الكفار وهزيمتهم

١) ما ان سمع ملك بابل (مصر) وآمر قواته لافيد اليوس (الافضل)[197] بدخول الفرنجة الى البلاد لاخضاع المملكة المصرية لسيطرتهم، حتى اصدر امرا بحشد جموع الاتراك والعرب والاحباش وسارع لقتالهم.[198] ولما سمع الآمر المذكور من مراسلين اخرين بسقوط القدس بتلك الوحشية، اشتاط غضبا وأسرع الى قتال الفرنجة وحصارهم في داخل المدينة.

٢) لما سمع الفرنجة بذلك، تبنوا خطة في غاية الجرأة، فزحفوا بقواتهم الى عسقلان لحرب هؤلاء الطغاة، حاملين معهم خشبة الصليب المقدس.[199]

٣) وفي أحد الايام، بينما كان الفرنجة يستكشفون حول عسقلان انتظارا

للمعركة، عثروا على غنائم هائلة من الثيران والجمال والماشية والماعز وعندما جمع رجالنا هذه الدواب قرب خيمنا في آخر النهار اصدر قادتنا امرا صارما بأن لا يقود رجالنا غنائمهم معهم في اليوم التالي لكي لا تعيقهم وتحد من حريتهم في القتال.

٤) علم الفرنجة في اليوم التالي من كشافتهم ان الكفار قد شرعوا في الزحف، فضبطوا اجنحتهم وصفوفهم ونظموها على افضل وجه للمعركة. ثم زحفوا نحو العدو بجرأة واعلامهم مرفوعة(٢٠٠)

٥) ولو نظرت لرأيت الدواب التي ورد ذكرها تمشي على يمين ويسار الحشد كما لو أنها تطيع الاوامر، دون ان يقودها احد، ولما شاهد الكفار عن بعد جنودنا والدواب معهم ظنوا ان كل هذا الجمع هو جيش الفرنجة.(٢٠١)

٦) واقترب الكفار من جموعنا، بجموع لا تحصى ولا تعد، كوعل طاعن بقرونه وشقوا طليعتهم كاشفين عن جناح من العرب، وحاصروا مؤخرتنا. فرجع الدوق جودفري الى الوراء بمجموعة من الفرسان المدرعين وانقذ المؤخرة. وتقدم الامراء الآخرون بعضهم في الصف الاول وبعضهم في الثاني.

٧) عندما اقترب الجمعان مسافة رمية حجر او اقل، بدأ مشاتنا برمي السهام على اعدائهم الذين امتدت خطوطهم وسرعان ما استبدلت السهام بالحراب عندما اندفع فرساننا كما لو كانوا على اتفاق مسبق، وشنوا هجوما كاسحا، وفي المعمعة انقلبت خيول الاعداء البطيئة على فرسانها وطرحتهم ارضا. وفي اقل من ساعة فارقت اجساد كثيرة الحياة وشحبت الوانها.(٢٠٢)

٨) تسلق كثير من الاعداء قمم الاشجار ممعنين في الفرار، ولكنهم قذفوا هناك بوابل من سهامنا وسقطوا الى حتفهم التعيس.(٢٠٣) وفي الهجوم الكاسح، هلك الشرقيون في كل مكان، أما الذين نجوا فقد فروا عبر المخيم الى عسقلان وهذه المدينة تبعد حوالى ٧٢٠ استاداً(٢٠٤) عن القدس.

٩) اما لافيد اليوس (الافضل) الذي لم يضمر للفرنجة حتى ذلك الوقت غير الاحتقار، فقد ولى الادبار وازمع على الفرار اثر لقائه الاول معهم، فهجر خيمته مرغما. وقد كانت مكدسة بالنفائس والاموال. فذهب اليها الفرنجة تملأهم نشوة النصر، واجتمعوا وقدموا الشكر لله.

١٠) ثم دخلوا خيام العدو ووجدوا الثروات الاميرية المذهلة من الذهب

والفضـة والثياب بمختلف انـواعها والاحجـار الكريمـة، وكانت هـذه من اثني عشر صنفا: اليشب، والياقـوت الازرق والعقيق والزمـرد، والجزع العقيقي، والبقراني والزبرجد والياقوت الزعفراني والياقوت الحجري.

ثم انهم وجدوا اوعية كثيرة، واشياء اخرى كالقلنسوات المرصعـة بالـذهب والخواتم الرائعة، والسيوف المدهشة، والحبوب والحنطة وكثير غيرها.

١١) قضى رجالنا الليلة هناك واقاموا الحراسة بحيطة فـائقة اذ انهم اعتقـدوا ان الشرقيين سيجددون القتال في اليوم التـالي. ولكن هؤلاء لشدة رعبهم، فـروا عن بكـرة ابيهم في ذات الليلة.[٢٠٥] وعندمـا تحقق كشافتنـا من هذا الامـر في اليوم التالي تعالت اصواتهم بالمدائح، يباركون ويهللون الله الذي اتـاح لآلاف متعـددة من الكفار ان يتبعـثروا على يـد جيش ضئيل من المسيحيـين "مبـارك الرب الذي لم يسلمنا فريسة لاسنانهم" (المزامير ١٢٤: ٦) "طوبى للأمة التي الرب آلهها" (المزامير ٣٣: ١٢).

١٢) ألم يتهـدد هؤلاء المصريـون بـألسنتهم قـائلين "فلنـذهب ولنحتـل القـدس والفرنجة في داخلها، وبعد ان نذبحهم جميعا فلنهدم كنيسة القيـامة التي تعـز عليهم، ولنمح ذكرها الى الابد"[٢٠٦] وهكـذا لم تضع رحمـة الله سدى بـل ان الفرنجة حمّلوا الخيول والابل بثروات الشرقيين. ولما لم يقدروا على حمل الخيام والرماح والاقواس والسهام الى المدينة المقـدسة، اضرمـوا فيها النـيران وعادوا مبتهجين الى القدس[٢٠٧]

عودة الامراء الى بلادهم

١) بعـد ان تم تحقيق هـذه الانجـازات، اراد بعض النـاس ان يعـودوا الى بلادهم وبعد ان استحمـوا في مياه نهر الاردن، وجمعـوا سعف النخيل قـرب اريحا، في مكان كان يدعى حدائق ابراهيم[٢٠٧] رحـل روبيرت كـونت نورمـانديـا وروبيرت كونت الاراضي الواطئة بـالسفينة الى القسـطنطينيـة ومنها الى فـرنسا وممتلكاتها، اما ريموند فقد عاد الى اللاذقية في سوريا وترك زوجته فيها[٢٠٨] ثم أكمل رحلته الى القسطنطينية متوقعا ان يعود. وحكم جودفري بموافقة الجميع في القدس التي تعهد ان يحافظ عليها، واحتفظ بتنكريد وآخرين معه.

حجة بيهمند وبلدوين

١) كان بيهمند وهو رجل عاقل مقدام يحكم في انطاكية في تلك الفترة، بينما حكم بلدوين شقيق جودفري المذكور، في الرها والبلاد المجاورة في الضفة الاخرى من نهرالفرات.(٢٠٩) وعند سماعهما بنبأ اخذ القدس على ايدي رفاقهما الذين سبقوهما ابتهجا وقدما الحمد والشكر لله والصلوات.

٢) لما كان اولئك الذين اسرعوا في الرحلة الى القدس قد نجحوا وعمت عليهم الفوائد، فمن الاحرى بهذين القائدين ورفاقهما ان يضاهوا الاخرين بشجاعتهم على الاقل وان تخلفوا سنة عنهم.

٣) كان من الضروري ان تدبر حماية الاراضي والمدن التي اخذت من الاتراك بهذه الصعوبة، بكل عناية وحرص، فقد كان بمقدور الاتراك، بعد ان اندحروا الى بلاد الفرس، ان يستعيدوا الاراضي بهجوم مباغت اذا ما تركت بدون حماية. ولو حدث ذلك فإن ضررا عظيما يحل بكل الفرنجة في طريقهم الى القدس ومنها. ولعل العناية الالهية هي التي اخرت بيهمند وبلدوين وقد ارتأت انهما سيكونان اكثر نفعا فيما سيجري من كونهما فيما جرى.

٤) وكم من مرة أجهد فيها بلدوين في نضاله ضد الاتراك في بلاد ما بين النهرين! وكم من رأس تركية قطعت هناك! من المستحيل تقدير ذلك. وطالما حارب بلدوين بقلة من رجاله جموعا حاشدة من الاعداء، ولكن بعون الله حالفه النصر.(٢١٠)

٥) عندما ارسل بيهمند رسله لبلدوين يقترح عليه ان يتابعا ورجالهما الرحلة التي لم يكملاها الى القدس. اخذ بلدوين وقته في تدبير اموره والتحضير للذهاب.

٦) ولما سمع بلدوين ان الاتراك اجتاحوا جزءا من بلاده اجل الشروع في الرحلة وسار لملاقاتهم مع قلة من رجاله اذ لم يكن قد جمع جيشه لرحلة القدس. وفي احد الايام بينما ظن الاتراك انه قد بدأ رحلته وشعروا بالطمأنينة في خيامهم، شاهدوا راية بلدوين تقترب، فدب الرعب في قلوبهم ولاذوا بالفرار. وبعد ان لاحقهم مسافة قصيرة برجاله القلائل عاد وتابع المشروع الذي عزم على اتمامه.(٢١١)

٧) بدأ رحلته مارا بانطاكية عن يمينه ثم قدم الى اللاذقية حيث اشترى المؤونة

للرحلة، واعاد تعبئة احمال الدواب ثم شرع في الرحيل في تشرين الثاني. وبعد ان مررنا بجبيل اتينا الى بيهمند وقد ضرب خيامه امام مدينة تدعى فالانيا (بانياس)[٢١٢]

٨) كان معه اسقف من بيزا يدعى ديمبرت وكان هذا قد ركب البحر الى ميناء اللاذقية مع بعض التوسكانيين والطليان وانتظروا هناك ليسيروا معنا. وكان هناك ايضا اسقف من ابوليا واسقف ثالث كان مع اللورد بلدوين[٢١٣] وقد قدرنا عدد هذا الجمع من الناس الذين ربطتهم اواصر المودة بخمسة وعشرين الفا من الرجال والنساء مشاة وفرسانا.[٢١٤]

٩) عندما دخلنا بلاد الشرقيين لم نستطع ان نحصل من السكان المعادين على خبز او اي غذاء آخر نقتات به، لم يقبل احد ان يعطينا او يبيعنا شيئا، فتلاشت مؤونتنا يوما بعد يوم وعانى الكثيرون من قسوة الجوع. وتضاعفت معاناة الخيول والبهائم من قلة العلف فقد ساروا دون ان يتوافر لهم اي غذاء.

١٠) وقد وجدنا في الحقول المزروعة التي مررنا بها نباتا طازجا تسميه العامة "قصب العسل" وهو شديد الشبه بقصب البوص[٢١٥]، واسمه مركب من القصب والعسل ومنه اشتق التعبير "عسل الخشب" على ما أظن، لأن هذا العسل يصنع بمهارة من هذا القصب وقد علكناه من الجوع طوال الوقت بسبب طعم العسل فيه، ولكن ذلك لم يغن كثيرا من الجوع.

١١) الحق اننا تحملنا، محبة بالله، هذه المشقات وكثيراً غيرها مثل الجوع والبرد والامطار الشديدة، وقد أكل كثير من الرجال، لقسوة الجوع، الخيل والحمير والجمال. ثم قاسينا مرارا من البرد القارس والامطار العاصفة ولم تكد توشك ثيابنا المبتلة على الجفاف من حرارة الشمس الا وينغص عيشنا وابل آخر من المطر لاربعة او خمسة ايام.

١٢) وشاهدت كثيرا من الناس الذين فقدوا خيامهم يموتون من القشعريرة بسبب الامطار، كما شاهدت أنا، فوشيه دو شارتر، في أحد الايام كثيرا من الاشخاص من الجنسين وكثيرا من الدواب تلاقي حتفها بسبب الصقيع. ويطول الكلام ويضجر السامع لو ذكرنا كل المآسي والهموم التي عانى منها شعب الله.

١٣) وقتل كثير من الفرنجة على ايدي الشرقيين المتربصين في الازقة الضيقة على

الطريق واختطف آخرون في اثناء التجوال بحثا عن الطعام. وكنت ترى فرسانا من اصل رفيع وقد اصبحوا مشاة بعد فقد خيولهم. كما كنت ترى الماعز والاكباش التي اخذت من الشرقيين وقد اضناها حمل المتاع، وتشققت ظهورها وانبرت لحمل الاثقال ولم يبق من الدواب لحمل المتاع غيرها.

١٤) وقد توافر لنا الخبز والحنطة مرتان لا ثالث لهما، ودفعنا ثمنا باهظا لها وكانت هاتان المرتان في طرابلس وفي القيصرية[٢١٦]. ومن كل هذا يتضح ان المرء لا ينال الامر العظيم الا بالجهد العظيم. وقد كان وصولنا الى القدس امراً جد عظيم.

١٥) وبهذه الزيارة الى القدس انتهت مهمتنا التي طال مداها. وعندما حدقت عيوننا بقدس الاقداس، التي طال شوقنا اليها، امتلأت نفوسنا بالغبطة العارمة، وكم استعدنا في ذاكرتنا نبوءة داود اذ قال "لنسجد عند موطىء قدميه" (مزامير ١٣٢ : ٧) حقا لقد رأينا النبوءة تتحقق فينا في تلك اللحظة مع انها كانت تتعلق بآخرين غيرنا. وقد صعدنا "حيث صعدت الاسباط، اسباط الرب شهادة" (مزامير ١٢٢ : ٤) الى هذا المكان المقدس.

١٦) يوم وصولنا الى القدس بدأت الشمس تنقلب بعد إكمال نزولها الشتوي وبدأت في الصعود.[٢١٧]

١٧) وبعد زيارتنا لكنيسة القيامة ولهيكل الرب المجيد الجليل والاماكن المقدسة الاخرى، ذهبنا في اليوم الرابع الى بيت لحم لنحتفل بميلاد المسيح الرب وأردنا ان نساعد بأنفسنا في تلك الليلة في الصلوات في المهد حيث وضعت الأم مريم المجيدة ابنها اليسوع.

١٨) رجعنا الى القدس في الساعة الثالثة من ذلك اليوم[٢١٨] بعد أن أنهينا الابتهالات اللائقة في الليلة السابقة.

١٩) وكم زكمت انوفنا الروائح الكريهة حول اسوار المدينة من الداخل والخارج، المتصاعدة من جثث الشرقيين المهترئة الذين فتك بهم رفاقنا عند احتلال المدينة، منطرحة حيث تمَّ اصطيادها.

٢٠) بعد أن استجممنا نحن ودوابنا، وأخذنا قسطا من الراحة التي كنا في اشد الحاجة إليها، وبعد ان اختار الدوق والرؤساء الأخرون، ديمبرت السابق الذكر ليصبح بطريركا في كنيسة القيامة[٢١٩] تزودنا بالمؤن، وحملنا الدواب وهبطنا الى نهر الاردن.

٢١) فضل بعض الجنود، خاصة اولئك الذين تأخروا في الوصول الى القدس، البقاء فيها، اما الاخرون الذين وصلوا سابقا فقد اختاروا الذهاب معنا وتابع الدوق جودفري حكم منطقة القدس بيد من حديد كما فعل من قبل.

٢٢) شعر

"وفي اليوم الثالث قبل منتصف آب، وكان يوما مشؤوما توفي اوربان المبجل، بابا روما"[٢٢٠]

عودة الدوق بيهمند والكونت بلدوين الى بلادهما

١) في عام ١١٠٠ بعد ميلاد سيدنا المسيح وفي اليوم الاول من ذلك العام[٢٢١]، حملنا جميعا سعف النخيل بعد ان قطعنا الاغصان في اريحا كما جرت العادة، وفي اليوم التالي بدأنا رحلة العودة.

٢) وقد طاب لامرائنا ان يعبروا مدينة طبرية الواقعة على البحر. وطول هذا البحر الذي يتكون من مياه عذبة ثمانية عشر ميلا وعرضه خمسة اميال[٢٢٢] ومنها مررنا بقيصرية فيلبس التي تدعى بانياس باللسان السوري. وهي تقع على سفح جبل لبنان حيث ينبع جدولان ويشكلان نهر الاردن ويجري هذا النهر عبر بحيرة طبرية الى البحر الميت.

٣) وعرض هذه البحيرة، التي تدعى جنساريت، اربعون استادا وطولها مائة استاد كما يذكر يوسيفوس. ويعبر النهر خلالها ثم يصب في البحر الذي يدعى البحر الميت لأنه لا يحتوي على اي شيء حي. وهذا ايضا عبارة عن بحيرة، تدعى اسفالتيت[٢٢٣] يعتقد ان ليس لها قاع لأن مدنا مثل سدوم وعمورة قد انغمرت في اعماقها (تكوين ١٩ : ٢٤ ـ ٢٩)*

---

* تكوين ١٩ : ٢٤ ـ ٢٩
فامطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عند الرب من السماء وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الارض ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح. وبكر ابراهيم في الغد الى المكان الذي وقف فيه امام الرب. وتطلع نحو سدوم وعمورة ونحو كل ارض الدائرة ونظر واذا دخان الارض يصعد كدخان الاتون. وحدث لما خرب الله مدن الدائرة ان الله ذكر ابراهيم وارسل لوطا من وسط الانقلاب حين قلب المدن التي سكن فيها لوط.

٤) لقد قرأت كتاب القديس جيروم عن النبي عاموس[٢٢٤] وبعناية فائقة قمت بتخمينات عن الينابيع التي يذكرها، واستنتجت ان دان كان ضمن حدود بلاد يهوذا حيث تقع بانياس الآن، ولأن قبيلة دان بنت مدينة هناك، دعاها الناس دان تيمنا بآبائهم. ولهذا السبب اعتقد ان احد هذه الينابيع كان يدعى دان والآخر جور بالقرب منه.[٢٢٥]

٥) ثم وصلنا الى مدينة منيعة تدعى بعلبك، وقد انشأها سليمان. وبنى حولها اسوارا شاهقة وسماها تدمر[٢٢٦] وتبعد هذه المدينة مسيرة يومين من اعالي سوريا وستة ايام من بابل العظمى (القاهرة) ومسيرة يوم من الفرات. وقد سماها الاغريق بالاغريقية بالميرا. وتكثر حولها الينابيع والآبار ولكن المياه لا توجد في الصحراء.

٦) وقابلنا هنا حوالى اربعمئة من المحاربين الاتراك قدموا من دمشق، وقد ظنوا، علما منهم بأننا مجهدون من التعب ومنهكون، بأنهم يستطيعون الحاق الاذى بنا. ولو لم يشأ الحظ ان يحمي مؤخرتنا اللورد بلدوين في ذلك اليوم، وقد فعل ذلك بعناية وحذر، لقتل من رجالنا عدد كبير. وقد طاشت اقواسهم بسبب المطر، لأن من عادة اهل تلك البلاد ان يستعملوا الصمغ لصنع هذه الاسلحة. وقاد بيهمند المقدمة، وهكذا بعون الرب، لم يأخذ العدو اي مغنم منا.[٢٢٧]

٧) ثم أقمنا معسكرنا أمام البلدة المذكورة وفي اليوم التالي اقتربنا اكثر من البحر ومررنا امام مدينتي طرطوس واللاذقية. وفي اللاذقية وجدنا ريموند الذي كنا قد تركناه هناك. ولشح الغذاء لم نجد ما نشتريه من المؤونة لنقتات به. لذلك سارعنا بلا توقف الى ان وصلنا الى الرها.

القبض على الدوق بيهمند

١) وصل بيهمند[٢٢٨] اولا الى انطاكية حيث استقبله اصدقاؤه، بسرور بالغ، وحكم هناك لستة أشهر كما فعل من قبل.[٢٢٩]

٢) ولكن في شهر تموز المقبل، عندما اقترب في قلة من رجاله من مشارف مدينة تدعى ميليتين[٢٣٠] (وكان قد عقد معاهدة صداقة متبادلة مع حاكمها المدعو جبريل،[٢٣١] يسلم هذا بموجبها البلدة الى بيهمند) اقترب منه امير يدعى دانشمند[٢٣٢] على رأس مجموعة كبيرة من الاتراك قاصدا ان يقطع

الطريق على بيهمند الذي زحف غير عالم بوجوده.

٣) وعلى مقربة من البلدة، انقض هؤلاء الاشرار على بيهمند من كمين من جميع النواحي. ولم يجرؤ رجالنا على القتال لقلة عددهم ففروا وتفرقوا في الحال. وقد قتل الاتراك عددا كبيراً منهم وأخذوا اموالهم بل وإنهم قبضوا على بيهمند واخذوه اسيرا.(٢٣٣)

٤) عندما علم قومنا بهذه الكارثة من الذين فروا، اصابهم يأس عظيم ولكن الدوق بلدوين صاحب الرها جمع كل من استطاع من فرنجة الرها وانطاكية، وانطلق على الفور يلاحق العدو حيث سمع بوجوده.

٥) وفي تلك الاثناء، قص بيهمند خصلة من شعره كعلامة كان قد اتفق مع بلدوين عليها، وطلب منه محبة بالله، ان يحضر لنجدته على الفور. ولما سمع دانشمند بذلك خاف من نقمتهم ولم يجرؤ على ان يطيل مكوثه في ميليتين التي كان قد طوقها بالحصار. وبدلا من ذلك تراجع امامنا واستطاع ان يعود الى بلاده. وقد اصابتنا خيبة شديدة لذلك، اذ اننا كنا قد لاحقنا الاتراك لثلاثة ايام،(٢٣٤) بعد ميليتين وكلنا نتوق لمواجهتهم في القتال.

٦) اثر عودتنا سلم جبريل المذكور مدينة ميليتين لبلدوين وبعد ان اقام هذا روابط الصداقة وادخل حراسه الى ميليتين رجع الى مدينة الرها. وعاد رجال انطاكية الى مدينتهم وقد خسروا قائدهم(٢٣٥).

وفاة الملك جودفري(٢٣٦)

١) ما كاد بلدوين يستمتع بيسر عيشه حتى اتاه رسول من القدس يخبره بوفاة الملك جودفرى هناك، قبل بداية آب بخمسة عشر يوماً(٢٣٧).

٢) شعر

"في مطلع السنة بعد ان سقطت المدينة

منحك الرب، ايها الدوق جودفري الحكم كتاج من التقدير ولكن لم تدم طويلا

ممارستك له اذ ان الطبيعة اقتضت هلاكك

وعندما دخلت الشمس الطالعة في برج الاسد
صعدت انت الى السماء فرحا، يحملك الملاك ميخائيل"

★ ★ ★

هنا ينتهي الكتاب الاول

هوامش الكتاب الاول

١) هنري الرابع (١٠٥٤ ـ ١١٠٦ م) ملك المانيا وعدو البابوية التي تأخذ بالاصلاحات الكلونية، كان قد توج امبراطورا للدولة الرومانية من قبل البابا المضاد كليمنت الثالث في عام ١٠٨٤. ويظهر تعاطف فوشيه مع الحركة الكلونية واضحا ضد الامبراطور الذي يسميه "بالمدعو".

٢) فيليب الاول (١٠٦٠ ـ ١١٠٨ م) الذي كان قد اصطدم مع الكنيسة بسبب علاقته غير الشرعية مع بيرترادا مونتفرات. حكم عليه بالحرمان في مجمع كليرمونت في تشرين الثاني عام ١٠٩٥ م.

٣) اوربان الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩ م) كان صديق وتلميذ جريجوري السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥ م). حامل لواء حركة الاصلاح الكلونية. وقد نازع كليمنت الثالث على البابوية الى أن انفرد بها. وهو الذي اطلق جماح الحركة الصليبية.

٤) يشير فوشيه هنا الى احتلال الاتراك السلاجقة آسيا الصغرى في مشرق الامبراطورية الرومانية البيزنطية عقب هزيمة الامبراطور رومانوس ديوجينس في معركة ملاذكرد في ٢٦ آب ١٠٧١ م.

٥) تقرير فوشيه هذا واحد من التقارير القلائل التي وصلتنا عن وقائع مؤتمر كليرمونت وهي:

ـ روبيرت الراهب: RHC, OCC. 11 in (Paris: Imprimerie Imperiale, 1866)

ـ بالدريك اوف دول: RHC, OCC.IV in (Paris Imprimerie Nationale, 1879)

ـ جيبرت اوف نوجنت: RHC, OCC. IV, 137 - 40

وقد بحث هذا الموضوع مفصلا في Dana Munro, The Speech of Pope Urban II, `AHR, XI, 1906 231 ' 42

٦) يختلف عدد الاعضاء بحسب المصادر ومن المحتمل انه كان يتغير خلال فترة انعقاد المجلس. (HF, 122, note 1G)

٧) عقد المجلس في الفترة ما بينن ١٨ ـ ٢٨ تشرين الثاني عام ١٠٩٥ م (HF, 122, note 10)

٨) يعتقد الباحث دانا مونرو ان البابا القى ثلاث خطب في كليرمونت وطلب من رجال الكنيسة دعم حركة كلوني الاصلاحية و"رجا من المؤمنين ان يحملوا الصليب" ثم اصدر تعليمات عملية ليؤمن الوسائل العملية للحملة الصليبية.

(HF, 124, note 1)

٩) هذا العنوان لا يناسب الفصل الثالث، لان هذا الفصل لا يذكر القدس ولا كنيسة القيامة ولا الاراضي المقدسة فهو واسع المجال ويتضمن تخليص البيزنطيين كجزء اساسي من اهداف الحملة الصليبية. وهناك عناوين فصول اخرى لا تطابق محتويات هذه الفصول. ومن المرجح ان تقسيم النص وعنونته قد تم في فترة لاحقة على يدي كاتب آخر غير فوشيه.

١٠) القى البابا اوربان الثاني هذا الخطاب في ٢٧ تشرين الثاني ١٠٩٥ م.

(H Chr. 9 - 10) D.C. Munro, AHR, XXVII (1922) 731 - 33

١١) كان آخر طلب للعون قد قدم في مؤتمر بيسنزا في آذار عام ١٠٩٥، من قبل مبعوثي الامبراطور البيزنطي اليكسس.

١٢) ذراع القديس جورج ـ اشارة لبحر مرمرة ومضيق البسفور. ويلاحظ ان البابا يقول إن الاتراك

شعب فارسي، مما يعكس جهل الغربيين والصليبيين الفاضح بشعوب الشرق وأصولها.

١٣) الاشارة الى "اراضينا" تدل على ان اوربان اعتبر العالم المسيحي كوحدة رغم وجود ما يدعى بالانشقاق او الانشطار الذي حصل عام ١٠٥٤ م بين العالم اللاتيني الكاثوليكي والعالم الاغريقي البيزنطي.

١٤) اديمار اوف مونتيل، المنتمي لعائلة فيلا نتينوا، اصبح اسقف لابوى بمساعدة البابا جريجوري السابع وكانت الابرشية تابعة للبابا مباشرة، وعليه فقد كانت مركزا للنفوذ البابوي والاصلاح الكلوني في تلك النواحي، وقد حضر البابا اوربان الثاني الى لابوى في ١٥ آب ١٠٩٥ م. ومن هناك اصدر استدعاءات لمجمع كليرمونت ومن المحتمل انه استشار اديمار في لابوى بشأن خطته للمجلس وللحملة الصليبية. ومن الممكن انه قرر آنذاك اختيار اديمار مندوبا عنه للحملة. ويرجح أن احد اسباب اختيار اوربان لاديمار كان ماضي هذا الاخير الحافل بالمقدرة والاخلاص للبابوية الكلونية وسمعته في تلك المنطقة التي سيعقد فيها المجمع وعلاقته المنسجمة مع ريموند سنت جيل، كونت تولوز الامير العظيم، الذي كان يتوقع ان يصبح قائد الحملة العسكري. راجع Hill and Hill, "Raymond IV, Count of Tolouse", Syracnse U. Press, (1962) 29 - 34

١٥) كان جيبرت اسقف رافينا. وفي الخلاف الشهير حول التنصيب بين الامبراطور هنري الرابع والبابا جريجوري السابع (هيلد يبراند) انحاز جيبرت الى هنري، ولذا اختير بابا (مضادا) في ١٠٨٠ م واتخذ اسم كليمنت الثالث، وقد توفي عام ١١٠٠ م.

١٦) يلاحظ ان فوشيه يشير الى هنري الرابع ليس كامبراطور الرومان بل امبراطور بافاريا. وكان هنري قد اصبح دوق بافاريا عام ١٠٥٥ م. وقد استمد كثيرا من قوته من تلك المنطقة.

١٧) مات جريجوري السابع عام ١٠٨٥ م، وخلفه فكتور الثالث الذي حكم فترة بين ١٠٨٦ - ١٠٨٧ وبعدها انتخب الراهب الكلوني السابق الفرنسي اودو دي لاجني، كردينال اوستيا في عام ١٠٨٨ م، واتخذ اسم اوربان الثاني.

١٨) راجع HF, 147, note 15

١٩) عام ١٠٩٦ م. يعني فوشيه بكلمة الفرنجة "الصليبيون" لان معظم الصليبيين في تلك الفترة (ولكن ليس كلهم) كانوا فرنسيين.

٢٠) ماتيلدا كونته توسكاني، مشهورة بمساعدتها للبابا جريجوري السابع واوربان الثاني ضد هنري الرابع وجيبرت. ارسلت العساكر لمرافقة اوربان الثاني الى روما في اوائل عام ١٠٩٦ م بعد مجلس كليرمونت.

٢١) هنا يعرّف فوشيه بنفسه بالاسم وكعضو في الحملة الصليبية الاولى. وعبارة "وكيف توجت مشاريعهم واعمالهم بالنجاح" تدل على انه كتب في فترة بعد، وليس قبل، انتهاء الحملة في ١٠٩٩ م.

٢٢) ١٨ - ٢٨ تشرين الثاني عام ١٠٩٥ م

٢٣) كان اوربان الثاني في تصريحه لاهل فلاندرز في كانون الاول من عام ١٠٩٥ قد حدد ١٥ آب ١٠٩٦ م موعدا لبدء رحيل الجيش تحت امرة اديمار. ويعتقد الباحث د. مونرو ان تحديد هذا

التاريخ كان لاعطاء الصليبيين الوقت الكافي لحصاد المزروعات وليجتازوا آسيا الصغرى خلال فترة الطقس البارد. Munro, The Kingdom of the Crusaders, N.Y. London D. Appi-ton - century Co. 1935

٢٤) هيوج، كونت فيرماندوا، الشقيق الاصغر للملك فيليب الاول. ويلقب بالعظيم، وهذه ترجمة تحريفية خاطئة عن اللاتينية المقصود منها الاخ الاصغر.

٢٥) ترجع الاشارة الى دورازو الالبانية على انها بلغارية الى عهد المملكة البلغارية خلال حكم القيصر صموئيل (ت ١٠٥٤ م) التي حطمها الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني عام ١٠١٨ م.

٢٦) اراد الامبراطور البيزنطي الكسيس ان يجعل من هيوج مثالا لبقية الامراء: ان يُقسم على ارجاع اي اراض يحتلها، كانت في السابق تحت حكم الامبراطورية، الى الامبراطور، وان يقسم يمين الطاعة للامبراطور عن اي اراض اخرى. وقد فعل هيوج المغرور ذلك بملء ارادته.
Duncalf in Setton (ed) Crusades I, 284

٢٧) راجع عن حياة بيهمند R. B. Yewdale, Bohemond I, Prince of Antioch, Princeton 1924

٢٨) راجع عن حياة جودفري J.C. Andressph, The Ancestry and Life of Godfrey of Bouillon, Indiana U. Publications, Bloomington, 1947

٢٩) راجع عن حياة ريموند Hill and Hill, Raymond IV.

٣٠) راجع عن حياة بطرس الناسك Duncalf, The Peasents Crusade" AHR, 1921

٣١) راجع عن حياة ولتر المعدم المرجع السابق 51 - 459 ; 443

٣٢) كان روبيرت دوق نورماندیا، الابن الاكبر لوليم الفاتح ملك انجلترا. C.W. David "Robert Curthouse, Duke of Normand" Harvard U. Press 1920

٣٣) ستيفن، كونت بلوا وشارتر، هو زوج اديلا ابنة وليم الفاتح وهو والد الملك ستيفن ملك انجلترا (١١٣٥ - ١١٥٤ م). راجع Brundage "An Errant Crusader: Stephen of Blois" .Traditio, XVI, 1960

٣٤) يدل استعمال فوشيه ضمير المتكلم بوضوح على انه كان مسافرا في معية الدوق روبيرت والكونت ستيفن اللذين يذكر رحلتها الى أن وصلا الى نيقيا. ويعتقد الباحث هاجنمير ان حوادث لوكا وروما وقعت في ٢٥ ـ ٢٨ تشرين الاول ١٠٩٦ م.

٣٥) يجب ان لا تؤخذ كلمة "الغبي" حرفيا لأن جيبرت لم يكن غبيا ابدا. ويدل ذلك على نظرة احتقار فوشيه لهذا البابا "الدعي".

٣٦) في اوائل كانون اول عام ١٠٩٦ م HF 168, Note 23

٣٧) ٥ نيسان ١٠٩٧ م.

٣٨) ٩ نيسان ١٠٩٧ م.

٣٩) راجع (HF, 173, note 23)

٤٠) ٢٢ ـ ٢٦ نيسان ١٠٩٧ م (HF, 174, note 26)

٤١) راجع ٣٩ وراجع ايضا (HF, 175, note, 28)

٤٢) ١٤ ـ ٢٨ ايار ١٠٩٧ م (HF, 175, note 29)

٤٣) لم يشأ الامبراطور الكسيس كومنين(١٠٨١ ـ ١١١٨) ان يعطي اي مجال لرجال روبيرت

النورمندي وستيفن بلوا بعد ان قاسى كثيرا من المتاعب مع اتباع بطرس الناسك وجودفري بويون وبيهمند وريموند سنت جيل. ولكن فوشيه الذي كان يكتب بايحاء من رغبة البابا اوربان بمساعدة البيزنطيين كاشقاء مسيحيين، لم يعترض على احتياطات الكسيس، بل حتى انه تعبد في الكنائس الاغريقية متجاهلا الانشقاق الكنسي الذي حصل عام ١٠٥٤ م.

٤٤) المؤلف المجهول، هو مؤرخ آخر عاصر الحملة الصليبية ودوّن تاريخها بكتاب عنوانه (Gesta Francorum) (Iherusalem Expugnantium) وقد ترجمه الى العربية حسن حبشي. وقد عبر المؤلف المجهول عن هذا الموضوع ببلاغة "كم عظيمة هذه المدينة، نبيلة وممتعة، مليئة بالكنائس والقصور بنيت بالمهارات المعجزة". تابع الى آخر الفقرة في ترجمة الدكتور حبشي.

٤٥) اعتقد فوشيه كغيره من الغربيين الذين تنقصهم الثقافة ان الامبراطور يحتفظ بالحريم وبعدد كبير من الخصيان في خدمته.

٤٦) يذكر المؤلف المجهول انهم استراحوا خمسة عشر يوما. (RHC, OCC. III, 494)

٤٧) تعهد كل من هيوج اوف فيرماندوا وجودفري بويون وشقيقه بلدوين وبيهمند وروبيرت فلاندرز وروبيرت النورماندي وستيفن بلوا بأن يعيدوا للامبراطور أي ارض كانت في السابق تحت حكم الامبراطورية اذا ما حرروها، وأن يدينوا بالطاعة للامبراطور عن اي ارض اخرى قد يحتلونها. وقد اخطأ فوشيه جزئيا اذ ان ريموند قد اقسم يمينا بالتبعية ولكنه وعد ان يحافظ على حياة وشرف (وهذا يعني ممتلكات) الامبراطور وأن يحترمها وان يعيد اليه اي اراض امبراطورية قد يحتلها.

٤٨) يذكر المؤلف المجهول ان الكسيس أعطى الهدايا والخلع لروبيرت وستيفين كما ساعدهما لعبور المضيق. (RHC, OCC. 111, 494)

٤٩) وصلوا في ٣ حزيران ١٠٩٧ م(HF, 179, note 15)

٥٠) كان الاتراك السلاجقة غرب نهر الفرات منذ عام ١٠٥٧ م وفي ١٠٦٧ - ١٠٦٨ م، وقد احتلوا كل بلاد الاناضول بعد هزيمة البيزنطيين في معركة ملاذكرد عام ١٠٧١ م. راجع Cahen, "The Turkish Invasions: The Selchukids" in Setton ed., Crusades, I, 147 - 49

٥١) الاشارة هنا الى جماعة بطرس الناسك الذين هزمهم الاتراك في تشرين الاول ١٠٩٦ م.

٥٢) راجع الفصل ٩، فقرة ٤

٥٣) ١٦ ايار ١٠٩٧ م (HF, 182, note 5)

٥٤) داخل اناضوليا (يسميها فوشيه رومانيا). وقع الهجوم الثاني في ١ تموز ١٠٩٧ م.

٥٥) وصلوا في ٣ تموز ١٠٩٧.

٥٦) يحاول فوشيه ان يميز بين العامة وبين المسلحين باستثناء غير المحاربين ويلاحظ ان الاعداد التي يذكرها مبالغ فيها بشكل كبير.

٥٧) وردت الاشارة سابقا الى الهجرة من الجيش في روما وابوليا اما في هنغاريا فلا بد انهم جماعة بطرس الناسك وولتر المعدم وجماعة جودفري، ثم مجموعة من رجال ريموند سنت جيل في دلماشيا، اما بالنسبة للاموات فلا بد ان فوشيه كان واقعا تحت تأثير ذكرياته لما رأى من جثث القتلى من اتباع بطرس الناسك حول نيكوميديا.

٥٨) انزلت هذه المؤن في سفيتوت بالسفن، ثم نقلت جنوبا عبر وادي دراكون. (يلك).

٥٩) راجع HF, 186, notes 22 - 26

٦٠) كان الصليبيون قد احاطوا بالمدينة من ثلاثة جوانب الا انهم لم يستطيعوا اكمال حصارها وعزلها عن بقية البلاد الى ان منعوا عنها وصول المؤن والغذاء الآتي عن طريق بحيرة اسكانيوس (اسنيك) في غرب المدينة. وقد انزلوا القوارب ليلة ١٧ ـ ١٨ حزيران ١٠٩٧ م. (HF, 188, note 33)

٦١) تكتب اناكومنين (ابنة الامبراطور الكسيس) عن تفاصيل تسليم الاتراك سرا للجنرال الامبراطوري مانويل باتوميتس. ويظهر من كتاب فوشيه، الذي كان لا يزال يكتب بروح الاخلاص لسياسة البابا اوربان التي تتطلب الصداقة مع البيزنطيين، انه يفصح عن مشاعر المرارة التي احس بها عامة المقاتلين الصليبيين: حيث شعروا ان الامبراطور الكسيس قد سلبهم ثمرة انتصارهم. ومنذ بدء احتكاك الصليبيين بالبيزنطيين بدأوا يعتبرونهم اعداء يجدر الشك بهم لا اخوانا مسيحيين تجب مساعدتهم.

٦٢) الـتركوبـول: فرسان مسلحون بالسلاح الخفيف، اصلهم اتراك خدموا في جيش الامبراطور كمرتزقة.

٦٣) انظر معاملة الكسيس للفرنجة المماثلة في فصل سابق.

٦٤) الواقع ان نيقيا سقطت يوم ١٩ حزيران. (HF, 189, note 39)

٦٥) معركة دورا لاييم ـ اسكي شهر ـ في اول تموز ١٠٩٧ م. ويعطي رانسيمان وصفا موجزا جيدا لها، ويضع تاريخها في ٢٩ تموز ١٠٩٧ م راجع Runciman, Crusades, I, 183 - 87

٦٦) المصدر السابق.

٦٧) في ١ تموز عام ١٠٩٧، بين ٧ ـ ٨ صباحا (HF, 197, note 7)

٦٨) يستعمل فوشيه بعض الاصطلاحات العسكرية الرومانية هنا.

٦٩) قليج ارسلان، ابن سليمان، سلطان سلاجقة الروم ١٠٩٢ ـ ١١٠٧ م.

٧٠) هذه اسماء غامضة مبهمة، ومن الممكن انها تحريف لامير كاجة وامير اتسيز.

٧١) رقم ٣٦٠,٠٠٠ يظهر في كتاب المؤلف المجهول ويعتقد ان فوشيه حصل عليه من هناك.

٧٢) في لفكي ـ راجع الفقرة الثانية

٧٣) حكاية ان اديمار لابوى سمع الاعترافات خلال المعركة، تنقضها رواية أنسليم ورواية المؤلف المجهول الذي يذكر ان اديمار كان من قادة المحاربين، وانه كان مسؤولا عن مؤخرة الجيش. (HG, IX, 2, 6, 8)

٧٤) جيش جودفري وريموند وهيوج.

٧٥) يدل هذا ان المتخلفين كانوا من مقدمة جيش بيهمند المحاصر، وليس من جيش جودفري وجماعته الذين حضروا للاغاثة.

٧٦) من الساعة ٦ ـ ٧ صباحا وحتى ١١ ـ ١٢ ظهرا. يعني الكاتب ان القوة المتقدمة كانت في خطر من الصباح حتى قدوم جيش جودفري وجماعته ما قبل الظهر حين تغير مجرى المعركة.

٧٧) وذلك مذكور ايضا في المؤلف المجهول.

٧٨) يزيد المؤلف المجهول على ذلك بقوله ان فارسين في اردية بيضاء هما الشهيدان جورج وديمتري (وهما قديسان بيزنطيان حازا على اعجاب الصليبيين) لاحقا الاتراك لمدة ثلاثة ايام.

٧٩) راجع Grousset, Histoire des Croisades, I , 36

٨٠) هذه اللائحة تدل على معرفة فوشيه بالجغرافية، ورغبته بعرض معلوماته، وهو يعني بالفرنجة مواطني شمال فرنسا، والجاليين مواطني اواسط فرنسا، واللوبروجيين مواطني دافين وسافوي، والالمان مواطني المانيا الجنوبية وسويسرا؛ والداشيين مواطني رومانيا وشرقي هنغاريا. (HF, 202, note 11)

٨١) شوهد هـذا الشهاب في اوروبـا من ٣٠ ايلول الى ١٤ تشرين الاول عام ١٠٩٧ م (HF, 204, notes 2,3)

٨٢) ١٣ - ١٦ تشرين اول (HF, 205, note 6)

٨٣) منذ هذه الفترة ١٧ تشرين اول ١٠٩٧ م، تابع فوشيه مقدرات بلدوين في مغامرته في الرهـا. ولم يكن شاهد عيان في قصة الحملة الصليبية الرئيسية، الى ان حضر بلدوين الى القدس في اواخـر عام ١١٠٠ م ليصبح ملكا. ويعني هنا بالبلاد نحو اليسار مقاطعة ارمينيا من تل باشر حتى الرها.

٨٤) واقعة طرسوس بين بلدوين وتنكريد، التي لا يكاد يذكـرها فـوشيه هنـا، دامت من اواسط ايلول حتى اواسط تشرين الاول عـام ١٠٩٧م. راجع بخصـوصها. Nicholson, "Tancred: Crusading leader and Lord of Galilee and Antioch" Chicago, U. of Chicago Libraries, 1940) 38 - 56

٨٥) تل باشر قلعة منيعة، تبعد نحو ثـلاثين ميـلا غربي معـبر نهر الفرات عنـد البيرة التي تسيـطر على الطريق بين الرها وانطاكية.

٨٦) كان حاكم الرها، طوروس، ارمنياً وقد استمد سلطته بصفته الحـاكم البيزنـطي من الامبراطـور. وكانت له في ذات الوقت علاقة تبعية مع جيرانه الاتراك. وقد احتقره شعبه لهذين السببين ولأنه كان عضوا في الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية بـدلا من كنيسة الارمن اليعـاقبة، وبسبب ضرائبـه الباهـظة وضعف جيشه. كان توقيت هذه الدعوة في اواخر كانـون الثاني او اوائـل شباط عـام ١٠٩٨ (HF, 210, note 21)

٨٧) الرها - تقع على بعد ٤٥ ميلا شرقي الفرات و ١٦٠ ميلا شمال شرقي انطاكية.

٨٨) يذكر البرت ايكس ان بلدوين ترك بمائتي فارس بينما يذكر متى الرهاوي انه وصل بستين فـارسا. (RHC, Arm, I, 36)

٨٩) اسم امير سامـوساتا بلدق واسم الامير الارمني الـذي ساعـدهم غير معـروف. ويظهـر ان هذه الحادثة وقعت قبل يومين من هجوم بلدق. (المصـدر السابق ثم RHC, OCC. IV, 353; HF 211, note 29)

٩٠) كان الاتراك قـد اخذوا الـرها في عـام ١٠٨٧ واحتلها طـوروس عام ١٠٩٤ م. (Runciman, Crusades I, 75)

٩١) زوجة طوروس كانت ابنة امير مجاور، اسمه جبريـل، حاكم مـالاتيا ولا يعـرف اسمها، اختلفت الاراء حول تاريخ وصولهم من ٤ - ٦ شباط او ٢٠ شباط او ٦ شبـاط. (HF, 213 - 214, note 36)

٩٢) اختصار فوشيه لهذه الوقائع مخيب للآمال حقا. ومن المحتمل انه لم يستطع تبريـر فشل بلدوين في حماية طوروس او قبوله بالاستفادة من مقتله. ولذا فإنه لم يحاول. تمت جريمة القتل في ٩ آذار. (يود المعرب ان يلفت نظر القارىء العربي للتمويه الفاضح والتجني على الحقيقة الذي يظهـر اولا في نص فوشيه الاصلي في هذه الفقـرة، ثم في الشرح الذي اورده المعلق عـلى الترجمـة الانجليزيـة هنا. فمن الواضح ان بلدوين تـآمر عـلى طوروس الارمني وأودى بـه ثم استلم عرشـه. ولكن هذين الكـاتبين يلومان بلدوين "لانه فشل في حماية طوروس!". والتاريخ المعاصر حافل بالامثلة المشابهة في التمـويه والدجل).

٩٣) وصـل الفرنجـة الى انطاكيـة في ٢٠ - ٢١ تشرين اول ١٠٩٧ م، وكـان قـد شيـدهـا سلوكـوس نيكاتر، وهـو جنرال سابق في جيش الاسكندر الكبـير، حوالى ٣٠٠ ق.م. وقـد كرر فـوشيه خـطأ سنت جيروم بأن ربلاطا (ربلاح) قرب حماة هي انطاكية. (HF, 216, note 5; 710 note 29)

٩٤) بوسع فوشيه ان يشهد بمناعة المدينة اذ انه دخلها في عام ١١٠٠ م.

٩٥) يذكر المؤلف المجهول ان القديس بطرس انشأ كنيسة انطاكية، ويذكر كنيسة بطرس عدة مرات. (HG, XI, 7) راجع: Downey, A History of Antioch in Syria, Princeton U. Press, 1961

٩٦) يذكر المؤلف المجهول كنيسة القديسة مريم مرتين - راجع المرجع السابق.

٩٧) لقد طمرت القناة مع الزمن بسبب الطمي والزلازل، وحتى في تلك الفترة كان ميناء سنت سيمون على مصب نهر العاصي يستعمل بدل القناة. راجع المرجع السابق.

٩٨) انظر الخريطة الممتازة في رنسيمان.

٩٩) حصل فوشيه على هذه الاسماء من رسالة ستيفين بلوا المؤرخة في ٢٨ اذار ١٠٩٨ م. اوكسيانوس هو ياغي سيان، حاكم انطاكية التركي، وسانكسادو هو ابنه شمس الدولة. وقد كانت بعثة هذا الاخير الى دقاق امير دمشق وليس للسلطان السلجوقي برقيارق (١٠٩٤ - ١١٠٥ م) الذي دعاه فوشيه "بأمبراطور فارس" التي هي في خراسان البعيد. (Runciman, I, 213 - 215)

١٠٠) هذه اشارة الى حملة ضد قلعة تركية مجاورة تدعى حارم (حارنك) في اواسط تشرين الثاني ١٠٩٧ م، ورقم سبعمائة، الذي يذكره فوشيه هنا، تناهى اليه بالسماع. (HF, 211, note 30)

١٠١) يذكر فوشيه هنا اسم آلتين لرمي القذائف يجوز تسميتها معا بالمجانيق لتشابهها. (HF, 221, note 32)

١٠٢) بدأ الفرنجة يستنفدون مؤونتهم من الطعام في اواخر هذا العام (RHC, OCC. III, 243)

١٠٣) يذكر المؤلف المجهول ان الاسقف اديمار هو الذي تسبب في طرد النساء (RHC, OCC. III, 499)

١٠٤) حصلت المظاهر الضوئية والزلزلة يوم ٣٠ كانون اول عام ١٠٩٧ م. كما يذكر ريموند اجيليرز. ومن المحتمل ان العلامة في السماء كانت ضمن هذه المظاهر الضوئية (HF, 244, note 48)

١٠٥) يذكر المؤلف المجهول ان بعض الفرنجة اكلوا لحم الشرقيين، المسلمين القتلى. (RHC, OCC. III, 498)

١٠٦) انظر رسالة بيهمند والامراء للبابا اوربان الثاني في ١١ ايلول ١٠٩٨ م فيما يتبع.

١٠٧) كتب فوشيه هذا الفصل قبل ان يعرف بموت ستيفن في الرملة في ١٩ ايار ١١٠٢ م. ويحذف فوشيه الجملة المحرجة التي ذكرها المؤلف المجهول ان ستيفن قابل الامبراطور الكسيس في اكشهير ونصحه بالعودة وقد هرب ستيفن يوم ٢ حزيران وسقطت انطاكية في اليوم التالي. (HF, 228, note 22)

١٠٨) ٢٠ تشرين اول ١٠٩٧ م. الى ٣ حزيران ١٠٩٨ م.

١٠٩) قد تكون هذه اشارة لاشتباكات جرت في ١٨ تشرين الثاني ١٠٩٧ او ٦ آذار ١٠٩٨ م. (HF, 229, note 28)

١١٠) هذه القلاع هي قلعة ماريجارد شرقي انطاكية وقلعة المحمورية (المحمدية) شمالي المدينة، وقلعة تنكريد غربا. (HF, 229, note 29)

١١١) هذا الرجل، الذي يعيد ذكرة فوشيه مرة ثانية، هو ارمني اعتنق الاسلام يدعى فيروز، ويظهر انه انحدر من عائلة صانعي سلاح. وقد أورد ذكره ابن الاثير وابن القلانسي.

١١٢) ياغي سيان.

١١٣) مصدر هذه الرواية الاصلي هو فوشيه.

١١٤) CF, HG, XX, 4, 6, 7

١١٥) كان الوقت بعد الثالثة صباحا يوم ٣ حزيران ١٠٩٨ م. (HG 301, note 37)

١١٦) كانت القلعة تقع على سفح جبل سيلبيس جنوب غربي المدينة. (Runciman, Crusades I, map on p. 214)

١١٧) تذكر جميع المصادر المسيحية تقريبا (ومنها المؤلف المجهول) ومصدر مسلم واحد هو ابن الاثير قصة اكتشاف الحربة. وترد اكثر التفاصيل بما فيها قصة المحنة والتحكيم الالهي في رواية ريموند اجيليرز (RHC, OCC. III, 253 - 57, 262-70, 279 - 88)

١١٨) وجد الحربة فلاح يدعى بارتلميو يوم ١٤ حزيران ١٠٩٨ بعد سقوط انطاكية بأحد عشر يوما.

١١٩) راجع عن لونجينوس HEP 346, note 40

١٢٠) اي الى اواخر ايلول ١٠٩٨ م.

١٢١) يوم ٢٠ نيسان ١٠٩٩ م (HF 240, note 13)

١٢٢) حتى حملة عام ١١٠١ م في بلاد الاناضول. (HF, 241, note 14)

١٢٣) كربوقا، اتابك الموصل الطموح، كان نظريا يمثل السلطان السلجوقي برقيارق الذي كان آنذاك في خراسان. راجع (Runciman, Crusade I 203 - 30).

١٢٤) كان فوشيه انذاك في الرها، ولا بد انه حضر الحصار ولكنه للاسف لا يذكر اكثر من ذلك. دام الحصار من ٤ الى ٢٥ ايار ١٠٩٨ م. (HF, 243, note 8)

١٢٥) راجع (RHC, OCC, III, 252)

١٢٦) كانت هذه القلعة على جبل سيلبيس، ورقم ٦٠,٠٠٠ المذكور هنا خيالي. دخل الاتراك في بعض اجزاء المدينة من ٨ - ١٤ حزيران (HF 244, notes 12, 13)

١٢٧) راجع (RHC, OCC. III, 255 - 57)

١٢٨) راجع رواية فرار وليم دي جرانت مستيل وغيره ليلة ١٠ - ١١ حزيران ١٠٩٨ م (RHC, OCC. III, 256)

١٢٩) تذكر جميع المصادر تقريبا سيرة القحط والجوع، وترد قصة صيام الثلاثة ايام في المؤلف المجهول.

١٣٠) حصلت بعثة بطرس الناسك في ٢٧ حزيران ١٠٩٨ م. (RHC, OCC. III 259)

١٣١) تقرير فوشيه لعدد الاتراك كان أشد مبالغة في نسخته الاولى ٦٠٠,٠٠٠ (HF, 249, note c)

١٣٢) كربوقا، اتابك الموصل، وشمس الدولة دقاق (١٠٩٥ - ١١٠٤ م) من دمشق، والامير سليمان والمعتقد انه ابن الغازي. ترك فوشيه اسماء ثلاثين قائدا تركيا في صيغة مشوهة في نسخته الاولى (HF, 250, note d).

١٣٣) يظهر ان فوشيه اخذ كثيرا من مادة هذا الفصل من رواية ريموند اوف اجيليرز، مع بعض الحذف والتحريف. (RHC, OCC. III, 259 - 60)

١٣٤) ٢٨ تموز ١٠٩٨ م.

١٣٥) محاولة شعرية لفوشيه.

١٣٦) لم يذكر فوشيه استعمال الحربة المقدسة كاداة لرفع المعنويات هنا، اذ انه كان يشك بصحتها.

١٣٧) (Raymond, RHC, OCC. III, 260, 61)

١٣٨) هنا يدبّج ويزخرف فوشيه رواية المؤلف المجهول عن الغنائم.

١٣٩) (RHC, OCC. III, 261)

١٤٠) (HG, XXIX, 9)

١٤١) يخطىء فوشيه في توقيت سقوط المدينة يوم ٤ حزيران بدل يوم ٣ حزيران على انه يذكر التاريخ الصحيح في المستقبل.

١٤٢) ١ آب ١٠٩٨ م.

١٤٣) كان هيوج قد بعث في اوائل تموز ليعرض انطاكية على الامبراطور الكسيس اذا ما قدم هذا المساعدة كما كان متفقا عليه. ولكن الامبراطور لم يفعل ذلك.

١٤٤) في هذا الموقع من الكتاب، ادخل فوشيه في النسخة الاولى فقط من كتابه، رسالة غريبة يفترض انها تقرير للبابا اوربان الثاني من امراء الصليبيين من انطاكية تاريخها ١١ ايلول ١٠٩٨ م. وقد نددت بالاغريق والمسيحيين الشرقيين، كهراطقة، وحثت اوربان ان يجعل انطاكية مركزا له، يقود منها الصليبيين الى كنيسة القيامة. وواضح ان الاستجابة لهذه الدعوة المذهلة كادت تدمر العلاقات الودية مع مسيحيي الشرق التي حاول اوربان ان ينميها في كليرمونت.

يظهر ان هذه الرسالة كتبت بايحاء من بيهمند، الذي اختير الاول بين الامراء، وقد يكون كاتبها هو المؤلف المجهول الذي كان معجبا ببيهمند او شخصا آخر مطلع على كتابة المؤلف المجهول، وهذا هو الارجح. وفيها تظهر خطة بيهمند ان يوظف الحملة الصليبية لفائدته الشخصية بالانفصال عن الاغريقيين، والاستيلاء على انطاكية لنفسه. ولا نعرف رأي اوربان بهذه الرسالة الغريبة، فقد مات قبل ان يقوم بأي عمل. راجع Yew dale, Bohemond 49 - 84

ويظهر ان فوشيه لم يستعمل هذه الرسالة كمصدر لمعلومات الفصل السابق وانما استند الى المؤلف المجهول وريموند اجليرز. لماذا اذن ادخلها في نص كتابه؟ ربما لانه في ١١٠٥ ـ ١١٠٦ م اعتقد انه بادخالها قد يعطي بيهمند الدفع اللازم لحملة صليبية اخرى. اما بعد عدة سنوات، عندما كان يكتب النسخة الثانية، فلا بد انه اعتقد ان هذه الرسالة لم تكن ضرورية فحذفها.

١٤٥) يوستاس الثالث، الاخ الاكبر لجودفري وبولدوين وقد عاد الى دياره بعد الحملة.

١٤٦) HG XXi, I

١٤٧) ١٩ حزيران ١٠٩٧ م

١٤٨) ١ تموز ١٠٩٧ م

١٤٩) ٢٠ ـ ٢١ تشرين اول ١٠٩٧ م

١٥٠) كان قائد القلعة احمد بن مروان. راجع كمال الدين، وراجع ايضا رانسيمان. (Crusades I, 319-23)

١٥١) هذه الارقام وهمية (HF, 262, note 15)

١٥٢) توجد صورة ممتازة وخارطة طبوغرافية لهذا المرتفع في Downey, Antioch

١٥٣) راجع HG, XXiii, 4

١٥٤) راجع HEP 346, note 40

١٥٥) ٢٨ حزيران ١٠٩٨ م.

١٥٦) يلخص فوشيه في هذا الفصل تاريخ جيش الحملة الاساسي من انطاكية الى القدس، ٢٨ حزيران الى ٧ تموز ١٠٩٨ م.

١٥٧) اثر هزيمة كربوقا، في ٢٨ حزيران ١٠٩٨ م ارسل امراء الصليبيين الى الامبراطور الكسيس يعرضون عليه ان يمتلك انطاكية اذا ما انضم اليهم بتاريخ ١ تشرين الثاني. اراد بيهمند وريموند تأجيل الزحف الى القدس، اذ ان بيهمند كان يأمل بامتلاك انطاكية لنفسه بينما اراد ريموند ان يدافع عن حقوق الامبراطور الكسيس (Raymond, RHC, OCC. III, 262, 266 - 67)

١٥٨) هما البحرة وتبعد اثنين واربعين ميلا جنوب شرقي انطاكية ومعرة النعمان، وتبعد ثمانية اميال شرقي البحرة. احتل الاولى الكونت ريموند في ٢٥ ايلول ١٠٩٨م واحتل الثانية ريموند وبيهمند في ١١ كانون الاول ١٠٩٨م.

١٥٩) راجع بخصوص اكل لحوم البشر (Raymond RHC, OCC. III, 271)

١٦٠) راجع (Raymond, RHC, OCC. III, 286)

١٦١) يحدد المؤلف المجهول تاريخ رحيل الكونت ريموند يوم ١٣ كانون الثاني ١٠٩٩م ,HChr) (339. راجع عن تنكريد المرجع السابق ص ٢٧٢.

١٦٢) وصلوا عرقة، التي تبعد ثلاثة عشر ميلا شمال غربي طرابلس في حوالى ١٤ شباط ١٠٩٩ م وطال الحصار لمدة اثني عشر اسبوعا ونصف، لا خمسة اسابيع كما يذكر فوشيه، من ١٤ شباط الى ١٣ ايار م (HF, 269, note 18)

١٦٣) تقع جبالا على بعد اربعة عشر ميلا جنوبي اللاذقية وقد قتل انسيلم يوم ٢٥ شباط ١٠٩٩ م

١٦٤) راجع (HG, XXXV, 4)

١٦٥) استعان فوشيه بالمؤلف المجهول اكثر من ريموند اجيلرز في كتابة هذا الفصل. وتوقيت الاحداث من عرقة الى صور ١٣ - ٢٣ ايار. اخطأ فوشيه في فهم نص المؤلف المجهول واعتقد ان الوقت كان نيسان. (HG XXXV, 4; HF, 271, note 25). جبيل (بيبلوس) تقع على بعد عشرين ميلا شمالي بيروت، وساربيتا التي لم يذكرها المؤلف المجهول ولا ريموند تبعد عشرة اميال جنوبي صيدا.

١٦٦) الزف او الزب - ورد اسمها في التوارة اشزب، ويسميها يوسفوس عكا، وهي تبعد حوالى تسعة اميال شمال عكا.

بطولومي - اكون - اكو - واسمها المعاصر عكا. اما اكارون فهي تبعد اربعة اميال شرقي يبنه (جمنيا) التي سماها الفرنجة ابلين والمسافة ذاتها عن البحر المتوسط وكلتاهما تبعدان حوالى عشرة اميال شمال شرقي اشدود وقد اخطأ فوشيه في وضع اكارون بين يبنه واشدود.

(HF, 274, note 33 and 706, note 6)

١٦٧) اعتمد فوشيه في ذكر الحوادث التي جرت في الرملة على المؤلف المجهول وريموند اجيلرز وهو المصدر الاساسي عن طول فترة بقائهم هناك (٢ - ٦ حزيران ١٠٩٩ م) (HG XXXVi, 4). الاسقف الذي تم اختياره للرملة هو روبيرت اوف روين (راجع RHC, OCC. iii, 272). ايماوس هي عمواس وتبعد سبعة اميال جنوبي مودين وخمسة عشر ميلا غربي القدس.

١٦٨) بلدوين لي بورج، وهو قريب بلدوين الاول، وخلفه اولا في ولاية الرها عام ١١٠٠م ثم عندما اصبح ملكا للقدس عام ١١١٨م واتخذ اسم بلدوين الثاني.

١٦٩) فوشيه هو المصدر الثقة عن حوادث بيت لحم.

١٧٠) صحح فوشيه للمؤلف المجهول الذي ذكر ان الحصار بدأ في ٦ حزيران

١٧١) راجع الخريطة الممتازة للقدس في القرن الثاني عشر M. Join-Lambert "Jerusalem" New York, Butram and Sons, 1958

١٧٢) قبة الصخرة، المسجد العظيم المثمن الاضلاع بناه الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٦٩١ هـ فوق الصخرة المقدسة التي صعد منها النبي محمد (ﷺ) الى السماء في اسرائه الليلي - انظر (القرآن الكريم - سورة الاسراء والمعراج).

١٧٣) انظر الرسم الايضاحي وصورة فوتوغرافية للفتحة في كتاب. "Join-Lambert "Jerusalem

١٧٤) قد تدل هذه الجملة على ان فوشيه كان قسيس الملك بلدوين الاول لمدة خمس عشرة سنة، مما اتاح له الدخول الى الهيكل في تلك الفترة.

١٧٥) المسجد الاقصى، ثالث الحرمين، وسبب التلف الذي لحق به ان الملك بلدوين الاول نزع الرصاص عن سقفه وباعه (يذكر فوشيه ذلك في نسخته الاولى فقط) واصبح فيما بعد مركز قيادة الفرسان الهيكليين. ويذكر وليم الصوري أنه كان قصرا ملكيا في فترة من الزمن. (HF, 291)

١٧٦) الامبراطور الروماني هادريان ١١٧ ـ ١٣٨م

١٧٧) يتبع المؤلف المجهول، وريموند اجيلرز في قصة احتلال القدس مضيفا بعض التفاصيل وحاذفا اكثر رغبة منه في الاختصار. (Raymond, RHC, OCC. III, 293-300)

١٧٨) ١٣ حزيران ١٠٩٩ م.

١٧٩) تم التشاور في مؤتمر عقد في ١٥ حزيران ١٠٩٩ م. (H Chr. 391)

١٨٠) يذكر المؤلف المجهول وريموند انه كان هناك نقص في الطعام ايضا. ويتفقان على وجود نقص في المياه. (Raymond RHC, OCC. III, 293-94)

١٨١) يذكر المؤلف المجهول ان البرج (برج جودفري) نقل ليلة التاسع من تموز.

١٨٢) يذكر المؤلف المجهول ان القتال استمر يومين قبل الهجوم الاخير.

١٨٣) هذه التفاصيل مصدرها فوشيه.

١٨٤) يوم الجمعة ١٥ تموز ١٠٩٩ م. (H Chr. 405)

١٨٥) يشير فوشيه في مكان آخر لوجود احباش في الخدمة المصرية، مرة كرجال سود، ومرة اخرى كمشاة. وقد ميز بينهم وبين من هم من اصل عربي.

١٨٦) يعتمد فوشيه جزئيا على المؤلف المجهول وريموند الا انه يضيف بعض التفاصيل الاصلية. وتعطي كل الروايات جوانب مختلفة ولكن مفصلة وصورية عن المذبحة الوحشية حول المسجد الاقصى (RHC, OCC. III, 300)

١٨٧) فوشيه هو المصدر الاساسي لهذه التفاصيل التي تقشعر لها الابدان (RHC, OCC, III, 516)

١٨٨) رواية فوشيه بأن تنكريد اعاد الاسلاب مشكوك فيها.

١٨٩) Ovid, Metam, Vii, 585, 586

١٩٠) راجع Raymond, RHC, OCC. III, 222; HF 304, note 2

١٩١) راجع المرجع السابق

١٩٢) تدل اشارة فوشيه لجودفري على انه امير، على انهم لم يختاروه ملكا بل حاميا للبلاد. وقد تم ذلك بسبب اعتراض الكونت ريموند وبعض رجال الكهنوت. (RHC, OCC. III, 301)

١٩٣) يذكر البيرت ايكس ان عشرين شريعة وضعت. (HF, 308, note 6)

١٩٤) يذكر المؤلف المجهول وريموند ان ارنولف قد اختير بطريركا بينما يدعم فوشيه النظرية القائلة ان ذلك من اختصاص البابا اوربان. ولا بد ان شخصا آخر، غير فوشيه، قد كتب عنوان هذا الفصل الذي يذكر تنصيب ملك وبطريرك.

١٩٥) راجع (RHC, OCC. II, 300)

١٩٦) يذكر ريموند اجيلرز ان هذا الذخر الاثري قد عثر عليه بجهد من ارنولف.

١٩٧) كان الفرنجة يسمون القاهرة بابل والملك المشار اليه هو الخليفة الفاطمي التاسع المستعلي (١٠٩٤ ـ ١١٠١ م) ولافيد اليوس هو الوزير الافضل شاهنشاه (١٠٩٤ ـ ١١٢١ م) الداهية الذي كان هو القوة الفعلية وراء العرش. (Setton, ed., Crusades I, 94 - 98)

١٩٨) رواية فوشيه لمعركة عسقلان في ١٢ آب ١٠٩٩ م مأخوذة من رواية المؤلف المجهول وريموند اجيلرز.

١٩٩) يذكر ريموند انهم حملوا الحربة المقدسة عوضا عن الصليب المقدس. (RHC, OCC. III, 303)

٢٠٠) في ١١ آب ١٠٩٩ (H Chr. 420)

٢٠١) راجع Raymond, RHC, OCC. III, 304

٢٠٢) هذه التفاصيل اصيلة في فوشيه.

٢٠٣) هذه التفاصيل اصيلة في فوشيه.

٢٠٤) مسيرة يوم ونصف.

٢٠٥) هذه التفاصيل اصيلة في فوشية.

٢٠٦) Raymond, RHC, OCC. III, 303 HG, XXXIX, 20

٢٠٧) راجع بخصوص حدائق ابراهيم HF, 320, note 2

٢٠٩) يمر فوشيه هنا مر الكرام على حادثة شديدة القبح اذ ان روبيرت النورماندي وروبيرت فلاندرز وريموند سنت جيل وجدوا بيهمند والاسقف ديمبرت اوف بيزا، وكلاهما من الصليبيين، وقد ضربا حصارا مشينا على البيزنطيين اخوانهم في الدين في مدينة اللاذقية. وقد اجبر هؤلاء المحاصرين على الانسحاب. (Hill and Hill "Raymond IV", 144-45)

٢١٠) يظهر ان فوشيه تأثر للانتقاد الموجه الى بيهمند وبلدوين، فقدم هنا تبريرا لتأخرهما بينما تابع الجيش الرئيسي تقدمه الى القدس واحتلها.

٢١١) هذه الحملة غير معروفة.

٢١٢) تقع بانياس على الساحل جنوبي اللاذقية وكان بيهمند وديمبرت تخلفا في المنطقة بعد فشل هجومهما على البيزنطيين في اللاذقية.

٢١٣) وصل الاسقف ديمبرت من بيزا، وهو رجل عظيم النفوذ في مدينته وفي الاوساط البابوية الى سواحل سوريا في اواسط آب في اسطول من بيزا يقال انه تجاوز الـ ١٢٠ سفينة، وبسبب المنافسة التجارية بين بيزا وبيزنطية فقد اعمل السلب والنهب بأملاك البيزنطيين وهو مبحر شرقا. وسارع بالانضمام الى بيهمند في هجومه على الاغريقيين في اللاذقية. وكان ديمبرت جاهزا لمغامرات اخرى معتمدا على اسطول قوي يستند اليه. (HF, 327, notes 24, 25)

٢١٤) هذا التقدير مبالغ فيه على الارجح.

٢١٥) قصب السكر.

٢١٦) حكم طرابلس والقيصرية امراء عرب تابعون اسميا للخليفة الفاطمي في القاهرة، ولم يأخذوا جانب الاتراك الذين تبعوا خليفة بغداد العباسي، وأملوا ان يتركهم الفرنجة لحالهم كما فعلوا سابقا في مطلع تلك السنة. راجع Gibb, "The Caliphate and the Arab States" in Setton, (ed) Crusades I, 89-98

٢١٧) في مطلع الشتاء ٢١ كانون اول ١٠٩٩ م.

٢١٨) الساعة التاسعة من صباح يوم ٢٥ كانون الاول.

٢١٩) كان ارنوف شوك قد اختير بطريركا في ١ آب ١٠٩٩م. مع ان فوشيه لم يدون هذه الحقيقة. وقد اختير ديمبرت بسبب سمعته، وبسبب اسطول بيزا وبدعم من بيهمند، وقد اراد هذا وثيقة شرعية بامتلاك انطاكية من بطريرك القدس اللاتيني يدحض بها ادعاءات الامبراطور الكسيس. ويظهر ان ديمبرت لم يكن مرشحا للبطركية بل كان مطرانا طموحا رأى فرصة فانتهزها. اما ارنوف الذي كان في موقف ضعيف فقد تنحى. Fink in Setton (ed.) Crusades I, 377-78

٢٢٠) توفي اوربان يوم ٢٩ تموز ١٠٩٩ م والتاريخ الذي يذكره فوشيه غير صحيح. HF, 344, note 56

٢٢١) يبدأ فوشيه عامه عادة بتاريخ ٢٥ كانون الاول، ولكن يظهر انه بدأ هذا العام بأول كانون الثاني ويظهر ان الفرنجة استراحوا بعد عيد الميلاد سنة ١٠٩٩ م وانتخبوا ديمبرت ثم نزلوا الى نهر الاردن (H Chr. 441)

٢٢٢) بحيرة طبريا، طولها ثلاثة عشر ميلا وعرضها سبعة اميال بالمقاييس العصرية.

٢٢٣) يطفو الاسفلت في بعض الاحيان على سطح هذه البحيرة.

٢٢٤) راجع عاموس ٨: ١٤

"الذين يحلفون بذنب السامرة ويقولون حي الهك يا دان، وحية طريقة بئر سبع فيسقطون ولا يقومون بعد".

٢٢٥) هذه الفكرة من جيروم في متى ١٦ : ١٣.

وبانياس هي مدينة بانياس المعاصرة وتبعد ثمانية وعشرين ميلا شمالي بحيرة طبريا.

٢٢٦) يخطىء فوشيه هنا، فهو بالتأكيد لم يمر بتدمر (بالميرا)، الواحة الشهيرة التي تبعد مائة واربعين ميلا شمال شرقي دمشق. وقد اساء فهم التوراة اذ ذكر ان سليمان انشأ تدمر وبعالات وهي ليست بعلبك.

٢٢٧) كان هؤلاء المحاربون تابعين لشمس الملك دقماق امير دمشق.

٢٢٨) معلومات فوشيه اصيلة هنا ولكنها ضئيلة.

٢٢٩) في اواخر كانون الثاني ١١٠٠ م (II CHr. 446)

٢٣٠) مدينة ملطية المعاصرة، وتبعد تسعين ميلا عن الرها (اوديسا).

٢٣١) جبريل (خوريل) هو امير ارمني حكم ميليتين حتى عام ١١٠٣ م. وقد كان والد زوجة طوروس حاكم الرها. ثم والد زوجه بلدوين الثاني الذي حكم الرها ايضا.

٢٣٢) الملك غازي كمشتكين بن دانشمند وهو سلجوقي حكم جزءا كبيرا من داخل بلاد الاناضول (١٠٩٧ - ١١٠٥ م)

٢٣٣) حوالى ١٥ آب ١١٠٠ م. (II Chr. 495)

٢٣٤) ٢٧ - ٣٠ آب ١١٠٠ م (HF 348, note 16)

٢٣٥) وقعت هذه الحوادث في اوائل ايلول على الارجح قبل ان يسمع بلدوين بوفاة اخيه جودفري وقد سمع بلدوين بذلك يوم ١٢ ايلول II Chr 499

٢٣٦) لم يكتب فوشيه عنوان هذا الفصل اذ ان جودفري لم يحمل لقب ملك.

٢٣٧) ١٨ تموز ١١٠٠ م (HF, 351, note 6)

الكتاب الثاني

هنا يبدأ الكتاب الثاني من اعمال الملك بلدوين الاول

كيف حضر بلدوين ليحكم القدس

١) عندما أعلم اللورد بلدوين أن أهل القدس برمتهم[١] توقعوا ان يتولى حكم المملكة بصفته الوريث الشرعي للامارة[٢]، أصابه شيء من الحزن لوفاة شقيقه، ولكنه فرح أكثر لميراثه. وبعد عقد المشاورات منح البلاد التي لبلدوين لابن عمه[٣]. ثم جمع جيشه الضئيل الذي لم يتجاوز عدده مئتي فارس وسبعمائة راجل، وشرع في رحلته الى القدس في الثاني من تشرين الاول.[٤]

٢) وقد تعجب البعض لجرأته على اجتياز كل تلك البلاد المعادية بعدد ضئيل من الرجال. وأصاب الخوف والهلع الكثيرين فانسحبوا خلسة من مرافقتنا دون علم منا.

٣) ثم لما اكتشف الاتراك والشرقيون اننا نزمع على القيام بهذه الرحلة، جمعوا من رجالهم ما استطاعوا، وأتوا الينا مسلحين ليوقعوا بنا أكثر ما امكنهم من الخسائر.

٤) مررنا بانطاكية[٥]، ثم اجتزنا اللاذقية، وجبيل ومرقليا وطرطوس وعرقة ووصلنا الى طرابلس.[٦]

٥) أرسل أمير طرابلس في ذلك الوقت لخيمة اللورد بلدوين الخبز والخمر والعسل المصفى وأكباش الضأن المطهية. وأعلم بلدوين ان دقاق امير دمشق، وجناح الدولة امير حلب، كانا في انتظاره في جمع من الاتراك والشرقيين والعرب في الطريق التي ظنوا انه سيسلكها. ومع اننا لم نصدق زعمه تماما، الا اننا علمنا فيما بعد انه كان صادقا.[٧]

الكمين الذي نصبه الاتراك، ومهارة الكونت بلدوين العسكرية الفائقة

١) على مقربة من مدينة بيروت، وعلى بعد حوالى خمسة أميال، يقع ممر شديد الضيق في الطريق العام المحاذي للبحر.[٨] ولم يكن بوسعنا، او بوسع أي

كان اجتيازه اذا ما اراد عدو مزود بالطعام ان يمنع عبوره. ولو اراد مائة الف جندي ان يعبروه لما استطاعوا اذا ما قاومهم مائة او حتى ستون مقاتلا صمموا على الصمود هناك. ولذلك خطط اعداؤنا ان يطوقونا هنا من جميع الجهات ويفتكوا بنا. وفي هذا الوقت وصلنا ذاك المكان.

٢) عندما قاربت طلائع حراسنا هذا الممر الضيق، شاهد رجالنا اتراكا انفصلوا عن الآخرين، يتقدمون ويستطلعون نحونا. ولما رآهم كشافتنا اعتقدوا ان عددا أكبر بكثير منهم كان مختبئا في كمين خلفهم. وما ان رأوا ذلك حتى ارسلوا رسولا اعلم اللورد بلدوين على الفور.

٣) لما علم بلدوين بذلك أمر رجاله بأن ينتظموا للمعركة. وتقدمنا نحو العدو خطوة خطوة، وراياتنا مرفوعة. ولما اعتقدنا ان المعركة سوف تنشب، سجدنا للصلاة، بقلوب خاشعة طاهرة، وطلبنا العون من السماء. وقابلت طليعتنا الاعداء فردا فردا وقتل عدد منهم على الفور، ولم نفقد الا اربعة من رجالنا.

٤) وعندما توقف القتال عقدنا المشاورات، وصدرت الاوامر ان ننقل معسكرنا الى اقرب موقع من العدو. فلم نشأ ان نبدو خائفين ان تخلينا عن الموقع وكأننا في فرار فتظاهرنا بشيء وفكرنا بشيء آخر. وتصنعنا الجرأة ولكننا خشينا الموت. وصعب علينا التراجع ولكن التقدم كان أصعب. حاصرنا العدو من جميع النواحي، فمن ناحية كان اولئك الذين اتوا في القوارب من البحر، ومن ناحية اخرى كان اخرون يشنون الهجمات المتتابعة علينا من جروف التلال. فكان ذاك يوما بائسا علينا(٩)، ولم نقدر ان نستريح ولا ان نسقي دوابنا التي هدها العطش. والحق أقول انني تمنيت من كل قلبي لو كنت في شارتر او اوريلنز، وكذلك تمنى الآخرون. وقضينا تلك الليلة ساهرين خارج خيامنا وقد فترت عزيمتنا.

٥) وفي الفجر، عندما بدأت الشمس تزيح الظلمة عن وجه الارض، وبعد أن تباحثنا في أن نقاوم او نموت، قررنا أن نجمع خيامنا ونرجع على اعقابنا من حيث اتينا. فحمل رجال التجهيز امتعتنا على ظهور الدواب ليسبقونا بالمسيرة، وتخلف الفرسان ليقاوموا الشرقيين المهاجمين.

٦) وعلى ضوء الصباح، عندما رأى الاتراك عليهم اللعنة، اننا بدأنا بالتراجع، نزلوا على الفور من المرتفعات وبدأوا يطاردوننا ونحن شاردون. فقادونا في الممر الضيق، كما تقاد قطعان الماشية، وقد أتى بعضهم من القوارب في البحر وبعضهم من خلفنا في الطريق، والبعض الآخر من التلال

والجبال حولنا، مشاة وفرسانا. وأرادوا ان يفصلونا عن موقع منبسط في مخرج الممر، حيث اشتد ضيقه بين البحر والجرف لكي يوقفونا ويقتلونا.[١٠] ولكن الامور لم تجر على ما اشتهوا.

٧) اذ ان رجالنا صمدوا قائلين بعضهم لبعض "اذا ما استطعنا ان نوقف مطاردينا في ذلك الموقع المنبسط، فلعلنا بعون الله نستطيع ان نحمل عليهم، وان قاتلنا بضراوة، ننفصل عنهم ونمضي".

معركة الاستقتال اليائسة ضد الاتراك

١) في تلك الاثناء، كان الاتراك يقفزون من القوارب، قاطعين رؤوس المتهورين الذين تجولوا قرب الماء، ثم اندفعوا نحونا في الموقع المنبسط المذكور، فقاذفيننا بالسهام، ووبخونا من جميع النواحي، وهم يصرخون وينبحون كالكلاب او كالذئاب وسيوفهم مسلولة.

"فلا استطاع سليمان الحكيم ولا شمشون الجبار، ان ينتصرا"

٢) ولكن رب القوة والرحمة الواسعة، اذ أطلّ من سمائه على الارض، رأى خضوعنا والمحنة الكبرى التي ألمت بنا لمحبته وفي طاعته. فتحركت رحمته الابدية، التي يساعد فيها قومه بحق دوماً، ومنح رجالنا أسمى درجات الشجاعة فارتدوا على اعدائهم ودحروهم وأجبروهم على الفرار في طريق مثلث الشعب[١١] وما توقف هؤلاء ابدا ليفكروا في الدفاع عن انفسهم. ففر بعضهم الى المرتفعات الجبلية الوعرة، وبعضهم الى ملاجىء يأمنون فيها، بينما لاحقنا البعض الآخر وأبدناهم بحد السيف. وكنت ترى بعضهم وقد هرولوا الى قواربهم وركبوا البحر كما لو كنا سنتخاطفهم بأيدينا. وفر آخرون لا يلوون على شيء يتسلقون الجبال والتلال.

٣) ثم عدنا الى رجال التجهيز الذين كانوا يحرسون الدواب المحملة في الطريق وقد ملأتنا النشوة والبهجة لهذا النصر المبين. وقدمنا آنذاك جزيل شكرنا لله، الذي منحنا معونته الوافرة في تلك المحنة الطارئة المفعمة بالمخاطر.

٤) ما أعجب تدبير الله: كم هي معجزة وجديرة بالذكرى، فقد كنا مهزومين

ولكننا بعد هزيمتنا اصبحنا منتصرين. ولكننا انفسنا لم ننتصر. وكيف لم ننتصر؟ ان الذي انتصر هو وحده خالق الجميع الشامل القدرة، الذي اعان مخلوقاته برحمته. "ان كان الله معنا فمن علينا" (رومية ٨: ٣١) حقا لقد تم لنا، ومعنا وبنا ما قاله الله لبني اسرائيل عن طريق الانبياء "اذا سلكتم في فرائضي وحفظتم وصاياي وعملتم بها يطرد خمسة منكم مئة، مئة منكم يطردون ربوة ويسقط اعداؤكم امامكم بالسيف. والتفت اليكم وأثمّركم وأكثركم وأفي ميثاقي معكم" (لاويين٢٦: ٢، ٨: ٩) ولأننا تحملنا كثيرا من المشقات في خدمته ليلا ونهارا فإنه بأعجوبة كسر شوكة الاعداء. ولأننا خدمناه بقلوب خاشعة في محنتنا فقد نظر بعين الاعتبار لخضوعنا.

٥) ثم صدرت الاوامر بنصب الخيام، وأحضر كثير من اثرياء الاتراك الذين أسروا احياء امام اللورد بلدوين ومعهم اسلحة القتلى. وأخذنا جيادا بسروج مذهبة.

٦) في صباح اليوم التالي[١٢] وكأننا نتبع خطة محكمة، رجعنا أربعة أميال في الطريق. وعندما وزع الامراء الاسلاب هناك، استرحنا تلك الليلة تحت أشجار الزيتون في أجمة قلعة مهجورة.[١٣]

٧) في مطلع نهار اليوم التالي، اخذ بلدوين بشجاعته المعهودة بعض الفرسان ثم ركب الى الممر الضيق الذي ذكرناه ليرى اذا ما كان الشرقيون الذين سدوا طريقنا في السابق قد بقوا هناك. ولما لم يجد احدا منهم، اذ انهم فروا جميعا لما سمعوا بما وقع من الهزيمة والتشتيت، سجد حمدا لله، وأمر باشعال نار على قمة الجبل. وكانت تلك اشارة لمن تخلف في المعسكر منا لنسارع باللحاق بمن سبق. ولما شاهدناها حمدنا الله وأسرعنا في اللحاق. ووجدنا الطريق مفتوحة أمامنا وأتممنا الرحلة كما اشتهينا.

٨) نصبنا معسكرنا قرب مدينة بيروت في تلك الليلة. وعندما علم أمير هذه المدينة[١٤] بوجودنا ارسل قوارب مليئة بالطعام يوميا للورد بلدوين. وكانت تلك ايماءة تدل على الخوف أكثر من المحبة.

٩) وفعل ذلك ايضا امراء المدن الاخرى التي مررنا بها مثل صور وصيدا وعكا. لقد تصنعوا المودة ولكن قلوبهم كانت خالية منها.

١٠) كان تنكريد يحكم مدينة حيفا، التي احتلها رجالنا في طريقهم الى القدس في مطلع هذا العام. ولكننا لم ندخل المدينة لأن تنكريد كان معاديا لبلدوين.

لم يكن تنكريد هناك ولكن مواطنيه باعونا الخبز والنبيذ خارج المدينة، اذ انهم كانوا يعتبروننا اصدقاء ورغبوا ان يقابلوننا.[١٥]

١١) مررنا بالقيصرية في فلسطين وبقلعة ارسوف[١٦] المنيعة التي اعتقدنا لجهلنا انها اشدود. ولكن اشدود كانت واحدة من خمس مدن فلسطينية (صموئيل ٦ : ١٧)* وهي تقع بين يافا وعسقلان. وقد اضمحلت الآن فهي اشبه بضيعة.

١٢) بعد ان مررنا بانتباتريدا وصلنا اخيرا مدينة يافا البحرية، وهي في منطقة دان. وفي ذلك الوقت رحب الفرنجة هناك ببلدوين واستقبلوه كملكهم. لم نتباطأ هناك بل سارعنا الى القدس.

١٣) عندما اقتربنا من المدينة[١٧] حضر الناس برمتهم لاستقبال بلدوين، فحضر رجال الكهنوت والعامة والاغريق والسوريون بصلبانهم وشموعهم. وقادوا موكبه الى كنيسة القيامة بإكبار وفرح عظيمين، مادحين الله بأصوات رنانة.

١٤) لم يحضر البطريرك ديمبرت هذا الجمع لأنه كان موضع شك من قبل رجال بلدوين مما ادى الى سوء العلاقات بينهما. وقد كن معظم الكهنة حتى في ذلك الوقت الكراهية لديمبرت. لذلك اقام في جبل صهيون، محروما من منصبه، ومكث هناك حتى كفّر عن خطيئة الحسد التي تملكته.

١٥) بعد ان استرحنا من متاعبنا، وأخذنا نصيبنا من الاستجمام الذي كنا في اشد الحاجة اليه في القدس لمدة ستة ايام، وبعد ان صرف ألملك بعض شؤونه، أعددنا للذهاب في حملة جديدة. واسمحوا لي الآن ان اذكر شيئا عن طبيعة البشر، فأقول انه يتحتم على كل من لديه اعداء ان يضيق عليهم من جميع النواحي بلا هوادة ولا توقف الى أن يقهرهم إما باجهادهم في المعارك، او بالقوة او بأن يجبرهم على طلب السلام.[١٨]

حملة بلدوين على بلاد العرب

١) لذلك شرع اللورد بلدوين بالرحيل الى عسقلان، بعد ان جمع رجاله[١٩]، مجتازا اشدود التي تقع بين يافا وعسقلان وهي احدى المدن الفلسطينية

---

* وهذه هي بواسير الذهب التي ردها الفلسطينيون قربان اثم للرب واحد لاشدود وواحد لغزة وواحد لاشقلون وواحد لجت وواحد لعقرون. (صموئيل ٦:١٧)

الخمس[٢٠] وكانت اشارون على يميننا قرب جنبيل التي تقع على البحر[٢١] ولما اقتربنا من عسقلان خرج بعضهم لقتالنا فصددناهم بقسوة ودحرناهم الى داخل الاسوار. ولما لم تكن لنا فائدة ترجى من متابعة التقدم هنا عدنا الى خيامنا التي كانت قد نصبت ومكثنا فيها.

٢) وتابعنا مسيرتنا في اليوم التالي في البلاد حيث وجدنا طعاما لنا ولدوابنا في مناطق مزدهرة ودمرنا بلاد اعدائنا، وتقدمنا فوجدنا قرى وقد هجرها اهلها من الشرقيين ومعهم دوابهم وممتلكاتهم واختبأوا في الكهوف خوفا منا. ولما لم نقدر على ان نستخرجهم منها، اشعلنا الحرائق على مداخل الكهوف، وسرعان ما خرجوا منها بسبب الدخان والنيران واحداً تلو الآخر.

٣) كان بينهم لصوص اعتادوا ان يتربصوا بين الرملة والقدس ويقتلوا المسيحيين. وعندما اخبرنا بعض المسيحيين السوريين الذين اختبأوا معهم عن هؤلاء الاشقياء، قطعنا رؤوسهم حال خروجهم من الكهوف. وقد ابقينا على حياة السوريين وزوجاتهم. وقد قتلنا في الواقع قرابة مئة من الشرقيين.

٤) وبعد ان أكلنا والتهمنا كل ما وجدنا هناك من حنطة، وماشية، ولم نجد ما نستطيع الانتفاع به اجتمعنا مع بعض السكان المحليين الذين كانوا شرقيين من قبل ولكنهم اعتنقوا الديانة المسيحية الآن. وتباحثنا فيما يعرفون عن الاراضي الخصبة والصحراء في القريب والبعيد وقررنا الذهاب الى بلاد العرب.

٥) اجتزنا المنطقة الجبلية قرب كنائس الاحبار ابراهيم واسحاق ويعقوب، ثم سارة ورفقة، حيث رقدت بجلال اجداثهم. وأتينا الى واد يبعد نحو اربعة عشر ميلا من مدينة القدس[٢٢] وهنا سُحقت بحكم الله مدينتا سدوم وعمورة الخبيثتان (تكوين ١٩ : ٢٤ -٢٥)*

البحر الميت

١) هناك بحيرة كبرى تدعى البحر الميت لأنها لا تحتوي على اي شيء

---

* تكوين ١٩ : ٢٤ - ٢٥
"فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عند الرب من السماء. وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الارض".

حي.[٢٣] وهي تمتد خمسمائة وثمانين استادا طولا ومائة وخمسين عرضا.[٢٤] وهي شديدة الملوحة فلا يستطيع حيوان ولا طير من اي نوع ان يشرب منها، وقد تعلمت ذلك أنا فوشيه، من التجربة عندما ترجلت عن بغلي في الماء وشربت بيدي لاجرب الماء بالمذاق فوجدته اشد مرارة من الخريق الاسود.

٢) تتلقى هذه البحيرة المياه من نهر الاردن شمالا، وليس لها مخرج في الجنوب، ولا ينبع منها اي نهر، ويوجد على مقربة منها جبل شاهق عظيم من الملح يشبه صخرة طبيعية من الملح ولكنه يشبه الجليد في بعض اجزائه[٢٥]. وفضلا عن ذلك فإن المرء لا يستطيع ان يغطس في مائها حتى لو حاول ذلك.[٢٦]

٣) أحسب ان شدة ملوحة هذه البحيرة تعود لسببين فهي اولا مستقر ملح الجبل الذي تغسله امواج الشاطىء بلا انقطاع، وثانيا لأنها تتقبل الامطار النازلة من هذا الجبل. او لعل عمق البحيرة سحيق بحيث ان البحر العظيم[٢٧]، وهو مالح، يجري تحت الارض غير منظور في هذه البحيرة.

٤) سرنا في الجانب الجنوبي حول البحرية فوجدنا قرية[٢٨] حسنة الموقع غنية بثمار النخيل التي يسمونها البلح، وقد أكلنا منها طيلة النهار واستمتعنا بمذاقها الطيب ولم نجد هناك اي شيء آخر.

٥) كان المواطنون الشرقيون قد ولوا الادبار لما سمعوا الشائعات بمقدمنا ولم يبق الا اولئك الذين فاقوا الهباب سوادا. فتركناهم هناك وعاملناهم باحتقار كما لو كانوا عشب البحر.

٦) وقد رأيت بعض الاشجار التي تحمل ثمرا، وجمعت بعضا منها آملا ان اعرف ما هي، وعندما كسرت قشرتها وجدت مسحوقا اسود بداخلها، وتصاعد منها دخان.[٢٩]

٧) ثم دخلنا الى جبال بلاد العرب، وقضينا الليلة في كهوف هناك. وعندما تسلقنا الجبال في صباح اليوم التالي[٣٠] وجدنا قرى على الفور، ولكنها كانت خاوية من اي شيء مفيد لأن اهلها ما ان سمعوا بمقدمنا حتى اختبأوا مع ممتلكاتهم في كهوف في بطن الارض، فلم نحصل على اي فائدة ترجى هناك.

٨) واصلنا رحلتنا في الحال الى مناطق اخرى، وسار كشافتنا امامنا على الدوام. ثم وجدنا واديا غنيا بثمرات الارض، بل انه الوادي نفسه الذي

ضرب فيه التقي موسى، بإيحاء من الله، الصخرة مرتين، ففاض منها ماء الحياة[٣١] (عدد ٢٠ : ١١)* ويفيض هذا النبع بغزارة لا تقل اليوم عن ذاك الزمان حتى ان الطحانين في تلك البلاد يستعملون تيار النبع للطحن. وقد سقيت خيلي من ذلك النبع.

٩) ثم وجدنا على قمة الجبل كنيسة القديس هارون، حيث كلم موسى وهارون الله[٣٢] (عدد ٢٠ : ٧ ـ ٨، ١٢، ٢٣ ـ ٢٦)** وقد ابهج نفوسنا كثيرا أن نشاهد مكانا في هذه القداسة غير معروف لدينا. ولم نشأ ان نتابع المسيرة أبعد من ذلك لأن الاراضي كانت صحراء جرداء.

١٠) وقضينا ثلاثة ايام في راحة ممتعة في ذلك الوادي الغني بكل شيء. وانعشنا دوابنا بالطعام، وبعد أن حملناها بالمؤونة الضرورية، عزفت ابواق الملك في الساعة الثانية من اليوم الرابع، تأمر ببدء الرحيل في العودة.

١١) ورجعنا قرب بحيرة اسفالتيت كما اتينا، ومررنا بقبور الاحبار المذكورة، ثم اجتزنا بيت لحم، والموقع الذي ترقد فيه راحيل[٣٣].

١٢) وصلنا القدس بسلام يوم انقلاب الشتاء[٣٤] وعندما تم اعداد صولجان يليق بتتويج ملك، ساد الوئام بين ديمبرت واللورد بلدوين وعدة قساوسة من كنيسة القيامة اذ ان رجالا من ذوي الرأي جهدوا لهذه الغاية وهكذا انفضّ الخصام[٣٥]

---

* عدد ٢٠ : ١٠ ـ ١١
"وجمع موسى وهارون الجمهور أمام الصخرة فقال لهم اسمعوا ايها المردة. أمن هذه الصخرة نخرج لكم ماء. ورفع موسى يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين فخرج ماء غزير فشربت الجماعة ومواشيها".

** عدد ٢٠ : ٧ ـ ٨
"وكلم الرب موسى قائلا: خذ العصا واجمع الجماعة أنت وهارون اخوك وكلما الصخرة امام أعينهم ان تعطي ماءها فتخرج لهم ماء من الصخرة وتسقي الجماعة ومواشيهم"
عدد ٢٠ : ١٢
"فقال الرب لموسى وهارون من اجل انكما لم تؤمنا بي حتى تقدساني امام أعين بني اسرائيل لذلك لا تدخلان هذه الجماعة الى الارض التي اعطيتهم اياها"
عدد ٢٠ : ٢٣ ـ ٢٦
"فارتحل بنو اسرائيل الجماعة كلها من قادش واتوا الى جبل هور. وكلم الرب موسى وهارون في جبل هور على تخم ارض ادوم قائلا يضم هارون الى قومه لأنه لا يدخل الارض التي اعطيت لبني اسرائيل لأنكم عصيتم قولي عند ماء مريبة. اخذ هارون والعازر ابنه واصعد بهما الى جبل هور. واخلع عن هارون ثيابه وألبس العازر ابنه اياها فيضم هارون ويموت هناك. ففعل موسى كما أمر الرب وصعدوا الى جبل هور امام اعين كل الجماعة. فخلع موسى عن هارون ثيابه وألبس العازر ابنه اياها. فمات هارون هناك على رأس الجبل. ثم انحدر موسى والعازر عن رأس الجبل".

اعتلاء الملك بلدوين العرش وصغر مملكته

١) في عام ١١٠١ م بعد تجسد الرب، وفي الاحتفال بيوم ميلاده، تم تتويج بلدوين وتعيينه ملكا من قبل البطريرك المذكور بحضور الاساقفة الاخرين والرهبان والناس في كنيسة مريم المباركة في بيت لحم[٣٦]. لم يفعل ذلك لاخيه الذي سلفه لأن جودفري لم يرغب بذلك[٣٧]، كما ان اخرين لم يحبذوه [٣٨]، وبعد الامعان في التبصر والرأي، وافقوا على ضرورته.

٢) قالوا: ما هو وجه الاعتراض؟ ألم يعامل سيدنا المسيح بالاساءة والمهانة كأي مجرم ويتوج بتاج من الشوك في القدس وأعطى روحه طوعا للموت من اجلنا؟ ولكن تاجه لم يكن في أعين اليهود رمزا للشرف والعزة الملكية بل للخزي والعار. ولكن ما فعله هؤلاء القتلة اهانة له تحول ببركة الله الى خلاص ومجد لنا.

٣) ثم ان الملك لا يصبح ملكا رغم ارادة الله، واذا ما تم انتخابه بالطرق السليمة وحسب ارادة الله فإنه يقدس ويكرس بالبركة الشرعية. وكل من يحظى بالسلطة الملكية والتاج المذهب يأخذ على عاتقه في الوقت ذاته الواجب المقدس باقامة العدل. وينطبق عليه وعلى الاسقف في رعيته القول التالي "من يطلب الحكم يرغب في اداء العمل الصالح، وان لم يحكم بالعدل فلن يكون ملكا حقيقيا".

٤) ملك بلدوين في بداية عهده بضعة بلدان وأناس فقط[٣٩]، ودافع ببسالة خلال ذلك الشتاء عن مملكته ضد الاعداء من كل صوب. ولما ادركوا مهارته الفائقة في القتال، على قلة رجاله، لم يجرؤوا على مهاجمته، ولو توافر له عدد اكبر من المقاتلين لواجه اعداءه بسرور.

٥) كانت الطريق البرية مسدودة بوجه حجاجنا حتى ذلك الوقت، وقدموا في تلك الاثناء من فرنسا وانجلترا وايطاليا والبندقية عن طريق البحر الى يافا، ولم يكن لدينا ميناء غيرها. قدم هؤلاء الحجاج بوجل وهيبة، في سفن فرادى او بجموعات من ثلاث او اربع سفن، يشقون طريقهم في بحر من القراصنة المعادين، عبر مرافىء الشرقيين والله يدلهم على الطريق.

٦) عندما رأينا انهم قدموا من بلادنا من الغرب، استقبلناهم بحفاوة على الفور كما لو كانوا قديسين. وسألهم كل واحد منا عن بلاده واحبائه، وسررنا

بسماع الاخبار السعيدة واكتأبنا لسماع المصائب. فأتوا الى القدس وزاروا قدس الاقداس وذاك كان مرادهم.

٧) بقي بعضهم بعد ذلك في الاراضي المقدسة وعاد الاخرون الى مواطنهم. وقد بقيت اراضي القدس خالية من السكان لهذا السبب، ولم يتوافر فيها من الناس من يدافع عنها لو ان الشرقيين جرؤوا على مهاجمتنا.

٨) ويسأل المرء لماذا لم يجرؤوا؟ لماذا خشيت كل هذه الامم وهذه الممالك من الهجوم على مملكة صغيرة وشعب متواضع؟ لماذا لم يجمعوا من مصر ومن فارس ومن بلاد ما بين النهرين ومن سوريا مئة ضعف مئة الف مقاتل ليزحفوا بشجاعة علينا ونحن اعداؤهم؟ لماذا لم يدمرونا ويلتهمونا مثل جراد يفوق الحصر عدده في الحقل الصغير فيمحون ذكرنا عن وجه الارض التي كانت ملكنا منذ الازل.

٩) اذ لم يكن لدينا في ذلك الوقت اكثر من ثلاثمائة فارس ومثلهم من المشاة للدفاع عن القدس ويافا والرملة ومدينة حيفا المنيعة. لم نكن نجرؤ على ان نجمع فرساننا اذا ما اردنا ان نقوم بحملة ضد اعدائنا لخوفنا من ان يهجموا في تلك الاثناء على بعض قلاعنا المهجورة.

١٠) حقا انها لمعجزة عجيبة واضحة لكل من يرى، اننا عشنا بين آلاف مؤلفة وقهرناهم وجعلنا بعضهم اتباعا ودمرنا غيرهم بالنهب والأسر. ومن اين أتت هذه الفضيلة؟ من أين اتت هذه القوة؟ حقا انها من الله الشامل القدرة الذي التفت الى قومه الذين جاهدوا من اجل اسمه، وأعان برحمته في محنتهم اولئك الذين اتكلوا عليه. وقد وعد الله ان يجزي بالمجد المخلد في الحياة المقبلة من يسعدهم بالقليل من متاع الدنيا.

١١) ما اجدر هذا الوقت بالذكرى! لقد اصابنا الحزن مرارا عندما لم نقدر ان نحصل على العون من اصدقائنا عبر البحار. وخشينا ان علم اعداؤنا بقلة عددنا، ان ينقضوا علينا مرة من جميع النواحي بهجوم مباغت اذ لم يكن هناك احد يساعدنا سوى الله.

١٢) لم نكن بحاجة الى شيء ان لم تخذلنا الرجال او الخيل. ولم يستطع الرجال الذين قدموا بحرا الى القدس ان يحضروا خيلهم، ولم يأت احد عن طريق البحر. ولم يستطع اهل انطاكية ان يمدوا يد العون لنا كما لم نستطع ان نفعل ذلك لهم.(٤٠)

استبدال تنكريد في انطاكية

١) وفي شهر اذار[٤١] سلم تنكريد للملك بلدوين حيفا وطبريا التي ملكها وسار الى انطاكية. فقد ارسل له اهل انطاكية المبعوثين قائلين "لا تتأخر بل احضر الينا وتول الحكم علينا. وامتلك مدينة انطاكية والبلاد الخاضعة لها الى ان يعود اللورد بيهمند، سيدنا وسيدك من الأسر، فأنت من آله، وانت بصير بالعواقب خبير في الحروب وأنت اقوى منا وأقدر على الدفاع عن هذه البلاد. واذا ما عاد اللورد بيهمند فسنفعل ما يلزم" قدموا هذا الطلب، فأجابهم اليه[٤٢]

حصار قلعة ارسوف واحتلالها

١) قضى اسطول من السفن الايطالية والجنوية فصل الشتاء ذاك في ميناء اللاذقية، وأبحر رجاله في الربيع لما اعتدل الطقس وأصبح ملائما للملاحة الى يافا تدفعهم ريح مؤاتية واستقبلهم الملك بحفاوة لما وصلوا الى الميناء. ولما كان عيد الفصح قد اقترب وكان من عادة كل من استطاع ان يحتفل بهذه المناسبة، ارسوا سفنهم وذهبوا الى القدس بصحبة الملك.[٤٣]

٢) ولما لم تظهر النار المقدسة في سبت النور في كنيسة القيامة، اصيب الكل بقلق شديد.[٤٤] ولما انتهت الاحتفالات بالعيد، عاد الملك الى يافا[٤٥] وعقد معاهدة مع قناصل الاسطول المذكور. وتقرر انه طالما بقي اهل جنوى في الاراضي المقدسة محبة بالله، واذا ما اخذوا بمساعدة الملك وموافقته، اي مدينة شرقية، فلهم ثلث ما يؤخذ من الاعداء من المال خالصا لهم، وللملك الثلثين الاخرين. كما يحق لاهل جنوى ان يمتلكوا الى الابد، ارثا شرعيا لهم، حيا في اي مدينة يتم الاستيلاء عليها بهذه الطريقة.[٤٦]

٣) عندما اقسم الجميع على ذلك واتفقوا عليه، بدأوا على الفور في محاصرة المدينة التي تدعى ارسوف بحرا وبرا. وعندما ادرك السكان الشرقيون عجزهم عن الدفاع عن انفسهم ضد المسيحيين، تفاوضوا بدهاء مع الملك واستسلموا له في اليوم الثالث. ثم غادروا البلدة بكامل اموالهم، واعطى الملك الاذن بالسفر بأمان لاولئك الذين غادروا الى عسقلان مكسوري الخاطر.[٤٧]

٤) ثم قدمنا الشكر لله، جذلين لأننا استطعنا ان نأخذ هذا الموقع الحصين دون خسارة في الارواح، وقد كان مصدر خطر عظيم علينا.

٥) كانت هذه المواقع الحصينة التي بناها سليمان مصدر قلق شديد لنا[٤٨] إذ ان اللورد جودفري كان قد حاصرها قبل عام ولم يستطع أن يأخذها، وقتل سكانها عديدا من قومنا وسببوا لنا كثيرا من الشقاء.

٦) كان الفرنجة خلال الحصار قد اشتبكوا في صراع بالايدي مع المدافعين، واحتلوا بعض الشرفات في أعلى السور. ومدوا برجا خشبيا من الخارج اليها، ولكن الحظ شاء ان ينهار البرج ويتحطم بسبب العدد الكبير من الرجال الذين تسلقوا عليه. وقد اصيب قرابة مائة من الفرنجة بجروح بالغة من جراء ذلك.

٧) احتفظ الشرقيون ببعض اسرى الفرنجة هناك، وصلبوهم على مرأى من الجميع ورموهم بالسهام. وقتلوا بعضهم كذلك وابقوا اخرين احياء في اسر بغيض.[٤٩]

كيف سقطت مدينة القيصرية

١) بعد ان وضع الملك حراسة في ارسوف كما اقتضت الحاجة، زحف نحو القيصرية في فلسطين وطوقها بالحصار. ولكنه لم يستطع اخذها بسرعة بسبب مناعة اسوارها.

٢) فأمر بصنع المجانيق وبرج شاهق العلو صنع من صواري ومجاديف السفن[٥٠] وأقدر ان البرج كان يرتفع اكثر من عشرين ذراعا فوق السور بعد ان شيده النجارون. وكان القصد من ذلك ان يتمكن جنودنا، اذا قربوه من السور، من أن يقذفوا العدو بالحجارة والسهام. واذا ما استطاع رجالنا ابعاد الشرقيين عن السور بهذه الطريقة فسوف يستطيعون الدخول الى المدينة وأخذها.

٣) ولكن بعد ان شدد الفرنجة الحصار لمدة خمسة عشر يوما ودمروا بعض مواقع الدفاع المرتفعة على السور بمجانيقهم، غلب عليهم الحماس الديني ولم يطيقوا الانتظار اكثر من ذلك. وفي يوم الجمعة اقتحموا المدينة بدروعهم ورماحهم دون ان يستعملوا البرج الخشبي الذي لم يتم تشييده.[٥١]

٤) دافع الشرقيون عن انفسهم بكل ما استطاعوا من بسالة، وحثوا بعضهم بعضا على القتال. ولكن الفرنجة، وربهم الله، سارعوا بنصب السلالم التي أعدوها لهذا الغرض وتسلقوا الى اعالي الاسوار ثم امعنوا سيوفهم في كل من وجدوا في طريقهم.

٥) لما رأى الشرقيون ضراوة رجالنا، وأيقنوا ان المدينة قد سقطت، فروا مندفعين الى حيث ظنوا ان حياتهم ستطول اكثر قليلا. ولكن لات حين مناص، فقد اهلكناهم واوردناهم حتفا ما اجدرهم به.[٥٢]

٦) لم يبق الا قلة ضئيلة من الذكور، ولكننا استبقينا كثيراً من النساء، فقد تجدر الافادة منهن على الاقل في دفع الطواحين. ولما أسر الفرنجة النساء باعوهن واشتروهن فيما بينهم الجميلة منهن والقبيحة، وفعلوا ذلك بالرجال ايضا.

٧) وأبقى الملك على حياة امير المدينة واسقفها الذي دعاه الشرقيون بالقاضي.[٥٣] فعل ذلك رغبة في الفدية وليس بدافع المحبة، ويستحيل عليّ ان اذكر كم وجد في تلك المدينة من الممتلكات من مختلف الانواع، ولكن يكفي ان اقول ان كثيرا من رجالنا اغتنوا بعد فقر.[٥٤]

٨) رأيت كثيرا من جثث الشرقيين الذين قتلوا هناك وقد جمعت في كومة وأضرمت فيها النار، وقد ازعجتنا كثيرا رائحة الجثث المتعفنة. وقد تم حرق هؤلاء التعساء للعثور على الدنانير الذهبية التي ابتلعوها، وخبأها آخرون في افواههم قرب لثتهم كي لا يستولي الفرنجة على ما هو حقّ لهم.

٩) وحدث في بعض الاحيان، انه عندما كان يضرب احد رجالنا بقبضته عنق بعض الشرقيين طرح من افواههم ما بين العشرة والستة عشر دينارا ذهبيا. وقد خبأت بعض النسوة الدنانير الذهبية دون حياء داخل احشائهن بطريقة خبيثة يمنعني الحياء من ان اذكرها.

١٠) "في عام الف ومائة وواحد
استولينا على القيصرية بتسلق السلالم
استولينا على برج ستراتون، كما تسمى المدينة"[٥٥].

كيف تم اختيار أسقف في القيصرية

١) بعد ان فعلنا نحن وأهل جنوى ما طاب لانفسنا في القيصرية وكل ما

وجـدنا فيهـا، نصبنا فيهـا اسقفا اخترناه سـوية.[56] ثم تـركنا بضعـة رجـال ليحرسوا البلدة وسارعنا الى مدينة الرملة، على مقـربة من اللد. وقـد توقعنـا لمـدة اربع وعشرين يـوما ان يهـاجمنا رجـال عسقلان وبـابـل (مصر)* الـذين تجمعوا لهذا القصد.[57]

٢) لم نجـرؤ على قتـالهم لقلة عددنـا، وخشينـا إن قـاتلنـاهم في عسقـلان ان يغـرونا بـالدخـول بين اسـوارها وقـلاعها مـرارا حتى اذا ما وقعنـا في الشرك ابادونا.

٣) لمـا كنا نعلم بمكـرهم، تفحصنـا بـدهـاء اسلوبهم الحـربي الى ان ادركنـا خديعتهم،[58] ثم هبطت معنوياتهم من الخوف، وقطعـوا كل أمـل في الهجوم علينا. ولهذا فقد كثير منهم صبره لطول الانتـظار، ولنقص الحاجيـات، وفروا من المعسكر.

٤) لما علمنـا بـذلـك، رجعنـا الى يـافـا، شـاكـرين الله عـلى خـلاصنـا من هجومهم.[59]

معـركة جـامية الـوطيس بين المسيحيـين والاتراك انتصر فيهـا المسيحيون

١) بعد أن انتظرنا بهدوء لمدة سبعين يوما وآذاننـا مشرعة عـلى اعدائنـا، علم الملك انهم بـدأوا التحرك نحـونا بنـوايـا عـدائيـة، وانهم شرعـوا بـالتحضير للهجوم.[60]

٢) لمـا سمع الملك بـذلك جمـع قواتـه فورا من القـدس، وطبريـا والقيصريـة وحيفا[61] ولحاجتنـا الماسـة الى الفرسـان أمر الملك كـل من استطاع ان يجعـل حامل ترسه فارسا، وهكذا عد فرساننـا حوالى مئتـين وستين ومشـاتنا حـوالى تسعـمائة. وقـد واجهنا في تلك الفـترة احد عشر الف فـارس وحـوالى واحـد وعشرين الفا من المشاة.[62]

٣) كنا نعرف ذلـك ولكن لأن الله كان معنـا لم نخف ان نزحـف ضـدهم. لم نثق بأسلحتنا ولا بأعدادنا بل وضعنا كل آمالنا في ربنـا الله. كانت شجـاعتنا عظيمة ولم تكن جرأة طائشـة، بل ايمـان ومحبة. واستعـدينا بهمـة لنموت من

---

* يدعو فوشيه هنا، ويعيد في اماكن اخرى عديدة، مصر باسم بابل.

اجل محبة الذي رضي ان يموت من اجلنا.

شعر

"وانطلقنا ببسالة جاهزين للمعركة او للموت"

٤) حمل الملك خشبة الصليب المقدس، مما ادخل الطمأنينة في قلوبنا، وتركنا يافا ذات يوم. وفي اليوم التالي حاربنا اعداءنا.[٦٣]

٥) لما تقدمنا نحوهم، كانوا هم تقدموا على مقربة منا دون ان ندرك ذلك، وحين شاهدنا طلائعهم من استحكاماتنا ادركنا على الفور ان بقيتهم لاحقة. ولما تقدم الملك ببعض رجاله الى الامام رأى عن بعد معسكرهم الهائل يتلألأ في السهل. ثم نهر فرسه على الفور ورجع الينا في المؤخرة يخبرنا عن كل ما رأى.

٦) لما ايقنا بوقوع المعركة بدأنا نهلل لأننا كنا نتلهف لها. وإن لم يتقدم الاعداء نحونا فسنتقدم حتما نحوهم. ومن الافضل لنا ان نحارب في السهل المنبسط لأن اعداءنا اذا ما هزموا بعون الله، فسيطول فرارهم وسوف يصابون بخسائر اكثر في الفرار مما لو حاربناهم قرب أسوارهم.

٧) امرنا الملك بحمل السلاح ثم انتظمنا في انضباط ملائم للمعركة. وهكذا توكلنا على الله وركبنا الخيل على اعدائنا. واختار الملك احد رؤساء الرهبان، وحمل خشبة الصليب المقدس على مرأى من الجميع[٦٤].

٨) ثم خاطب الملك جنوده بخشوع وقال "هيا يا جنود المسيح! لا تخشوا شيئا ولتنبسط اساريركم! تصرفوا برجولة وكونوا جبابرة في المعركة. أحثكم على ان تحاربوا من اجل خلاص ارواحكم، وان تمجدوا حيثما كنتم اسم المسيح الذي دنسه وحقره دوما هؤلاء القوم الفاسدون، غير مؤمنين بميلاده ولا بصعوده. واذا ما لقيتم حتفكم هنا فستكونون يقينا من المباركين. وقد فتحت ابواب مملكة السماوات لكم. وإن أنتم انتصرتم وعشتم فسوف يتألق اسمكم بالمجد بين المسيحيين بأسرهم. وأما اذا اردتم الفرار فاذكروا ان فرنسا تبعد مسافة شاسعة عن هذا المكان".

٩) وافق الجميع معه لما سمعوا كلامه.

شعر

"وسارعوا الى المعمعة، اذ لم يطيقوا على الانتظار صبرا
وكل منهم يبحث عمن يضرب بالسيف او يطرح ارضا"

١٠) وأغار علينا هؤلاء القوم الخسيسون بغتة من اليمين ومن اليسار. ومع ان رجالنا كانوا قلة وقد انقسموا الى ستة صفوف في المعركة[٦٥] الا انهم انقضوا على فيالق الاعداء المتدفقة، كما ينقض الصيادون على مجاميع الطيور، صارخين "عونك يا رب". ولم يقدر امرؤ ان يرى أو يعرف احدا آخر، لكثرة عدد الاعداء، ولأنهم عاجوا حولنا وبيننا في الحال.

١١) ولما رأى الملك انهم صدوا وقهروا أول صفين من صفوفنا، جلب العون من المؤخرة على عجل. وحين رأى تفوق قوة العدو انطلق راكبا بأقصى سرعة مع فصيلته وقاوم بحمية هجوم الكفار. وانطلق مواجها قوتهم المتفوقة، ورايته البيضاء ترفرف فوق عربته واطلقها فاخترقت عربيا مقابلا له. وبقيت الراية في بطن العربي بعد أن طرح ارضا من فوق حصانه.[٦٦] وقد شاهدت بأم عيني بلدوين وهو يقتلع حربته ويحملها على الفور ليفتك بآخرين.

١٢) حارب الطرفان في المعركة ببسالة. وكنت ترى خلال ساعة من بدء المعركة كثيرا من الخيول وقد فقدت فرسانها من الطرفين. وابصرنا الارض وقد تدثرت بغطاء كثيف من الدروع والتروس، والخناجر والكنانات والاقواس والسهام وبالشرقيين والاحباش وقد فارقوا الحياة او اصيبوا بجروح قاتلة وبالفرنجة ولكن بعدد أقل.

١٣) كان صليب المخلص المقدس معنا، جبارا ضد اعداء المسيح. ولم تفلح ضده ببركة الله، كل عنجهية الكفار، وكان الصليب قد أغشى قلوبهم، فلم يتوقفوا عن الهجوم علينا فحسب، بل بادروا بالفرار وقد أصابهم الخزي والعار. ونجا من الموت منهم من امتطى فرسا سريعة.

١٤) من الممل ان نعد الدروع، والقذائف والاقواس والسهام التي طرحها الهاربون في فرارهم على الارض. ومن المستحيل على المرء حتى لو اراد ان يعد جثث القتلى المطروحة هناك. ويقال ان خمسة آلاف من فرسانهم ومشاتهم لاقوا حتفهم هناك. حتى إن قائد الجيش البابلوني (المصري) الذي قاد المعركة قتل مع الاخرين. وفقدنا نحن ثمانين فارسا وأكثر من ذلك من المشاة.

١٥) وقد تصرف الملك في ذلك اليوم بمنتهى البسالة، وكان اكبر مصدر للطمأنينة لنا، ومحاربا لا يقهر. واتضح مصير المعركة بسرعة وأركن الاعداء الى الفرار في الحال ولاحقناهم على الفور.

كم هلك من المسيحيين هناك

١) ايتها الحرب ما امقتك على الابرياء وما ارعبك على الناظرين! الحرب ليست جميلة ولو وصفها بعض الشعراء كذلك. لقد شاهدت المعركة وترنح عقلي، وخشيت أن أصاب بضربة. اندفع الجميع الى السلاح كما لو انهم لم يخافوا الموت ـ والكوارث المريعة تقع حيث تنعدم المحبة ـ وتعالت الضوضاء تصم الآذان من تبادل الطعنات فأطلق امرؤ ضرباته فخر عدوه صريعا. ولم يعرف امرؤ أي شفقة، ولم يطلب عدوه شيئا منها. فقد امرؤ يدا، وفقد عدوه عينا. وينتكس الفكر البشري لمرأى هذه التعاسة.

٢) ومع ذلك يسعدني ان اذكر ان جيشنا انتصر في المقدمة بينما كان يعاني الهزيمة في المؤخرة، فهناك وقع المسيحيون قتلى ولكنهم قهروا الشرقيين في المقدمة. ولاحقناهم الى ابواب عسقلان بينما ركب بعضهم على الفور الى يافا بعد ان قتلوا بعض رجالنا. وهكذا لم يعرف احد مصير المعركة في ذلك اليوم.

٣) بعد ان طهر حقل المعركة من الشرقيين بالقتل والمطاردة اصدر الملك اوامره بأن نقضي ليلتنا في الخيام التي تركها الشاردون، فأطعنا الاوامر.[٦٧]

٤) "في اليوم السابع من ايلول[٦٨]
قاتلنا في هذه المعركة التي يجدر ذكرها
حيث اعانت البركة الآلهية الفرنجة".

تباين المصائر في هذه المعركة

١) تجمعنا في اليوم التالي في خيمة الملك وسمعنا قداس ميلاد السيدة مريم البتول، الذي صادف في ذلك اليوم المبارك. ثم حملنا دوابنا بما غنمناه من اعدائنا مثل الخبز والحنطة والطحين بالاضافة الى خيامهم. وبعد ذلك اطلقت الابواق الملكية اشارة العودة الى يافا.

٢) عندما ارتددنا على اعقابنا واجترنا مدينة اشدود، خامسة مدن الفلسطينيين، وهي مهجورة الان وتدعى ابينيم[٦٩]، شاهدنا قرابة خمسمائة عربي قادمين نحونا في طريق عودتهم من يافا وكان هؤلاء قد اندفعوا نحوها

يوم المعركة واستولوا على ما استطاعوا خارج المدينة. اذ انهم كانوا قد امعنوا بمشاتنا ذبحا في مؤخرة جيشنا وقضوا نهائيا على صف من ميمنتنا وظنوا ان مقدمتنا قد قضي عليها كالمؤخرة. واخذوا الدروع والرماح والخوذ اللامعة من القتلى وزينوا انفسهم بها بغطرسة. ثم سارعوا الى يافا لكي يعرضوا اسلحتنا على رجال المدينة قائلين ان الملك ورجاله قد ابيدوا عن بكرة أبيهم في المعركة.

٣) لما سمع اولئك الذين تخلفوا في يافا للحراسة ذلك ارتبكوا واشتد ذعرهم ووثقوا بكلام العرب الذي بان عليه الصدق. ظن العرب ان أهل المدينة المذعورين سوف يسلمون المدينة على الفور ولكن خططهم باءت بالفشل. وعندما رأوا انهم لم ينجزوا شيئا بدأوا بالانسحاب الى عسقلان.

٤) عندما رآنا العرب عائدين الى يافا، ظنونا بعضا من جماعتهم الذين شاؤوا، بعد ان قتلونا جميعا في المعركة، ان يتعقبوا بقية المسيحيين القاطنين في يافا. وقد تحيرنا لأنهم اقدموا علينا بهذا الشكل، دون ان يدركوا اننا فرنجة، الى ان شاهدوا فرساننا ينقضون عليهم بهجمة مفاجئة[٧٠]

٥) كان عليك ان ترى اعداءنا يفرون فجأة متبعثرين في كل اتجاه لا يلوي الواحد منهم على شيء. ومن لم يملك منهم فرسا سريعة قطعت رأسه عاجلا. ولكن الفرنجة لم يلاحقوا العرب لأنهم كانوا منهكين تعبا وقد أصيب الكثيرون منهم بجراح في المعركة. وهكذا فر هؤلاء بينما مضينا الى يافا مبتهجين.

رسالة اهل يافا الى تنكريد، امير انطاكية

١) تصور التهاليل وصلوات الشكر المنبعثة من اولئك الذين كنا قد تركنا في يافا اذ شاهدونا من فوق اسوارهم ونحن عائدون واعلامنا خفاقة! يقينا ان الحديث عن ذلك ليس بالسهل.

٢) كان اثنان من ناقلي الاخبار الكاذبة قد سارعا الواحد تلو الآخر[٧١] الى يافا وضللا اهلها بقولهما ان الملك ورجاله قد ابيدوا عن بكرة أبيهم. فصدق هؤلاء ذلك وبعثوا برسالة قصيرة الى تنكريد الذي كان يحكم في انطاكية في ذلك الزمن. وبأمر من زوجة بلدوين[٧٢] حملها بحار كان على وشك الاقلاع

في سفينته.

٣) نصت الرسالة على هذه التحيات والكلمات:

"تنكريد ايها الرجل اللامع! والجندي الباسل! اليك هذه الرسالة المقتضبة من سكان يافا، اي الملكة وبعض مواطني المدينة يبعثونها اليك على عجل عن طريقي أنا، كمندوبهم الرسمي، ارجو أن تطالعها بتمعن، عله يسهل أن تصدق ما كتب فيها من أن تصدق قولي.

٤) يا لفداحة المصاب! ان ملك القدس الذي دخل المعركة ضد اهل مصر وعسقلان قد اصيب بهزيمة فادحة او لعله قد قتل في المعركة مع رجاله برمتهم. اذ ان اولئك الذين تجنبوا بشق النفس تعاسة هذه النكبة فروا الى يافا واخبرونا بما جرى.

٥) "لذلك فإنني ارسل مندوبا اليك، وأنت الرجل الحكيم، طالبا المعونة ومتوسلا ان تطرح كل شيء آخر جانبا وأن تسارع بلا تمهل، لمد يد العون لشعب الله الخاشعين في محنتهم الكبرى، وهم الآن على ما اعتقد قد اوشكوا على نهاية حياتهم"(٧٣)

٦) هذا نص الرسالة. لاذ تنكريد بالصمت لاول وهلة عند سماعه ذلك، ولكنه عندما اقتنع بصدق ما سمع شرع وكل من معه في البكاء بحرقة لشدة حزنهم وفجيعتهم. ثم اعطى تنكريد جوابا لحامل الرسالة وأمر ببدء التجهيزات في كل ارجاء بلاده لمساعدة رجال القدس.

٧) وعندما اصبحوا على أهبة القيام بالرحلة، وصل مبعوث آخر فجأة لينقل رسالة تختلف عن الاولى واعطاها لتنكريد، فبينما نقلت الرسالة الاولى تقارير عن المصيبة، نقلت الثانية اخبار الحظ السعيد. ونصت على ان الملك قد عاد سالما الى يافا وان الشرقيين اصيبوا بهزيمة مذهلة بلا جدال. فابتهج لحسن طالعنا اولئك الذين حزنوا لمصابنا.

٨) يا لرحمة الله الرائعة. لم نهزم اعداءنا لكثرة عدد رجالنا بل لأننا وثقنا بالقدرة الالهية. وهكذا عدنا الى القدس وقد سلمنا من اعدائنا، نطلق المديح لله. ثم استرحنا لمدة ثمانية اشهر آمنين من الحرب حتى حلول فصل الصيف.

حشود جيش مصر ضد المسيحيين

١) تجمع اهل بـابل (مصر) حـول عسقلان في منتصف ايـار من العام التـالي ١١٠٢ م وقـد ارسلهم ملكهم الى هناك لكي يبيـدونا كلية نحن المسيحيين. وقـد اجتمع هنـاك حوالى عشرين الف فـارس وعشرة الآف راجـل عـدا عن سـاسة البعـير والدواب والحمـير المحملة بالمؤن.[٧٤] وقـد حمل هؤلاء السـاسـة العصي والقذائف.

٢) حضر المصريون الى الرملة يوما[٧٥] وضربوا خيامهم امـامها. وقـد واجههم خمسون فارسـاً كان بلدوين قـد تركهم في بـرج محصن في المدينـة لحراستهـا. وكان يقطن امام البرج بعض السوريين الريفيين في شبـه ضاحيـة وقد تحـرش الشرقيـون بهؤلاء المسيحيين ودأبـوا على مضـايقتهـم محاولـين ان يقضوا عليهم ويدمروا البرج. اذ انهم لم يستطيعوا ان يتجولـوا بحريـة في الاراضي المنبسطة بسبب الرجال الصامدين في البرج.

٣) بل انهم حاولوا القبض على اسقف المدينة الـذي قطن في كنيسـة القديس جورج مع اتباعه. وقد احاطوا بالكنيسـة يومـا عن سوء قصـد ولكنهم عادوا الى الرملة بعد ان رأوا مناعة الموقع.[٧٦]

٤) ثم لما شاهد الاسقف الدخان واللهب يتصاعد من حقول القمح خشي ان يعود الشرقيون ويحاصروه. ولكي يحتاط من اخطار المستقبل ارسل على الفـور رسـالة للملك في يـافا يـطلب منه العـون في الحال لأن المصريـين كـانـوا قـد عسكروا قرب الرملة وأرسلوا كتيبة من هناك ليحيطوا بالكنيسة ويهاجموها.[٧٧]

٥) سارع الملك عند سـماعه بـذلك الى حمـل السلاح وامتـطى جواده، وتبعـه فرسانه على الفور بعد ان اعطى الاوامر وعزفت الابواق.

٦) كان هناك في يافا عدد كبير من الفـرسان الـذين اختاروا ان يعـبروا البحر ويعودوا الى فرنسا، ينتظرون ريحا مواتيـة. ولم يكن لديهم خيـول لأنهم فقدوا خيولهم في السنة السالفة خلال عبورهم رومانيا في طريقهم الى القدس، كـما فقدوا كل ما ملكوا، ولا اظن ان ذكر هذا الكلام هنا يحيد عن الموضوع.[٧٨]

حجة الفرنجة الثانية المحزنة ووفاة هيوج العظيم

١) عندما زحف جيش الفرنجة العظيم[٧٩] الى القدس كما ذكرنا كان بين الجموع وليم، كونت بواتو[٨٠] وستيفن كونت بلوا. وكان هذا الاخير قد غادر جيشنا في انطاكية[٨١] ولكنه شاء الآن ان يعوض عما فاته هناك. واتى معهم ايضا هيوج العظيم الذي كان قد عاد الى بلاد الغال بعد سقوط انطاكية.[٨٢] ثم كان معهم ريموند كونت بروفنس الذي تخلف في القسطنطينية بعد ان رجع من القدس.[٨٣] كما حضر معهم ستيفن كونت برجندي النبيل واعداد لا تحصى من الفرسان والمشاة انقسموا الى مجموعتين[٨٤].

٢) قاوم التركي سليمان الفرنجة في رومانيا وكانوا قد اخذوا منه مدينة نيقية[٨٥] في السابق. وتقدم سليمان، ذاكرا هزيمته الماضية،[٨٦] بحشود هائلة من الاتراك وشتتوا واربكوا وكادوا ان يبيدوا جيش الفرنجة برمته.[٨٧]

٣) ولكن الفرنجة بعون العناية الالهية، كانوا يسيرون في فرق موزعة على طرق عديدة، لذلك لم يستطع سليمان ان يحاربهم ويبيدهم عن بكرة أبيهم. ولكنه علم أن التعب قد اضناهم وهدهم الجوع والعطش وادرك جهلهم باستعمال الاقواس في الحرب، لذلك فإنه قتل اكثر من مئة الف فارس وراجل منهم.

٤) بل انه ذبح بعض النساء وحمل بعضهم معه. وقد هلك كثير من الفرنجة الذين فروا هائمين في الجبال من الجوع والعطش. واخذ الاتراك خيولهم وبغالهم ودوابهم ومتاعهم من كل نوع.

٥) فقد كونت بواتو هناك حاشيته وامواله وكل ما لديه ووصل الى انطاكية بعد جهد راجلا كئيبا منقبض النفس. وقد استقبله تنكريد استقبالا حسنا اذ انه عطف عليه في محنته وزوده من ممتلكاته الخاصة "وهكذا تأديبا ادبني الرب، والى الموت لم يسلمني" (المزامير ١١٨ : ١٧)

٦) لقد بدا لنا ان ما حل به وبغيره كان فعلا نتيجة خطاياهم وكبريائهم.

٧) اما الذين نجوا منهم فلم يتقاعسوا عن الذهاب الى القدس، باستثناء هيوج العظيم الذي وافته المنية ودفن في طرطوس في سيليسيا. ولما وصلوا الى انطاكية تابع بعضهم رحلته الى القدس بحرا وبعضهم الاخر برا، وقد آثر

من استطاع منهم ان يحصل على فرس ان يسافر برا.

سقوط مدينة طرطوس

١) عندما وصل الفرنجة الى طرطوس التي كانت تحت سيطرة الشرقيين، لم يترددوا بل هاجموها بحرا وبرا. وسوف اكتفي بأن اخبركم أنهم اخذوا المدينة، وقتلوا الشرقيين، وصادروا اموالهم، ثم تابعوا مسيرتهم دون توقف[٨٨]

٢) خاب ظن الجميع بسبب تخلف الكونت ريموند في طرطوس لانهم املوا ان يذهب معهم الى القدس. وقد صب عليه الاخرون اللعنات لأنه ابى ان يسير معهم وبقي فيها بل واحتفظ بالمدينة لنفسه.[٨٩]

٣) تابع هؤلاء مسيرتهم مارين بماركاح ثم بمدينتي طرابلس وجبيل الى ان وصلوا الى الممر الشديد الضيق قرب مدينة بيروت.

٤) كان الملك قد قضى في انتظارهم مدة ثمانية عشر يوما هناك حارسا الممر لئلا يحتله الشرقيون ويمنعوا عبور الحجاج. وكان قد استقبل وفدا من الجيش طلب منه المساعدة حين اقترب من ذلك المكان.

٥) عندما وجد الحجاج الملك في استقبالهم هناك، قدموا له الشكر بحرارة، وبعد تبادل العناق شدوا الرحال الى يافا حيث نزل اولئك الذين سافروا بحرا الى اليابسة.

معركة مشؤومة بين المسيحيين والاتراك، قتل فيها المسيحيون وانتصر فيها الاتراك[٩٠]

١) باقتراب عيد الفصح[٩١] توجه الرجال الى القدس التي كانوا يتوقون لزيارتها، وبعد اداء المراسم الجليلة المعتادة عادوا الى يافا.

٢) ثم ركب كونت بواتو السفينة لشدة حاجته وضيق حاله وابحر في قلة من اتباعه الى فرنسا.[٩٢]

٣) ورغب ستيفن بلوا وكثيرون غيره ان يعبروا البحر، ولكنهم واجهوا ريحا غير مواتية فلم يقدروا الا ان يعودوا على اعقابهم. ولذلك كان ستيفن في يافا، كما ذكرنا اعلاه، عندما امتطى الملك جواده قاصدا العدو الذي خيم امام الرملة.[٩٣]

٤) كان هناك ايضا جيوفري كونت فيردوم[٩٤]، وستيفن كونت بيرجندي، وهيو لوسينيان شقيق الكونت ريموند. وقد استعاروا خيولا من اصدقائهم ومعارفهم وامتطوها وتبعوا الملك.

٥) ارتكب الملك عملا طائشا حقا اذ اغفل ان ينتظر رجاله، وزحف الى المعركة بشكل عشوائي، وحق عليه ان يكون اعقل من ذلك. فقد سارع لملاقاة العدو دون ان يصطحب مشاته ولم يكد ينتظر قدوم فرسانه الى ان القى بنفسه بحماقة بين جموع العرب المحتشدة. وظن، افراطا منه بتقديره لتفوقه، ان عدد الاعداء لا يزيد عن الالف والسبعمائة، لذلك سارع لملاقاتهم قبل ان يتمكنوا من الفرار.[٩٦]

٦) ولما شاهد العدو اطلق صيحة، ودب فيه الرعب. ثم استمد في الحال قوة من السلوان والتفت الى رجاله وخاطبهم بخشوع: "يا جنود المسيح، ايها اصدقاء، لا تتقاعسوا عن هذه المعركة بل حاربوا ببسالة، مسلحين بقوة الله من أجل انفسكم" "فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن" (رومية ١٤ : ٨). وإن راودت احدكم نفسه على الفرار فليس له امل بالخلاص. ان قاتلتم قهرتم وان هربتم هلكتم.[٩٧]

٧) اندفع الفرنجة بسرعة بين العرب بهجمة باسلة اذ ان ذاك كان هو المكان وتلك كانت هي المناسبة لابداء البسالة. ولم يفق عدد فرساننا المائتين وقد احاط بهم عشرون الفا، وتفاقمت خطورة ضغط الاعداء* على رجالنا حتى ان معظمهم هلك في بحر ساعة. واما البقية فلاذوا بالفرار لانهم لم يقدروا ان يتحملوا مثل هذه الشدة.

٨) ومع ان شراً عظيماً حل برجالنا، الا انه لم يحل بهم الا بعد ان ثأروا لانفسهم بسخاء من اعدائهم. فقد قتلوا عددا كبيرا منهم وشردوهم من معسكرهم. ثم احاقت الهزيمة برجالنا وفق ارادة الله على يد اولئك الذين كانوا قد هزموا.

٩) وببركة الله نجا الملك مع قلة من ابرز فرسانه. ولاذوا بالفرار مسرعين الى داخل الرملة ولكنهم لم يقدروا ان يذهبوا أبعد من ذلك.

---

* يستعمل فوشيه كلمة GENTILE للدلالة على العرب الاعداء وهي كلمة يستعملها اليهود للدلالة على كل من هو ليس يهوديا، والاستعمال التقليدي للكلمة تدل عادة على المسيحيين.

فرار الملك بلدوين

١) آثر الملك، لأنه لم يرغب ان يقع في شرك هناك، ان يلاقي حتفه في مكان آخر على ان يؤخذ بمذلة في ذلك المكان. فعقد استشاراته وحاول الفرار مخاطرا بحياته ثم اخذ معه خمسة مرافقين فقط، ولكنهم لم يطيلوا البقاء معه لأن العدو أوقفهم.[٩٨] اما هو فقد بادر بالفرار الى الجبال على متن فرس خفيفة الحركة.[٩٩] وهكذا فإن الرب اختطفه من ايدي اعدائه الذين فاقوه قوة. وقد قطع العدو الطريق عليه الى ارسوف فلم يستطع الذهاب اليها مع انه رغب بذلك.

٢) اما اولئك الذين تخلفوا في الرملة، فلم يستطيعوا مغادرة ابوابها بعد ذلك. وقد حاصرهم القوم الكافرون من جميع النواحي ثم اسروهم[١٠٠] فقتل بعضهم وأخذ الآخرون احياء.

٣) ما ان سمع اسقف كنيسة القديس جورج بهذه المصيبة حتى انسحب خفية الى يافا.

٤) آه كم خسرنا من النبلاء وشجعان الفرسان في تلك الكارثة! خسرناهم في الاشتباكات الاولية ثم إثر ذلك في البرج السابق الذكر. فقد قتل ستيفن بلوا الرجل الشجاع النبيل وستيفن الاخر كونت بيرجندي.

٥) حرر ثلاثة من الفرسان انفسهم من هناك، وامتطوا جيادهم الى القدس في الليلة التالية وقد اصيبوا بجراحات وضربات عديدة. ولما وصلوا اليها اخبروا اهلها بالمصيبة التي حلت، ولم يعرفوا اذا ما كان الملك قد مات ام ما زال على قيد الحياة. وسبب ذلك على الفور الاسى الشديد للجميع.

كيف دخل الملك الى ارسوف هاربا

١) اختبأ الملك في الجبال في الليلة التالية[١٠١] خوفا من العرب. وفي اليوم الثالث[١٠٢] ظهر مع فارس واحد ومرافقه[١٠٣] يتجول دون ان يعرفه احد كما لو كان اي شخص يعاني من الجوع والعطش في مجاهل الصحراء. واخيرا دخل مدينته ارسوف.

٢) نجا بلدوين بسبب الظرف التالي: كان خمسمائة من جنود الاعداء يتجولون مستطلعين حول اسوار المدينة قد انسحبوا قبل وصوله بقليل. ولو رآه احدهم لما كان بمستطاعه ان يتجنبهم.

٣) استقبل الرجال ملكهم بفرح عظيم عند دخوله ارسوف فأكل وشرب ونام بأمان اذ تطلب ذلك الجانب البشري من طبيعته.

كيف سارع هيو طبريا وبطريرك القدس[١٠٤] لنجدة الملك وكيف دارت رحى المعركة بسلطة وعون الصليب المقدس

١) انظر في ذلك اليوم[١٠٥] وقد حضر هيو طبريا احد اعظم نبلاء الملك[١٠٦]، الى ارسوف. لقد سمع بالشدة التي احاقت بالملك وشاء ان يجلب بعض السلوان لمن بقي على قيد الحياة. وسر الملك بمرآه سرورا عظيما، ذلك لان هيو احضر معه ثمانين فارسا كان الملك في حاجة ماسة اليهم. ثم سارع الملك، استجابة لرسالة من القدس، لمد يد العون لاهل يافا.

٢) لم يجرؤ على ان ينقل رجاله برا اذ ان اعداءه قد ينصبون له الشراك متنكرين كعابري سبيل، بل ركب زورقا سريعا وابحر الى يافا.[١٠٧] وعندما وصل الى الميناء استقبل بغبطة بالغة لأنه كما ورد في الانجيل "لان ابني هذا كان ميتا فعاش وكان ضالا فوجد" (لوقا ١٥ : ٢٤) فقد شاهدوا الان سالما وعلى قيد الحياة من انتحبوا لموته من قبل.

٣) وفي اليوم التالي[١٠٨] سارع هيو المذكور مغادرا ارسوف خائفا، الى يافا وقابله الملك لكي يعينه اذا ما تعرض لهجوم في طريقه من قبل الاعداء.

٤) لما وصل الملك الى يافا، لم يطل التداول والمشاورة اذ ان الضرورة حكمت عليه بأن يستدعي اولئك الذين كانوا في القدس وفي سنت ابراهيم[١٠٩] للحضور الى يافا، فقد اراد ان يحارب العرب الذين عسكروا قرب يافا مخططين لاحتلال المدينة.

٥) وبينما هو يقلب الرأي فيمن يبعث رسولا، رأى رجلا سوريا بسيطا رث الثياب، فحثه بالحاح على ان يقوم بهذه المهمة، اذ انه لم يجد اي احد يقدر او يجرؤ على القيام بها. لم يكن احد يجرؤ على السفر في تلك الطريق بسبب الشراك التي نصبها العدو. ولكن هذا الرجل لم يتردد بالقيام بالرحلة بعد ان

استلهم الشجاعة من الله، سالكا طريقا غير مألوفة وشاقة في وحشة الليل لئلا يراه العدو حتى وصل الى القدس في اليوم الثالث[110] منهكا من التعب.

٦) عندما اخبر هذا الرسول الناس بانباء الملك السارة، واعلن انه ما زال على قيد الحياة قدموا جميعا الشكر لله، ولم يتوان احد بعد ذلك.

٧) عندما قرأوا الرسالة التي حملها السوري قاموا على الفور بتجهيز اكبر عدد استطاعوا ان يجدوه في القدس من الفرسان، واذكر انه كان هناك تسعون من الفرسان، وممن استطاعوا ان يحصلوا على خيول ثم ساروا على الفور، متجنبين كمائن العدو بقدر الامكان ومسافرين عبر طريق فرعية الى ان اشرفوا على ارسوف من طريق جانبية.

٨) شن اعداؤهم الاشرار هجوما عليهم وهم يزحفون على عجل بمحاذاة الشاطىء. آملين ان يعزلوهم ويقضوا عليهم هناك. غاص بعض رجالنا في الامواج لكي يسبحوا، لما ظنوا ان لا مناص لهم، فبعض الشر أهون من بعض كما يقال. وقد نجوا من الكفار بالسباحة ولكنهم فقدوا دوابهم. ودافع الفرسان الذين يملكون خيولا سريعة عن انفسهم ووصلوا الى يافا. وما نجوا مع ذلك الا بصعوبة.

٩) ابتهج الملك كثيراً لحضورهم واستعاد شجاعته، ولم يشأ ان يتوانى اكثر من ذلك، وفي اليوم التالي[111] نظم فرسانه ومشاته وانطلق يحارب اعداءه.

١٠) ولم يكن هؤلاء بعيدين عن يافا في الحقيقة سوى ثلاثة اميال وكانوا قد بدأوا بتجهيز الآلات لضرب الحصار على يافا، واخذها على الفور. ولكن لما رأوا رجالنا يتقدمون نحوهم لدخول المعركة حملوا سلاحهم في الحال وقابلونا بجسارة واحاطوا بنا من جميع النواحي لكثرة اعدادهم الساحقة.[112]

١١) عندما احكم الطوق على رجالنا بهذا الشكل، لم يبق لهم عون الا العناية الآلهية. لم يتوانوا، واضعين ثقتهم المطلقة بمقدرة الرب الكلية، عن الضرب بقوة مذهلة حيثما شاهدوا تجمعات العدو على اكثفها واشدها. وكلما اخترق رجالنا بالقتال العنيف صفوف العدو اضطروا للرجوع الى موقع آخر ذلك لأن اعداءنا كلما رأوا مشاتنا بدون حماية الفرسان، كانوا يقتحمون ذاك الموقع ويذبحون اولئك الذين في المؤخرة.

١٢) ولكن مشاتنا لم يكونوا جبناء، وقد اطلقوا وابلا من الرماح على مهاجميهم حتى كنت ترى كثيرا من الرماح وقد التصقت بالدروع او بوجوه لاعداء.

وهكـذا وبعون الله، بعـد ان صدتهم بشراسـة رماح مشـاتنا، واصـابت كثيرا منهم بجـراح حراب فـرسانـنـا، وبعد أن خسروا خيـامهم دار الشرقيون عـلى اعقابهم وولوا ادبارهـم ولاذوا بالفرار. ولكن لم يلاحقهم احد لفترة طـويلة اذ ان عدد الملاحقين كان قليلا.

١٣) لقد هجروا خيامهم في السهل وكل متاعهم للفرنجة ولكنهم اخذوا معظم خيـولهم عـدا التي اصيبت بجـراح وبعض التي هلكت عـطشـا في الفـرار، وحصلنا[١١٣] على كثير من الجمال والحمير. وهلكت كثير من الدواب في فرارها اما من الجراح او من شدة العطش.

١٤) حقا لقد كـان من الصواب والعـدل ان يخرج اولئـك الذين حمتهم خشبـة صليب الرب منتصرين على اعداء ذلك الصليب. والحق انه لو كان الملك قد حمل الصليب الكريم معه في المعركة السابقة فلا يجوز الشك عندها بأن الرب كان قد عطف على قومه.

١٥) ولكن هنالك بعض النـاس الذين يثقـون بقوتهم اكـثر من ثقتهم بالـرب، ويثقـون اكثر من الضرورة بصـواب رأيهم ويزدرون مشـورة العقـلاء[١١٤] انهم يفـترضون انهم يستـطيعون اداء مهـامهم على عجـل دون روية. وعليـه فـإن ضررا بالغا قد يتأتى لا عليهم فحسب بل على الكثـيرين من الذين يشـاركون في ذات المهمة. ولهذا السبب اعتـاد مثل هؤلاء النـاس على ان يلقـوا الملامـة على الرب بدل ان يدركوا حماقة انفسهم.

١٦) ذاك الذي يبدأ امرا بحماقة لا يفكر بالعواقب "الفرس معد ليـوم الحرب. اما النصرة فمن الرب" (امثال ٢١ : ٣١) اذا لم يسمع الرب صلاة الصالحين دائما، اليس من الاحرى ان لا يسمع صلاة الاشرار؟ بل كيف يستطيـع المرء ان يلوم الله اذا لم تتحقق امنيته على الفور؟ ولماذا يجب الاصغـاء لمن لا قيمة له؟ او لا يعلم الله ما يجب عمله في جميع الامور؟

١٧) يقول بوتيوس بهذا الصدد: "مع انك ترى آمـالك تقصر عن الانجـازات الا ان هنـاك نظامـا عادلا لـلامور، والنـظام الفـاسـد هـو نتيجـة تشـوش في عقلك. ولكن الـرجـل الاحمق يتـوقـع تحـولا في الحظ بـدل ان يتـوقـع مـا يستحق". وكثيرا ما يرى المرء شرا في أمـر يعود عليـه بالنفـع فيما بعـد. ومن النـاحية الاخـرى فإن مـا يسبب فلاحـا للمرء قـد يعود فيـما بعد ويسبب لـه احباطا كثيرا.[١١٥]

١٨) عندما انتهت المعركة، وانتصر الملك كما ذكرنا، حمل خيامه وعاد الى يافا. وبعد ذلك عمّ السلام الارض طوال الخريف والشتاء التاليين.[١١٦]

الملك يحاصر مدينة عكا

١) في ربيع عام ١١٠٣م، وبعد ان احتفلنا بعيد الفصح[١١٧] في القدس حسب العادة، تقدم الملك على رأس جيشه الصغير وحاصر مدينة عكا التي تدعى بطلومي ايضا. ولكنه لم يستطع ان يأخذها في ذلك الوقت بسبب مناعة اسوارها وحصانة مواقعها المتقدمة، لا سيما وأن الشرقيين داخلها دافعوا عن أنفسهم ببسالة فائقة. فانسحب الملك بعد ان دمر حصادهم وبساتينهم وحدائقهم وعاد الى يافا[١١٨]

تحرير الامير بيهمند من الأسر

١) سرت في تلك الاثناء شائعة قوبلت بالترحاب عن اطلاق الاتراك سراح اللورد بيهمند من الاسر ببركة الله[١١٩]. وقد اعلن عن طريق رسول كيف فك رهنه من الاسر وكيف استقبل اهل انطاكية بغبطة حاكمهم السابق الذي عاد الآن واستلم مجد تلك البلاد.

٢) ثم ان بيهمند استلم مدينة اللاذقية التي كان تنكريد قد احتلها وانتزعها من رجال امبراطور القسطنطينية. ومنح تنكريد مقابل ذلك تعويضا ملائما وطيب خاطره بلباقة.[١٢٠]

الجرح الذي كاد يقتل الملك

١) في تلك الفترة بينما كان الملك بلدوين يناضل ضد الشرقيين كعادته صادف ان شن هجوما في احد الايام على جماعة منهم. وقد بدأ بالفعل يبتهج توقعا لدمارهم المؤكد، واذا بحبشي يتسلل خلف صخرة مترصدا بلدوين يريد قتله. فأطلق الحبشي قذيفة بشدة اصابت الملك بجراح بالغة في الظهر قرب قلبه ولكن الملك تماثل للشفاء فيما بعد من جرحه المضني[١٢١] لأنه أمن لنفسه

علاجا وعناية.

احتلال مدينة اكّون المعروفة باسم عكا

١) احتفلنا بعيد الفصح[١٢٢] في القدس عام ١١٠٤م بعد ان انقضى فصل الشتاء واينع فصل الربيع. فجمع الملك بلدوين رجاله وانطلق الى عكا ليعيد حصارها. وحضر اهل جنوى هناك بأسطول من سبعين سفينة ذوات منقار. وبعد ان حاصر المسيحيون المدينة بآلاتهم وهجماتهم المتكررة لمدة عشرين يوما دب الرعب في قلوب الشرقيين وسلموها للملك على مضض.[١٢٣]

٢) كانت هذه المدينة في غاية الضرورة لنا لأن فيها ميناء عظيم الاتساع يمكن ان ترسو بين اسواره الآمنة اعداد كبيرة من السفن بسلام.

٣) شعر

"طلعت الشمس تسع مرات في شارة الجوزاء
عندما سقطت عكا التي تدعى بطلومي
في عام الف ومائة واربعة.[١٢٤]
وليست هذه مدينة اكارون التي يدعوها بعضهم عكا
فتلك مدينة فلسطينية وهذه تدعى بطلومي"

٤) بعد ان سقطت المدينة بهذا الشكل قتلوا كثيرا من الشرقيين ولكنهم سمحوا لبعضهم بالحياة واخذوا جميع ممتلكاتهم.[١٢٥]

تدابير بيهمند لعبور البحر الى ابوليا

١) بعد انقضاء فصل الصيف عبر بيهمند البحر في بضع سفن الى ابوليا، اذ اشتد عليه الضيق بسبب كثرة متاعبه.[١٢٦] وذهب معه في تلك الفترة بطريرك القدس السابق ديمبرت وهو رجل حكيم سديد الرأي.[١٢٧]

٢) ذهب بيهمند لكي يعود على رأس رجال من بلاد ما عبر البحر.[١٢٨] وذهب ديمبرت لكي يطلع البابا في روما على شكواه وعلى المظلمة التي لحقت به من قبل الملك. لقد ذهب وحصل على ما ابتغى ولكنه لم يرجع لأنه لاقى حتفه في طريق العودة.[١٢٩]

كيف أسر رجال انطاكية وقتل بعضهم في قتالهم ضد البارثيين

١) في تلك السنة حُرّض جيراننا من البارثيين والميديين والكلدانيين* وجميع سكان بلاد ما بين النهرين، لمهاجمتنا نحن المسيحيين وللتحرش بنا بكل سبيل. وعندما وصلتنا هذه التقارير أعد كل قادتنا العدة لمواجهة الاعداء في ساحة القتال.[١٣٠]

٢) استعد اللورد بيهمند وتنكريد وبلدوين كونت الرها وجوسلين[١٣١] ثم بطريرك القدس ديمبرت واسقف الرها المدعو بندكت[١٣٢] وسرعان ما تأهبوا على رأس حشد من الفرسان والعامة.

٣) زحفوا الى ما بعد نهر الفرات ثم الى مدينة تدعى حران قرب نهر الخابور، وقابلوا كتائب اعدائهم هناك. دخلوا المعركة على الفور قرب الرقة ولكن بسبب جسامة خطايانا اصيب المسيحيون بالتبديد والتشتيت وكان هذا الاشتباك كارثة اشد مما اصابنا في جميع المعارك السابقة كما دلت النتائج.[١٣٣]

٤) وقع اللورد بلدوين كونت الرها، والذي اصبح فيما بعد ثاني ملوك القدس، اسيرا هناك ومعه جوسلين قريبه. كما أسر معه الاسقف السالف الذكر وغرق كثير من الرجال وفقدوا في النهر المذكور. وفقدت خيول وبغال وكثير من الثروات هناك.

٥) غير ان اللورد بيهمند واللورد تنكريد لاذا بالفرار هنا وهناك عبر طرق ومسالك غير مألوفة متجنبين افضل الطرق والممرات، واخيرا تمكنا من الفرار تتملكهما الحيرة والاضطراب.

٦) مات كثير من الرجال مثبتين بطعنات السهام والخناجر. وهكذا فإن اولئك الذين كان بمقدورهم ان يأخذوا حران دون صعوبة لو حاصروها في البدء، لم يقدروا بعد ذلك ان يأخذوها سواء في رحلتهم اليها او خلال عودتهم. وكما ينجم الضرر عن استعمال الخديعة تحت ذريعة الامن في بعض الاحيان، كذلك فإن الخوف والحيطة يعودان بالنفع على الحذر والجبان. فقد قيل قديما (التواني خطر على من استعد للعمل)[١٣٤]

---

* يلاحظ كيف اغفل فوشيه ان يسمي اعداءه بالمسلمين.

٧) يقينا ان عدوين، النزاع والحسد، قد الحقا الضرر بشعبنا في هذه المهمة بل هذه المصيبة. وقد اعتاد هذان العدوان على ان يسقطا الرجال من قمة الثروات التي جمعوها الى حضيض الاملاق. وقد شاهدنا ذلك مرارا وخبرناه بالتجربة ولن أخدع ولن يضللني معسول الكلام، حتى استغرق في تأمل سفاسف الامور.

٨) لقد عادى الفرنجة في هذه الحملة الخطيرة المخيفة بعضهم البعض حتى قبل ان تحيق بهم الكارثة وكأنهم تمنوا ان يفترقوا الطريق ويفضوا الاحلاف التي عقدوا.[١٣٥] حقا ان من يعمل الشر ويتوقع الخير لجاهل اذ ان الله لن يتقبل شيئا اذا قام على النزاع ومن دون محبة. وعليه فإن من العار والجبن أن أهجر صحبة من توجبت علي خدمته (الله) الى ان اقضي أجلي.

٩) ثم ان الله مد يد العون لاسقف الرها، الذي كان مغلولا بالاصفاد في ذلك الوقت. وقد حمله الاتراك اعباء من الادوات والاوعية كما لو كان بهيمة حاملة للاثقال. وقد تم اختطافه من بين ايدي الاتراك بمشيئة الله بعملية اتسمت بالجسارة المذهلة، بمساعدة فارس مقدام غامر بحياته باخلاص، اذ ان هذا الفارس لم يعتبر حياته أعز من نفسه.[١٣٦]

١٠) وهكذا فقد اضطرمت في قلوب كثير من الرجال في هذه الحجة الحماسة لله، وشاؤوا ان يضحوا بهذه الحياة. ساعين ان يموتوا ميتة مكرمة وبذلك ينعمون بالسكينة مع المسيح.

١١) وعلى سبيل المثال اذكر قصة رجل رآه قومنا وسمعوه عندما كنا حول انطاكية، اذ سمع احد الكفار يجدف على اسم الله باحتقار شديد، فهاجت في نفسه الحماسة الملتهبة ليناقضه في القول والفعل فهمز فرسه على الفور وسأل الواقفين حوله متلفها "من شاء منكم ان يتناول عشاءه في الجنة، فليأت الآن ويأكل معي، فإنني موشك على الذهاب هناك".

١٢) ولوح بحربته بحزم واندفع وسط آلاف من الاعداء قاهرا وقاتلا اول من قابله وهكذا هلك في الحال وهو يسبب الهلاك، وواجه حتفه بغبطة يدعمه الايمان والامل وتسنده المحبة. فمن سمع بمثل ذلك؟ لقد مجدته السماء وهو لم يزل مطروحا على الارض.

١٣) من أجل هذا تغتبط السماء ومن فيها. وقد كان ذلك حقا مصدر بهجة وشكران لنا لأن الملائكة ابتهجت باضافة مثل هذا الرفيق لها. فقد كان الرب

قريبا وسمع منه واجزاه بالعطية التي هيأها له، منزلا ابديا (يوحنا ١٤ : ٢) (في بيت ابي منازل كثيرة، والا فإني كنت قد قلت لكم، انا امضي لاعد لكم مكانا).

تحرير الكونت بلدوين والمعركة بينه وبين تنكريد

١) بعد ان بقي اللورد بلدوين مكبلا بالسلاسل لمدة خمسة اعوام، وبعد تبادل الرهائن المختارة تعهد بلدوين مقسما الايمان المغلظة بأن يستردهم، وقد قتل الرهائن حراسهم بالخدعة فيما بعد ونجا بلدوين من السجن.[١٣٧] وقد اعانه على ذلك جوسلين بكل اخلاص.[١٣٨]

٢) ولما رجع بلدوين بعد ذلك الى مدينته الرها لم يستطع ان يدخلها لأن تنكريد ورجاله منعوه من الدخول.[١٣٩]

٣) اخيرا، لأنه كانت من مصلحة بلدوين وجوسلين، وبسبب الاتفاقية التي عقدها بيهمند في الماضي والتي تقضي بأن تعاد بلاد بلدوين له من دون نقاش حينما وكيفما يتم اطلاق سراحه من الأسر، دخل الحليفان في معركة ضد تنكريد، الشريك الثالث.

٤) ولم تطيب خواطرهما استرحامات تنكريد ومناشدته السلام. وجمع جوسلين سبعة الاف تركي واستفز تنكريد، الذي لم يكن مهيئا للقتال، وبمساعدة هؤلاء الاتراك قتل خمسمائة من اتباع تنكريد ومع ان تنكريد اوشك على الهزيمة في بادىء الامر، الا انه بعون الله الذي يطل بوجهه على العدالة دائما بقي منتصرا على ارض المعركة. . . منتصرا بشرف.[١٤٠]

٥) لكن لما رأى رؤساء البلاد مدى الضرر الذي حل بهم، عقدوا المشاورات فيما بينهم ثم توصلوا الى اتفاقية بين الاطراف المتنازعة.

بيهمند يعبر الى بلاد الغال

١) عبر بيهمند الى بلاد الغال[١٤١] وقد وهنت عزائمه كما ذكرنا من قبل لاسباب عديدة[١٤٢]. ومن جملة ما فعل هناك انه تزوج ابنة الملك فيليب[١٤٣] التي تدعى كونستانس واحضرها الى ابوليا. وقد انجبت له صبيين، مات اولهما، وعاش الثاني الذي سمي على اسم ابيه وصار وريثه.[١٤٤]

انتصار تنكريد في قتاله مع الاتراك

١) توفي الكونت ريموند الفارس المبرز في اليوم الثاني من شهر اذار عام ١١٠٥ م في موقعة المنيع امام مدينة طرابلس. وخلفه ابن اخيه وليم جوردان.[١٤٥]

٢) في تلك الفترة لم يفتقر الشرقيون والاتراك لصلافتهم المعتادة، فقد جمع ملك حلب المدعو رضوان[١٤٦] في شهر نيسان جيشا لا يستهان به مما حوله من البلاد. ورفع رأسه باسراف في العنجهية ليدخل معركة مع تنكريد امير انطاكية.

٣) وضع تنكريد مرساة آماله، لا في حشودات الرجال بل في الرب، ونظم صفوفه للمعركة بشكل جيد، وامتطى جواده متقدما نحو العدو بلا توان. ولن اطيل عليكم الكلام؟ اندفع تنكريد ببسالة نحو العدو امام ارتاح. فدب الرعب في قلوب الاتراك بعون من الله وولوا ادبارهم في الفرار. فهربوا ولاحقهم. ومات منهم من لم يقدر على الفرار.

٤) وقد مات منهم عدد لا يحصى، ولكن تنكريد اخذ كثيرا من خيولهم كما انه اخذ راية الملك الهارب. فقد فر هذا منسحقا وقد اخضعت كبرياؤه. وهكذا تمجد الله، الذي يأتي الى عون المؤمنين دائما.[١٤٧]

٥) بعد ان ذكرنا هذه الامور عن رجال انطاكية نعود الان لنعتبر امور رجال القدس.

كيف ارسل ملك بابل (مصر) كل جيشه ضد الملك بلدوين، الذي جهز نفسه ضده

١) يجب ان نذكر الآن انه في تلك السنة بالذات جمع ملك مصر كثيرا من الرجال وارسلهم تحت خدمة حاكم عسقلان ليشن الحرب على المسيحية. لقد ظن ونوى ان يطردنا جميعا من الارض المقدسة.[١٤٨] فقد علم اننا كنا قلة في العدد دون مساعدة الحجاج المعهودة. فاجتمع لذلك في عسقلان فرسان العرب ومشاة الاحباش. وكان معهم اكثر من الف تركي من دمشق، كانوا رماة سهام من الطراز الاول.[١٤٩]

٢) عندما احيط الملك بلدوين علما بذلك جمع كل رجاله وترقب العدو حول يافا. وبحكم الضرورة ذهب الى المعركة كل من عاش في المدن، وكان قادرا على حمل السلاح باستثناء اولئك الذين حرسوا الاسوار في الليل.

٣) ثم دب فينا الخوف والرعب، وخشينا ان يأخذ الاعداء احدى مدننا المجردة من الرجال او ان يذبحوا الملك وقومه في المعركة. حدث ذلك في شهر آب، ولكن تجنب الجانبان المعركة بدهاء فلم نهاجمهم ولم يهاجمونا.

٤) واخيرا وبتوقيت منزل من السماء في اعتقادي، تقدم ذلك الجنس الشرير من عسقلان وابتدأ في الاقتراب منا. لما تبين ذلك غادر الملك يافا وامتطى جواده الى مدينة الرملة.

٥) ولأن "الاقتراب الى الله حسن لنا، وجعلنا السيد الرب ملجأ لنا" (مزامير ٧٣ : ٢٨) ارسل الملك بايحاء من السيد الرب مبعوثا في البحر الى البطريرك(١٥٠) ورجال الكهنوت وعامة الناس في القدس يناشدهم ان يرفعوا الصلوات بكل قواهم سائلين رحمة الله القدير عله يتلطف ويقدم العون من عليائه لمسيحييه وهم في شدة عسيرة.

٦) رفض هذا المبعوث رغم الالحاح الشديد، ان يتقبل اي اجرة، فقد خشي ان لا يقدر على القيام بالمهمة او اذا بقي على قيد الحياة، ان يقبض المكافأة. لقد وثق ان الله سوف يكافئه بطريقة ما على عمله الصالح. وهكذا سارع الى القدس واضعا روحه وجسده بين يدي خالقه. فوصل الى هناك بهداية الرب وأعلن عن مهمته حال دخوله المدينة.

٧) عندما اعلنت الاخبار، أمر البطريرك بأن يقرع الجرس الكبير، وأن يجتمع كل الناس امامه. وقال "ايها الاخوان ايها الاصدقاء، يا خدام الله، انظروا فهذه هي المعركة التي سمعتم بحق انها لا بد واقعة، اذ أعلن المبعوث انها محيقة بنا بدون ريب، ولأننا لن نقدر بدون العناية الآلهية ان نقاوم مثل هذه الحشود، فعليكم ان تتوسلوا الغفران لله، لكي يتلطف برحمته ويسعف ملكنا بلدوين وكل رجاله في كفاحهم المرتقب.

٨) لقد اخبرنا المبعوث ان الملك قد أجّل المعركة للغد، الذي سوف يصادف يوم الرب، اليوم الذي بعث به المسيح من الموت عله اي الملك، يحارب مؤملا اكثر بالنجاح. انه توسل اليكم ان تقدموا لله صلواتكم وعطاياكم عله يستمد القوة ليحارب بثقة اكبر.

٩) وعليه اقضوا عشية العيد هذه حسب تعاليم الرسل، كونوا راسخين في ايمانكم واجعلوا كل اعمالكم من اجل البر والاحسان، وامشوا حفاة في الغد في الاماكن المقدسة من هذه المدينة، كابحين ومذلين انفسكم، مستحلفين الرب الإله بخشوع ان ينجينا من ايدي اعدائه.

١٠) اما انا فسوف اذهب الآن الى الملك، سوف اغادر في الحال وأحث كل من بقي منكم هنا وهو قادر على حمل السلاح ان يحضر معي على الفور. فالملك يحتاج رجالا"

١١) ولن اطيل عليكم بالكلام؟ لقد امتطوا جيادهم وبلغ عددهم مئة وخمسين رجلا بين فارس وراجل. وعند حلول الظلام بادروا بالمسير حتى وصلوا مدينة الرملة عند مطلع الفجر.

١٢) وانقطع من تبقى في القدس بحماسة للصلوات والصدقات والدموع. وداوموا على زيارة الكنائس حتى الظهيرة. منشدين في بكائهم، باكين في نشيدهم، كما فعل الرهبان في الموكب. وقد صليت انا حافي القدمين مع البقية وصام الرجال المتقدمون في السن حتى الساعة التاسعة من النهار، ولم يرضع الاطفال من اثداء امهاتهم الى ان ولولوا من الجوع. ومنحت صدقات جزيلة بالفعل للفقراء. فمثل هذه الاعمال تسر الله وبها يُلهم بأن ينقذنا "لعله يرجع ويندم فيبقى وراءه بركة تقدمه" (يوئيل ٢ : ١٤).

معركة رجال القدس مع الاتراك، والنصر نحرزه بقوة الصليب قدس الاقداس

١) عندما وصل البطريرك الى الرملة كما تقدم، وأطل الفجر يبدد النجوم البراقة.[١٥١] ابتهج الجميع بوصوله والهمهم ذلك الاسراع لقساوستهم للاعتراف بخطاياهم بحق الله والناس. كذلك سارع الرؤساء للبطريرك تواقين لسماع كلمات نافعة منه[١٥٢] وليتحرروا من خطاياهم.

٢) وبعد ان تم ذلك ارتدى البطريرك الثوب الكهنوتي الفخم وأخذ بيديه صليب الرب المجيد الذي يحمل عادة في مثل هذه المناسبات. وعندما تم تنظيم صفوف فيالق الفرسان والمشاة تقدموا نحو الجيش المعادي.[١٥٣]

٣) كان عدد فرساننا خمسمائة، باستثناء اولئك الذين لا يعتبرون فرساننا مع

أنهم امتطوا الخيل ولم يتجاوز عدد مشاتنا الالفين.[١٥٤] وعلاوة على ذلك قدر عدد الكفار بخمسة عشر الفاً بين راجل وفارس. وقد خيموا تلك الليلة في مكان لا يبعد اكثر من اربعة اميال عن الرملة.

٤) عندما شاهدوا الملك متقدما نحوهم في الصبيحة استعدوا للمعركة على عجل. ولكن مخططاتهم احبطت اذ انهم خططوا ان يرسلوا جزءا صغيرا من جيشهم ضد الرملة لكي يخدعوا جيشنا على أنهم قرروا ان يرسلوا الجزء الاعظم الى يافا ليهاجموها ويحتلوها دون علم منا. ولكن لما رأوا الملك راكبا نحوهم بهذه الطريقة جمعوا قواهم على الفور بعد ان احبطت خطتهم.

٥) انقض كل طرف على الاخر دون اي توان. "ثم ارتفع دوي التروس، ومعه حفيف نصول السيوف"[١٥٥] وفي الهجوم الضاري المتبادل صاح كل رجالنا في وجه عدوهم "المسيح يقهر، المسيح يملك، المسيح يحكم" كما صدرت لهم الاوامر.

٦) احاط بنا الاعداء آملين ان يبثوا الفوضى بيننا ويحطمونا كلية، واطلق رماة السهام الاتراك، وهم يدورون حولنا كعادتهم، وابلا من السهام علينا، وبعد ان اتموا مهمتهم كرماة سهام انتضدوا سيوفهم من اغمادها وهجموا علينا بالقتال القريب. ولما رأى الملك ذلك تعاظمت شجاعته واختطف رايته البيضاء من يد احد فرسانه واندفع هناك بقلة من رجاله، واعان اولئك الذين تعرضوا للهجوم.

٧) فشتت، بعون الله، جموع الاتراك بهجومه وقتاله على الفور، ثم عاد ليهاجم الجمع الاعظم من الشرقيين والعرب والاحباش.

٨) ولا اود ان اطيل الكلام عن هجوم وانقضاض الطرفين لانني ارغب في ان اختصر القصة الى حد مقبول. اذ ان الله الكُلي القدرة الذي لا يغفل ابدا عن عبيده. لم يشأ لهؤلاء الكفار ان يدمروا مسيحييه الذين حضروا للقدس من اقاصي البلاد محبة به وتمجيدا لاسمه، وفجأة ازمع هؤلاء القوم الاشرار على الفرار عائدين الى عسقلان.

٩) آه لو وقع سنا الملك، قائد جيشهم في الاسر، كم من الاموال كانت دفعت رهينة للملك بلدوين! ولكن جمال الملك، امير عسقلان الوافر الثروة، لم ينج فقد قتل وسبب موته كثيرا من التعاسة لاولئك الناس.[١٥٦]

١٠) وقد قبض على امير آخر، اصله من عكا، وهو على قيد الحياة.[١٥٧] وقد

اطلق الملك سراحه بعد دفع فدية عشرين الف قطعة نقدا عدا الخيول والاشياء الاخرى.

١١) ثم ذبح الاحباش في ساحة المعركة اذ انهم لم يستطيعوا الفرار. وقيل ان اربعة آلاف من فرسان ومشاة الاعداء قد قتلوا مقابل ستين من رجالنا.(١٥٨) وخلفوا وراءهم خيامهم بين ايدينا، وكثيرا من الدواب، والجمال والحمير.

١٢) ثم حمدنا الله ومجدناه، اذ امدنا بالقوة وجلب على اعدائنا الدمار. آه ما ابدع هذا المرسوم بالحكم الآلهي! نظر بأمر هؤلاء الذين قالوا "سوف نجيء ونقتل كل هؤلاء المسيحيين ونمتلك لانفسنا مساكن الله" (مزامير ٨٣: ١٢)، ولكن الامور لم تحصل هكذا، أيها الكفار، لم تحصل هكذا (مزامير ١ : ٤) "لأن الله جعلكم مثل الجل مثل القش امام الريح" (مزامير ٨٣: ١٣) لكي "يرجفهم بغيظه" (مزامير ٢ : ٥) فقد اقسموا حسب شريعتهم بأن لا يفروا ابدا امام الفرنجة ولكنهم اخيرا وجدوا السلامة في الفرار. لقد آثروا ان يحنثوا بقسمهم على ان يموتوا ميتة عقيمة.

١٣) عاد الملك اخيرا الى يافا مبتهجا، حيث وزع على فرسانه ومشاته المغانم التي كسبوها في المعركة وفعل ذلك بموجب حسابات دقيقة.

اسطول اهل بابل (مصر)

١) كان هنالك اسطول للمصريين امام يافا حتى ذلك الوقت، فقد كانوا ينتظرون هناك لبعض الوقت آملين ان يجدوا كيف ومتى يستطيعون تدميرنا كليا بالبحر وبالبر ويدمرون معنا مدننا البحرية. ولكن عندما أمر الملك بلدوين بحارته ان يلقوا برأس الامير جمال الملك، التي قطعت في المعركة، على سطح احدى سفن العدو، اصابهم هلع شديد وارتعبوا لهذا الاكتشاف ولم يشأوا ان يطيلوا البقاء هناك. وهكذا بعد ان علموا بالمصيبة التي لحقت بقومهم، تراجعوا الى ميناء صور وصيدا تحملهم ريح جنوبية لطيفة.(١٥٩)

٢) وعند عودة هذا الاسطول الى مصر فيما بعد، حلت علينا بركة الله، اذ ان العواصف شتت سفن العدو، وقذفت بها منتكسة الى موانئنا. وقد قبضنا على خمس وعشرين سفينة مليئة بالشرقيين. وابحرت الاخرى وما نجت الا بشق الانفس. وقد كان الله معينا رؤوفا بنا في محنتنا وكشف لنا عن قدرته الكلية.

٣) شعر:
"وعليه فإنني أود ان اعلن للملأ عن تاريخ المعركة
فقد اشرقت الشمس عشر مرات في برج العذراء
عندما أطل البدر على الارض
في سادس يوم من غرة ايلول
منح الكلي القدرة النصر للفرنجة ليبتهجوا
عندما اركن العرب ثم الاتراك والاحباش الى الفرار
فر بعضهم الى الجبال، بينما سقط الباقون صرعى في ساحة المعركة".

الزلزلة

١) قد يطوي النسيان هذه الاعمال ان لم تسجل وتدون اما بسبب الاهمال، او لنقص في مهارة الكتاب او ربما لقلة عدد الكتاب وانشغالهم بمشاكلهم الاخرى، لذلك فقد اثرت انا فوشيه، مع افتقاري للمهارة، وضعفي في المقدرة، ان اشتهر بالطيش والتهور على ان اسمح بأن لا تعلم هذه الانجازات، فدونتها كما شاهدتها بأم عيني او علمتها بالتقصي الدقيق من المصادر الموثوقة.(١٦٠)

٢) وعلاوة على ذلك، فإنني استميح من قارىء هذه السطور ان يعذر بلطفه نقصي في المهارة ويصحح، ان شاء، اسلوبي ان لم يقم بهذا التصحيح، كاتب بليغ. ولكن عليه ان لا يعبث بترتيب تاريخي هذا من اجل اسلوب طنان مزركش وان لا يموه مخادعا حقيقة الاحداث.(١٦١)

٣) بعد هذه الوقائع التي سلف ذكرها شعر كل من كان في القدس منا في اواخر العام بزلزلة عظيمة اصابتنا بهلع شديد. وكان ذلك ليلة عيد ميلاد الرب.(١٦٢)

العلامات التي ظهرت في السماء

١) ظهر شهاب في السماء في عام ١١٠٦م، فأصابنا الخوف لأننا شككنا في أمره. وقد كان في اتجاه غروب الشمس في فصل الشتاء، واطلق شعاعا ابيض براقا كأنه سداد من خيط الكتان مذهل في الطول.

٢) وقد بدأت هذه الاشارة المثقلة بالاحتمالات بالاحمرار في شهر شباط يوم ان اهلّ القمر. وقد سلمنا لله مسألة ما تنطوي عليه من معان غير متظاهرين بالقدرة على التنبؤ.

٣) وقد ظهر ذلك الشهاب كل مساء خمسين يوما او اكثر في جميع بلاد الدنيا. ومن عجائب الامور ان الشهاب نفسه وشعاعه الابيض بدأ يخبو، منذ ان بدأ في الظهور، شيئا فشيئا كل يوم الى ان فقد قوته الضوئية في اواخر ايامه وانقطع عن الظهور كلية. (١٦٣)

٤) وسرعان ما شاهدنا في اليوم العشرين من الشهر ذاته بعد ظهور القمر(١٦٤) من الساعة الثالثة وحتى الظهيرة شمسين في السماء واحدة الى يمين، والاخرى الى يسار، الشمس الحقيقية. على انهما لم تطلقا اشعة مثل الشمس الفعلية. بل توهجتا بخفوت شكلا ونورانية، وعلاوة على ذلك ظهرت حول هاتين الشمسين دائرة بيضاء ممتدة كالمدينة. وفي داخل هذه الدائرة تألقت نصف دائرة شبيهة بقوس القزح، وكان لها اربعة الوان مختلفة، وقد عانقت الشمس في الطرف العلوي من منحناها حتى انها لمست الشمسين الاخريين المذكورتين سابقا. (١٦٥)

٥) ثم شوهد في الشهر التالي، في منتصف الليل، وابل من النجوم يتساقط من السماء(١٦٦)

حرب المسيحيين ضد اهل دمشق

١) في الصيف التالي(١٦٧) شن هيو، حاكم مدينة طبريا في ذلك الوقت حربا على عسكر دمشق. وبعد ان هزموه مرتين في المعركة، قدر له الله الانتصار في الهجوم الثالث، فقتل منهم مائتين واحتفظ بجيادهم. ولاذ بقية الاعداء بالفرار. ما ابدع ان يسرد المرء هذه القصة فقد شتت مائة وعشرون رجلا اربعمئة منهم. (١٦٨)

٢) وقد اصيب هيو فور ذلك بسهم قتله وهو في حملة مع الملك بلدوين في المنطقة ذاتها. (١٦٩)

كيف عبر البطريرك البحر الى روما، والمعركة ما بين رجال يافا ورجال عسقلان

١) في عام ١١٠٧ م، عبر البطريرك المدعو افريمار البحر الى روما ليستفسر من الكرسي الرسولي عما اذا كان سيحتفظ بمركزه كبطريرك[١٧٠] اذ ان ديمبرت، كما ذكرنا سالفا، كان قد استعاد منصب البطريركية ولكنه توفي في طريق العودة.[١٧١]

٢) اخيرا، في شهر تشرين الثاني من السنة نفسها، نصب رجال عسقلان، اذ اغتلت فيهم وحشيتهم المعتادة، الكمائن في سفوح الجبال بين الرملة والقدس. كان هدفهم ان ينقضوا ويقبضوا على جماعة من قومنا علموا بأنهم اوشكوا على الذهاب من يافا الى القدس.

٣) ولكن عندما علم رجال يافا بذلك، امتطوا جيادهم على الفور، وما ان وصلوا الى موقع الكمين، بعد ان قادهم اليه مُبلغ الخبر، وقد كانوا في شك حتى تلك اللحظة من انه اخبرهم الحقيقة، حتى دب فيهم الرعب واشتد خوفهم اذ ابصروا العدو. فقد كان عدد اهل عسقلان قرابة خمسمئة فارس والف راجل، بينما لم يزد عددهم هم عن خمسة وستين من رجالنا.

٤) لم تتيسر لهؤلاء فسحة من الزمن ليتدبروا امرهم، فلم يكن لهم في الفرار نجاة، والموت لا بد مدركهم ان هم حاربوا فاختاروا طوعا ان يموتوا بشرف اذا اقتضى الامر على ان يعابوا لفرارهم فيما بعد. لذلك شنوا هجمة مباغتة، مخترقين صفوف العدو بطريقة مذهلة، وطرحوا اعداءهم ارضا وذبحوهم، ولما رأى الشرقيون فداحة خسارتهم في هذه المعركة خذلتهم الشجاعة، وبمشيئة الله، توقفوا عن القتال.

٥) لما لاحظ جنودنا ذلك شددوا الضغط على الشرقيين، فأجبروهم على الفرار بعد ان حسبوا انهم سيجبرون رجالنا على الفرار، وقتلوا كثيرين منهم واستولوا على كثير من جيادهم. ولم نفقد اكثر من ثلاثة من رجالنا. على ان تابعي معسكر العدو سرقوا بعض الدواب المحملة، ولكن رجالنا انتزعوا ضريبة مضاعفة منهم.

كيف جمع بيهمند جيشا ودمر بلاد الامبراطور

١) في العام ذاته وبعد ان رجع بيهمند من بلاد الغال، جمع اكثر ما استطاع من الرجال، وجهز اسطولا في ميناء برنديزي في ابوليا. وقد ركب الرجال

السفن، بعد انتظارهم للريح المواتية للعبور، في اليوم السابع قبل منتصف تشرين الاول. وابحروا الى بلغاريا ووصلوا اليابسة في ميناء اڤلونا.(١٧٢)

٢) وبعد ان احتلوا ميناء اڤلونا بسرعة، اتجهوا الى مدينة دور ازو وحاصروها في اليوم الثالث قبل منتصف تشرين الاول.(١٧٣) ولما كانت المدينة مزودة جيدا بالرجال والمؤن فقد احبطت المحاصرين لمدة طويلة.(١٧٤) وقد كان مع اللورد بيهمند خمسة آلاف فارس وستون الف راجل.(١٧٥) اذ لم يسمح هو ايضا للنساء بالعبور معه لئلا يشكلن عائقا وعبئا على الجيش.(١٧٦)

٣) كان امبراطور القسطنطينية، المدعو الكسيس، قد اصبح في ذلك الوقت معاديا لقومنا. وقد احبط وأرعب حجاجنا بالخديعة او بالعنف السافر وهم في طريقهم الى القدس برا أو بحرا. وقد كان ذلك سبب غزو بيهمند لبلاد الكسيس، محاولا اخذ مدنه وقلاعه.(١٧٧)

السلم بين الامبراطور وبيهمند ـ وحلف الايمان لحفظه

١) في عام ١١٠٨ بعد ميلاد سيدنا المسيح، وبعد حصار دام مدة عام كامل، فشل بيهمند في انجاز اي شيء. وحضر خدعا حربية ضد الامبراطور، كما فعل الامبراطور ضده. اخيرا وبعد بحث معاهدة عن طريق الوسطاء، وبعد ان اقترب الامبراطور على رأس جيشه من بيهمند، ربطت اواصر الصداقة بينهما بعد عدة مؤتمرات.

٢) وعد الامبراطور، بعد ان اقسم على الاثار المقدسة النفيسة ان يؤمن منذ ذلك اليوم فصاعدا سلامة الحجاج، الذين تكرر ذكرهم في المباحثات، وان لا يصيبهم اي اذى بالبر او بالبحر على مدى امتداد سلطة الامبراطور، وان لا يؤسر او تساء معاملة اي واحد منهم. واقسم بيهمند بدوره ان يحافظ على السلام والولاء للامبراطور في جميع الامور.(١٧٨)

٣) ثم عاد بيهمند بعد ذلك الى ابوليا عندما سنحت الفرصة على رأس مجموعة قليلة من جيشه(١٧٩) بينما سار القسم الاعظم من الجيش الى القدس بحرا حيث اقسموا ان يذهبوا.(١٨٠)

٤) توفي فيليب ملك فرنسا في تلك السنة.(١٨١)

حصار مدينة طرابلس

١) في عام ١١٠٩م وبعد الاستيلاء على مدينة القدس باحدى عشرة سنة [١٨٢] اتى بيرتراند ابن الكونت ريموند[١٨٣] الى طرابلس محضرا معه اهل جنوى واسطولهم المؤلف من حوالى سبعين سفينة ذات مناقير[١٨٤] ونزلوا الى اليابسة هناك[١٨٥] وقصد بيرتراند ان يحاصر هذه المدينة ويمتلكها بحق الوراثة عن والده.

٢) وقد دب النزاع فور حصار المدينة بين بيرتراند وقريبه وليم جوردان الذي كان يهاجم المدينة طيلة الوقت منذ وفاة الكونت ريموند والذي كان يقطن في قلعة قرب طرابلس تدعى جبل الحاج.[١٨٦]

٣) قال بيرتراند "ان المدينة لي بحق الوراثة الشرعي عن والدي الذي بدأ اصلا بمهاجمة طرابلس، وبنى هذه القلعة الحصينة التي تدعى جبل الحاج، لكي يحاصر المدينة، وقد اوصى لي في حياته بمدينة طرابلس لامتلكها بعد وفاته".

٤) بينما قال وليم "بل يجب ان تكون المدينة لي، وبحق لأنني كبحت جماح سكان البلاد المعادين، منذ وفاة الكونت ريموند، بقواتي الخاصة، وجاهدت وكافحت لكي اضم الاراضي المجاورة للمدينة".

٥) ولما كانت العظمة تجنح الى الاضمحلال اثناء النزاع، كما تنمو التفاهة اثناء الوئام[١٨٧]، فإن وليم انسحب من الحصار لشدة الكراهية. على ان بيرتراند قام بتشديد الحصار مع رجاله فلم يشأ ان يصيب وليم النجاح، ولم يشأ هذا الاخير ان يبقى بيرتراند على قيد الحياة.

٦) "لقد كافحوا من أجل امور مشكوك بها، وشكوا بأمور مؤكدة لا ريب فيها[١٨٨] لقد ناضلوا من اجل متاع الدنيا لا من اجل القيم الابدية ومن يسرع راكضا قد لا يجني اي شيء، لذلك تبقى الغنيمة غير مؤكدة "فاذا ليس لمن يشأ ولا لمن يسعى بل لله الذي يرحم" (رسالة بولس الرسول الى اهل روميه ٩: ١٦) فقد بدأوا قبل ان يستولوا على المدينة بالتناحر على ما املوا ان يستولوا عليه. وباذن من الله تمضي الاوقات "والرب يعرف افكار الانسان انها باطلة" (مزامير ٩٣: ١١).

الاستيلاء على مدينة طرابلس

١) بعد ذلك بفترة وجيزة، وصل الملك بلدوين الى الحصار. وقد توسل من اهل جنوى ان يعينوه على الاستيلاء على عسقلان وبيروت. وكذلك صيدا خلال ذلك العام.(١٨٩)

٢) وحصل انه ما ان بدأ بلدوين باحلال السلام بين الكونتين السابقي الذكر، الا وقتل وليم جوردان اثر حادث لا افهم كنهه. فقد أصيب بسهم صغير من كمين بينما كان راكبا في بعض الليالي. وتساءل الجميع عمن قام بهذا العمل ولكن احدا لم يستطع ان يكتشف الفاعل. وقد اصيب البعض بالفجيعة، بينما ابتهج البعض الاخر. وندب بعضهم وفاة صديق، بينما فرح الاخرون لموت عدو، وبقي بيرتراند تابعا امينا للملك بلدوين.(١٩٠)

٣) ثم اطبق الحصار على المدينة من جميع النواحي. وقد بذل من كان خارجها الجهد العظيم، واصيب من كان داخلها بالضيق الشديد. ولما ضاق الحصار على الشرقيين وفقدوا الامل في النجاة، تم الوصول الى اتفاقية اقسم عليها بالايمان، وصدق عليها الملك. ونصت على ان لا يقتل الشرقيون بل ان يذهبوا حيث شاؤوا دون ممانعة. وبهذه الاتفاقية سمح للملك ورجاله ان يدخلوا جزءا من المدينة.

٤) ولكن في اثناء حدوث ذلك، اندلعت فتنة وشغب في صفوف العامة من اهل جنوى لامر ما. فتسلقوا الاسوار بالحبال والسلالم ودخلوا المدينة وقطعوا رأس اي شرقي صادفوه. على ان الحماية قدمت لاولئك الذين كانوا على مقربة من الملك بموجب الاتفاقية التي عقدها.(١٩١)

٥) شعر

"سطعت الشمس في برج السرطان لثلاثين يوم ينقصها ثلاثة.
عندما اخذ رجالنا المحاربون ببأسهم مدينة طرابلس.(١٩٢)

الاستيلاء على مدينة بيروت

١) في عام ١١١٠م، بينما اقعد شهر شباط البلاد بأمطار الشتاء شرع الملك

بلدوين في المسيرة الى مدينة بيروت وضرب عليها الحصار. وحضر الى معونته بيرتراند كونت طرابلس وعسكر جيش بيرتراند في معلم المرحلة الاولى من المدينة.

٢) وبعد ان حاصروا المدينة من جميع النواحي لمدة خمسة وسبعين يوما على ما اقدر وبعد ان حاصرت سفننا داخل المرفأ تلك المراكب التي احتشدت هناك لاسداء العون للعدو، قرّب الفرنجة الابراج الخشبية من السور وقفزوا بشجاعة فائقة منها الى السور بسيوف مشرعة، ثم هبطوا الى المدينة بينما دخل عدد كبير من رجالنا من الابواب. وطاردوا العدو الشارد بحماسة. واخيرا اخضعوا اولئك الذين وجدوهم مقطوعين معزولين هناك وجردوهم من اموالهم.(١٩٣)

شعر

٣) في عام الف ومائة وخمستين
قهرت بسالتنا مدينة بيروت الجبارة
وقد صعدت الشمس ضعف العشرة في برج الثور
وثلاث واربع مرات اكثر عندما وقعت هذه الحادثة".(١٩٤)

كيف شرع الملك بلدوين والامير تنكريد بالمسيرة نحو الاتراك الذين حاصروا الرها

١) عندما تمت هذه الامور(١٩٥) رجع الملك الى القدس ليقدم الشكر لله الذي منحه النصر(١٩٦) ثم بدأ التجهيز للزحف على الاتراك الذين كانوا يحاصرون الرها، وهي مدينة في بلاد ما بين النهرين.(١٩٧)

٢) وفي ذلك الوقت شاهدنا لعدة ليال شهابا تمتد اشعته نحو الجنوب.(١٩٨)

٣) جمع تنكريد انذاك ما استطاع من الرجال في انطاكية وانتظر الملك عدة ايام وقد اجتمعت قواتها المشتركة امام نهر الفرات.(١٩٩)

٤) وقد واجهوا فور عبورهم النهر الاتراك الذين كانوا ينشدونهم، وكان الاتراك قد ارسلوا العصابات تطوف البلاد متطلعة لوصول الملك. ولكن الاتراك لم يجرؤوا على الدخول في المعركة علما منهم ببراعة فرساننا في القتال وروعتهم في الفتك بالحراب. فأركنوا بحذق الى الفرار فلا هم تجاسروا على

القتال ولا هم رغبوا في العودة الى بلادهم.

٥) حاول الاتراك، لعدم رغبتهم في القتال، ان ينهكوا قوى رجالنا على مدى ايام طويلة بخداعهم المضني. وبعد التأمل فيما تقتضي الضرورة وفي افضل ما يمكن عمله امد الملك مدينة الرها بالمؤونة التي اشتدت حاجة المواطنين لها. ذلك لأن الاتراك كانوا قد دمروا البلاد المجاورة وسلبوا القرى والفلاحين الذين كانوا يزودون المدينة المذكورة بالغذاء.

٦) لم يمكث الفرنجة طويلا اثر ذلك، بل رجعوا الى النهر السابق الذكر، وبعد ان عبروا النهر تدريجيا على ارمات خشبية صغيرة قليلة العدد انقض عليهم الاتراك الماكرون النهابون هناك. وأسروا كثيرا من المشاة من قومنا وحملوهم الى بلاد الفرس، وخاصة الارمن الذين لا حول لهم والذين كانوا قد نهبوهم بخسة من قبل.[٢٠٠]

٧) ولصعوبة عبور النهر في ذلك الوقت، استمر الفرنجة في طريقهم المحددة تملأهم الفجيعة، وذهب تنكريد الى انطاكية بينما عاد الملك الى القدس.

كيف حاصر الملك بلدوين والنرويجيون مدينة صيدا التي تدعى ايضا ساجيتا واستولوا عليها

١) في تلك الاثناء وصل الى اليابسة عند يافا قوم من النرويجيين الهمهم الله بأن يقوموا بالحج من البحر الغربي الى القدس. وكان في اسطولهم خمس وخمسون سفينة. يقودهم فتى عظيم الوسامة يمت بصلة القرابة الى ملك تلك البلاد.[٢٠١]

٢) عندما عاد الملك الى القدس، اثلج صدره لمقدم هؤلاء القوم. وتبادل معهم اطراف الحديث بود، يحثهم بل يتوسل اليهم ان يبقوا، محبة بالله، في الاراضي المقدسة لفترة وجيزة ليقدموا العون من اجل نشر وتعظيم اسم المسيحية. واذا ما احرزوا انجازا للمسيح، فبوسعهم ان يعودوا بعد ذلك الى بلادهم، مقدمين وافر الشكر لله.

٣) استلموا الطلب بعين الرضى، وأجابوا بأنهم ما حضروا الى القدس الا لهذا الغرض. وقالوا انهم سيبحرون بسرور الى اي مكان شاء الملك ان يذهب اليه مع رجاله على ان يقوم هو بتزويدهم بما يلزم لمعيشتهم. منح طرف هذا التنازل، وصدق عليه الطرف الاخر.

٤) كان هناك ميل للزحف على عسقلان في البدء[٢٠٢] ولكنهم اخيرا تبنوا مشروعا اكثر مجدا، ان يتقدموا نحو صيدا ويحاصروها. وحرك الملك جيشه من بطلومي، التي تدعى عادة عكا، وتقدم النرويجيون بالسفن من يافا.

٥) في تلك الفترة كان اسطول امير[٢٠٣] مصر يكمن مختبأ في مرفأ صور. وقد شن منها الشرقيون مرارا غارات قرصانية على حجاجنا المسيحيين، وهكذا قدموا الحماية والتشجيع للمدن البحرية التي كان يمتلكها ملك مصر الى ذلك الحين. ولكن لما سمع الشرقيون باخبار النرويجيين لم يجسروا على الخروج من مرفأ صور والدخول في معركة معهم.

٦) لما وصلوا الى صيدا، حاصرها الملك من البر وحاصرها اهل النروج من البحر. وعندما اكملت آلات الحصار دب الرعب في قلوب الاعداء داخل الاسوار، حتى ان الحامية من المرتزقة توسلت للملك بلدوين ان يسمح لها بالذهاب بأمان، واذا ما أحب فله ان يستبقي في المدينة الفلاحين لفائدتهم في زراعة الارض.

٧) ذلك ما نشدوا، وذلك ما أحرزوا، فغادر الجنود المرتزقة دون رواتبهم، وبقي الريفيون بأمان تحت الشروط المذكورة اعلاه.[٢٠٤]

شعر
"طلعت الشمس تسع عشرة مرة في برج القوس
عندما اخذوا مدينة صيدا في كانون الاول"[٢٠٥]

اضطرابات الاتراك الشريرة وحملة الملك بلدوين وتنكريد عليهم

١) في عام ١١١١م[٢٠٦] انطلقت حشودات هائلة من الاتراك (المسلمين) من بلاد فارس، ومروا في بلاد ما بين النهرين وعبروا نهر الفرات ثم حاصروا القلعة التي تدعى تل باشر، ومكثوا هناك شهرا.[٢٠٧]

٢) ولما لم يقدروا على الاستيلاء عليها فورا، لمناعة موقعها، ضاق صدرهم بسبب التأخير، وفكوا الحصار منسحبين الى ضواحي مدينة حلب، ذلك لأنهم خططوا بدهاء ان يستفزوا تنكريد لكي يخرج لقتالهم وان فعل فبامكانهم لكثرة اعدادهم ان يوقفوه ويدمروه كليا بعيدا عن انطاكية.[٢٠٨]

٣) ولكن تنكريد قابل الدهاء بالدهاء اذ لم تدخل بمخيلته ان يعرض سمعته

للشبهة بارتكاب افعال هوجاء. وارسل مبعوثا للملك بلدوين متوسلا اليه بكل تواضع ان يسارع لمد يد العون للقضية المسيحية. ولما سمع الملك ذلك وعد بتقديم العون المطلوب. فأودع بلاده لقيمين عليها وبادر الى الحرب، آخذا معه بيرتراند كونت طرابلس.

٤) عندما وصلوا البلدة التي تدعى رفية، قرب رصة، كان تنكريد هناك[٢٠٩] وكان في انتظار الملك لمدة خمسة ايام واستقبله بغبطة وفرح، فأفرغوا حمولتهم وضربوا خيامهم قرب نهر فيرنوس، وشارك رجال القدس رجال انطاكية في معسكرهم.[٢١٠]

٥) لم يتأخروا هناك بل زحفوا نحو مدينة افاميا، وكانت تحت سلطة تنكريد الذي كان قد استولى عليها في السابق بطريقة فائقة البسالة.[٢١١]

٦) ثم تقدموا نحو الاتراك الذين عسكروا امام المدينة التي يدعونها سيارا. ولا اعرف كيف ادعوها بشكل نحوي سليم ولكن سكان البلاد كانوا يدعونها "شيزر" وهي تبعد حوالى ستة اميال من افاميا.[٢١٢]

٧) ومع ذلك فإن الاتراك، لأنهم سمعوا الان ان الفرنجة كانوا يتقدمون نحوهم، خبأوا أنفسهم في شجيرات وتحصينات المدينة السالفة الذكر. وذلك لكي يحكموا الدفاع عن انفسهم اذا ما احاط بهم الفرنجة وانقضوا عليهم. وبالرغم من ذلك فقد انبعثوا من تحصيناتهم المذكورة عندما رأوا جنودنا يقتربون منهم وأروا انفسهم لرجالنا. ولكنهم لم يجرؤوا ان يحاربوا ولا شاءوا ان يفروا.

٨) اصطف جنودنا في فصائل وعندما شاهدوا الاعداء يتراكضون هنا وهناك في البلاد دون تحضير للمعركة، احجموا عن مهاجمتهم غير راغبين في المخاطرة. وهكذا تحت تأثير الخوف، ولدهاء الطرفين ، بقي الاتراك هناك. وعاد رجالنا من حيث أتوا.

٩) ولما شح الغذاء للرجال والدواب، لم يستطع الفرنجة ان يطيلوا بقاءهم. فعاد الملك الى القدس وكنت معه، وعاد تنكريد الى انطاكية[٢١٣]

حاصر الملك صور ولم ينجز شيئا

١) بعد ذلك على الفور سارع الملك بتجهيزاته وتقدم نحو صور التي تدعى بالعبرية "سور" وحاصرها. وبعد ان شدد الضيق عليها بحمية لاربعة اشهر

ونيف انهكه ورجاله التعب والاعياء، وانسحب بتردد من هناك.[٢١٤]

٢) كان قد امر بتشييد برجين خشبيين اعلى من السور، وحركهما قرب السور آملا بذلك ان يستولي على المدينة. ولكن الشرقيين، وقد شعروا بأن في ذلك حتفهم، هزموا المهارة بالمهارة وعارضوا الدهاء بالدهاء وخدعوا الشجاعة بالشجاعة.

٣) عندما رأوا ان علو الابراج يفوق ارتفاع الاسوار بكثير، ابتكروا الدواء على عجل وبنوا برجين فوق اسوارهم خلال الليل. وقد مكن علو هذين البرجين الشاهق الشرقيين من ان يدافعوا عن أنفسهم دفاعا حسنا باشعال النار من فوق والقائها على برجينا القصيرين.[٢١٥] وهزم جنودنا بهذه البلية وغمرهم اليأس وعندما انقطعت آخر حبال الامل، عاد الملك الى عكا.

٤) ان المثل المألوف "كم من زلة بين الكأس والشفة" لصادق جدا، قبل ذلك الحين كان قومنا يوزعون الغنائم التي توقعوا ان ينالوها وقبل ذلك الحين شك البعض بغيرهم لحصتهم المريبة، وقبل ذلك الحين حسبوا ان يوم الاستيلاء على المدينة واقع لا ريب فيه "قال سليمان الفرس معد ليوم الحرب أما النصر فمن الرب" (امثال ٢١ : ٣١) في غضون ذلك يضع الناس ثقتهم بقوتهم غير مدركين ما يدينون به لله. وكثيرا ما يناشدونه بأفواههم وينسون الاعمال الصالحة. ويتفاخرون بفضائلهم في انتصاراتهم اكثر من تمجيدهم لمنحة رحمة الله.

وفاة الامير تنكريد

١) في عام ١١١٢م، دفع تنكريد الذي حكم امارة انطاكية دينه للموت.[٢١٦]
وقد رأت الشمس شارة البرج ثلاث عشرة مرة مضاعفة.
عندما خضع تنكريد لمن لا يرحم وصار ما كتب عليه ان يكون"[٢١٧]
وخلفه روجر، قريبه[٢١٨] وقد سلمنا من الحروب كلية في ذلك العام.[٢١٩]

الاشارات التي ظهرت

١) في عام ١١١٣م بعد ميلاد الرب، في اليوم الثاني والعشرين منذ بزوع قمر شهر آذار شاهدنا الشمس من الصباح الباكر حتى الساعة الاولى. وعلاوة

على ذلك رأيناها تبهت خابية في أحد اجزائها، واخيرا هبط ذلك الجزء الذي بدأ بالبهوت من أوجها الى قعرها على هيئة مدورة. على ان الشمس لم تفقد سطوعها الذي لم يتضاءل في اعتقادي الا في احد ارباعها الذي ظهر بشكل هلال صغير.[٢٢٠]

شعر:

ذاك كان كسوفا وهكذا جعل الشمس تخذلنا.

المعركة ضد الاتراك، التي هزم فيها الملك والمسيحيون ونتج عنها شر عظيم

١) ثم حشد الاتراك في ذلك الصيف قواتهم وعبروا نهر الفرات لكي يتقدموا لبلاد القدس، وكما ظنوا، ليدمرونا نحن المسيحيين[٢٢١]. وغادروا منطقة انطاكية عن يمينهم وقطعوا سوريا بين صور وقيصرية فيلبي التي تدعى بانياس[٢٢٢] نحو مناطق فينيقيا، وقصدوا ان يهاجموا الملك بلدوين. ولكنه سمع بقدومهم وزحف على رأس جيشه من عكا لمواجهتهم.

٢) وبعد ان تزودوا بما ظنوه نافعا لهم، وبينما كنا نحن في جهل عما يقصدون، داروا حول بحيرة طبريا عابرين مناطق نافتالي وزبيلم نحو الجهة الجنوبية من البحيرة المذكورة.[٢٢٣] وهناك وجدوا انفسهم بين جدولين يدعيان جور ودان[٢٢٤].

٣) هنالك جزيرة تقع بين جسرين في هذا الموقع[٢٢٥] وقد كانت جد حصينة فلا يقدر احد ان يهاجم من اتخذ موقعا فيها بسبب ضيق مداخل الجسرين. وعندما ضرب الاتراك خيامهم، عاجلوا بارسال الفي رجل عبر احد هذين الجسرين ليعدوا كمينا لرجالنا. فقد كانوا واثقين من ان هؤلاء سيندفعون نحو ذلك الموقع بلا تردد.

٤) وعندما حضر الملك ليقيم معسكره قرب الجسر المذكور المفضي الى طبريا، شاهد نحو خمسمئة من الاتراك ينقضون من مكمنهم ليهاجموا رجالنا وقد حمل بعض هؤلاء بطيش على الاتراك ولم يترددوا وهم يقتلونهم في ان يلاحقوا اعداءهم الى موقع الكمين. وهنا اندفع الفان من رجال العدو من مخابئهم، وردوا رجالنا بهجوم عنيف، وبعثروهم بعدما قتلوا منهم ثلاثة اضعاف ما خسروا هم انفسهم.[٢٢٦]

٥) يا للتعاسة الكبرى! لقد جلبت خطايانا في ذلك اليوم خزيا عظيما. وفر الملك فاقدا رايته وخيمته الفاخرة وكثيرا من المفروشات والاوعية الفضية. كما فر ايضا البطريرك الذي كان هناك. وخسرنا قرابة ثلاثين من افضل فرساننا وحوالي الف ومائتين من مشاتنا.[٢٢٧]

٦) "طلعت الشمس ثلاثة اضعاف الاربعة في برج السرطان
عندما بعثر هذا الجنس الذي لا دين له الفرنجة غير الحذرين.[٢٢٨]

٧) ولكن لم تكن جميع قوات الملك قد وصلت بعد الى هناك. وعلى الاخص، لم يكن هناك روجر امير انطاكية وابن ريتشارد، وكان قد استدعي باسم محبة الله والملك، وقدم على عجل من انطاكية. وكان بعض رجال طرابلس قد انضموا الى الجيش الملكي قبل الان. واصيب الجميع بيأس عظيم وشجبوا بيأس صفاقة الملك في اندفاعه نحو العدو بطيش وعشوائية دون انتظار للمشورة والعون.[٢٢٩]

٨) ولما لم يكن بمقدور رجالنا ان يوقعوا اي ضرر بالاتراك، عسكروا غير بعيدين عنهم وهكذا راقب كل طرف الاخر طيلة ذلك النهار.

٩) كان قائد الاعداء يدعى مودود، وقد الحق بنفسه طغتكين[٢٣٠]، ملك دمشق حليفا له. وقاد الاول قوة هائلة وجمع الاخر حشودا لا تحصى من اجزاء سوريا التابعة له.

١٠) كان الاتراك في الاراضي المنخفضة بينما اقام الفرنجة في المرتفعات.[٢٣١] لم يجرؤ الاتراك على ان يخرجوا من جزيرتهم. ولم تقدر الفرنجة على مهاجمتهم. فخطط احد الطرفين، وخاف الطرف الثاني، وكان احد الطرفين ماكرا بينما كان الطرف الثاني منهكا،

"وقد اثقلت حرارة الصيف الوطأة على الطرفين،
ولكنهما لم يقدرا على وضع حد لذلك العذاب"

١١) تساءل الفرنجة الغائبون لماذا طال تأخر الذين كانوا هناك. وهجرنا الشرقيون التابعون لنا، وحصرونا كاعداء لنا، من كل ناحية، وعلاوة على ذلك، خرجت عصابات من الاتراك من جيشهم ليدمروا بلادنا ويرسلوا الغنائم والمؤونة لجيشهم عن طريق شرقيينا. اما مدينة شخيم التي ندعوها نابلس، فلم يأخذوها فقط بل دمروها بمساعدة الشرقيين الذين كنا نحكم في الجبال.[٢٣٢]

١٢) بل ان رجال عسقلان، وهم عرب وشرقيون، مع قلة عددهم تقدموا الى القدس. وقد وصلوا في احد الايام الى سور البلد الخارجي واشعلوا النيران في المحاصيل المجمعة هناك. واصابوا بسهامهم بعض رجالنا في متاريسهم على السور بجراح. ولكن كثيرا من رجالهم اصيبوا بجراح قاتلة ولم يكن جنودنا في المدينة لانهم خرجوا لمقابلة العدو. وفي اليوم التالي تراجع اهل عسقلان مما سبب ارتياحا كبيرا لرجالنا الذين ارتاعوا من الحصار على يد هؤلاء القوم.(٢٣٣)

الفزع الشديد الذي ألم بالجميع

١) كاد ان يكون مستحيلا في تلك الفترة، بسبب مصائد العدو، ان يغامر اي مبعوث نرسله للملك او ان يجتاز مبعوث منه لاي مدينة من مدننا. لذلك لم تعرف البلدان ما كان يفعل الملك ولم يستطيعوا ان يخبروه بما هم يفعلون.

"في كثير من الحقول ذبل الحصاد الناضج
ولم يذهب احد الى الحقول ليجمعه" (متى ٩ : ٣٧)*

اذ لم يجسر احد على ان يفعل ذلك. وفي تلك السنة كان الحصاد وافرا، ولكن عندما يهيج البحر يخشى الرجال ان يصطادوا، وأصاب الشك كل شخص بكل امر، وانتظر الجميع ليروا لمن سيعطى الله النصر، وتوقف مسيحيونا عن اعمالهم واشغالهم ما عدا اصلاح الاضرار التي لحقت بالمدن واسوارها.(٢٣٤)

الزلزلة وزواج الملك من الكونتيسة في صقلية

١) في تلك الاثناء شعرنا بزلزلة مرتين وبالتحديد في اليوم الخامس عشر قبل غرة شهر آب، ثم في اليوم الخامس قبل منتصف الشهرنفسه! في المرة الاولى عند منتصف الليل وفي الثانية في الساعة الثالثة.(٢٣٥)

---

* (حينئذ قال لتلاميذه الحصاد كثير ولكن الفعلة قليلون) متى ٩: ٣٧

٢) في اثناء ذلك انتظر الاتراك الماكرون شهرين[٢٣٦] للوقت الملائم لتشريدنا وهزيمتنا، ولكن بدون جدوى لان الحجاج كانوا يصلون في ذلك الفصل كعادتهم عبر البحار، وتكاثر جيشنا يوما بعد يوم. بالاضافة الى ان رجال انطاكية لم يغادرونا. واخيرا انسحب الاتراك الى نواحي دمشق.[٢٣٧]

٣) انسحب الملك بلدوين ورجاله الى عكا حيث وجد كونتسية صقلية. وقد كانت قبلا زوجة الكونت روجر شقيق روبيرت جيسكار. وكان لها الان ان تصبح زوجة الملك بلدوين.[٢٣٨]

٤) وبعد هذه الحادثة بقليل قتل مودود في دمشق على يد احد الشرقيين. وقد خبأ هذا خنجرا تحت عباءته وطعن به ضحيته في معدته. وهكذا ارتكبت جريمة قتل مزدوجة اذ انه قَتل وقُتل في الحال على ايدي الحاضرين.[٢٣٩] ان ذلك النصر الذي يؤدي الى هزيمة المنتصر لسيىء الطالع وهكذا حدث كما ورد في حديث الفلاسفة:

"الحظ من زجاج حين يتألق ينكسر"[٢٤٠]

٥) كان مودود وافر الثروة، عظيم السطوة، وذائع الصيت بين الاتراك. كان شديد الهمة في اعماله ولكنه لم يقدر ان يقاوم ارادة الله[٢٤١] وقد شاء الله ان يسمح له بأن يكون وباء علينا لفترة ما، ولكنه شاء بعد ذلك ان يموت ميتة شنيعة على يد رجل نكرة.

الزلزلة التي شعرت بها اماكن عديدة

١) في عام ١١١٤م زحفت حشود لا تحصى من الجنادب من بعض اجزاء الجزيرة العربية وطارت الى بلاد القدس. وقد اصابوا في بضعة ايام من شهري نيسان وايار محاصيلنا بتلف شديد.[٢٤٢]

٢) وفيما بعد، في عيد القديس لورنس[٢٤٣]، حصلت زلزلة. وبعد ذلك، في منتصف تشرين الثاني دمرت زلزلة في ماميسترا جزءا من تلك المدينة.[٢٤٤]

٣) وكذلك هزت زلزلة كبرى، وكانت اسوأ ما سمعنا على الاطلاق، منطقة انطاكية ودمرت عددا كبيرا من البلدان كليا او جزئيا بما فيها البيوت والاسوار. وقد هلك بعض عامة الناس خنقا بين الاطلال.

٤) يقال ان هذه الزلزلة دمرت مدينة مرعش التي اظنها تبعد حوالى ستين ميلا

شمالي انطاكية وقد دمرت البيوت والاسوار برمتها، واما النـاس الذين عـاشوا هناك فقد هلكوا وأسفاه عن بكرة ابيهم.[٢٤٥]

٥) كما دمرت مدينة اخرى تدعى تريالث على مقربة من نهر الفرات.[٢٤٦]

تجمع الجيش التركي، وحصار اهل يافا عـلى يد اهـل عسقلان وبـابل (مصر)

١) في عام ١١١٥م، استأنف الاتـراك عنفهم ووقاحتهم المعهـودتين، وانسلوا عابرين نهر الفرات في حزيران ودخلوا سوريا وعسكروا بين انطاكية ودمشق، وبالتحديد امام مدينة شيـزر.[٢٤٧] وكانـوا قد اتخـذوا موقعـا مماثـلا هنا لاربـع سنوات خلت كما ذكرنا من قبل.[٢٤٨]

٢) اكتشف طغتكين ذلك وعلم انه لا يقل كمـدعاة لـلاحتقار في نـظر هؤلاء الاتراك عما هو في نظرنا نحن المسيحيين، وذلك لأنه كان مطلعـا غيلة وغدرا على مقتل مودود في العام الماضي كما ذكرنا سابقا.[٢٤٩] وكان مودود هـذا قائـد الجيش الاعـلى. فأحـل طغتكن السلام بينـه وبين الملك بلدوين وروجـر امير انـطاكية. وهكـذا اضيف جيش ثالث لجيشيهـا واقيم ربـاط ثـلاثي اذا جـاز التعبير، لم يستطع الاتراك فصمه بسهولة بعد ذلك. فقد خشي لو بقي منفردا ان يتم تدمير مملكته بأسرها.[٢٥٠]

٣) حضر الملك بلدوين، مدفوعا بحكم الضرورة وبمشورة تلقاها من بعثة من انـطاكية، الى المعـركـة التي ظن انها لا بـد واقعـة. ولكن لمـا سمـع الاتـراك بقدومه على مقربة منهم ظنوا ان ذلك مقدمة لرجال انطاكية ودمشق وذلك مـا كانوا يتوقعون قرابة ثـلاثة اشهـر.[٢٥١] انسحب الاتراك بهـدوء، خائفـين على ارواحهـم اذا ما حاربوا جيشا بهذه الكثرة مع انهم فاقوه كثيراعددا ودخلوا الى الكهـوف التي لم تبعد كثـيرا عنا.[٢٥٢] وعنـدمـا فعلوا ذلـك ظن الملك بلدوين وحلفاؤه ان الاتراك قد غادروا منطقتنا كلية. ولذلك عاد الملك الى طرابلس.

٤) في اثناء هذه الاحـداث، اندفـع رجال عسقـلان لعلمهم ان بلاد القـدس خالية من جنودها الى مدينتنا وحاصروها برا وبحرا.[٢٥٣] وكان هناك الاسطول المصري المؤلف من قـرابة سبعـين قطعـة بحريـة، بعضها ثـلاثية المجـاذيف، وبعضها من السفن المعقوفة وبعضها الاخر محمل بالمؤن لهذه الحملة.

٥) اقترب رجال عسقلان، بعضهم بحرا وبعضهم الاخر برا، مجهزين لمهاجمة

المدينة، وعندما بذلوا جهدا جبارا لتسلق الاسوار بالسلالم التي احضروها معهم، صدهم المواطنون بشدة مع انهم كانوا قلة في العدد، وقد اضعفهم المرض.

٦) على ان اهل عسقلان لما رأوا انهم لم يستطيعوا ان ينجزوا شيئا كما خططوا، سوى ان يشعلوا النيران بأبواب المدينة، خشوا ان يبعث اهل القدس الذين سمعوا بالاخبار العون ليافا، لذلك انسحبوا. وذهب اولئك الذين حضروا برا الى عسقلان وابحر اولئك الذين قدموا عن طريق البحر الى صور.

٧) بعد عشرة ايام[٢٥٤] عاد اهل عسقلان الى يافا ظنا منهم بأنهم ان كانوا على استعداد، فهم اجدر بأن يدمروا عدوهم بهجوم صاعق اذا لم يكن هو على استعداد. ولكن الله الكلي القدرة، حمانا وانقذنا، كما فعل في الماضي. وفي دفاعهم عن انفسهم قتل الفرنجة بعض الاعداء واستولوا على خيولهم، وبدأ اهل عسقلان في حصار المدينة بالمجانيق وحاولوا ان يقتحموها كما فعلوا سابقا بتسلق السلالم التي احضروها بالقوارب الصغيرة. وبعد أن انهكوا قواهم خلال ستة ساعات انسحبوا آسفين يحملون معهم موتاهم.

المعركة بين الاتراك ورجال انطاكية، التي حاز فيها الفرنجة النصر[٢٥٥]

١) على ان الاتراك السالفي الذكر، عندما اكتشفوا ان جيشنا عاد الى بلاده، رجعوا الى مواقعهم السابقة وعاثوا في اراضي سوريا فسادا. فاستولوا على ما امكنهم من القلاع، ونهبوا القرى، ودمروا الارياف، واخذوا الرجال والنساء اسرى.[٢٥٦]

٢) ولما علم رجال انطاكية بذلك، بعد ان انسحبوا، ارتدوا على اعقابهم على عجل وزحفوا نحو الاتراك سالكين الطريق نفسها التي غادروا منها. وعندما اقتربوا من الاتراك، وجدوا ان معسكرهم كان اقرب مما ظنوا، فشكلوا صفوف المعركة على الفور وانحدروا الى منطقة المعسكر، وخيولهم تعدو مسرعة نحو العدو، وراياتهم مشرعة. ونشبت المعركة قرب مدينة سرمين.[٢٥٧]

٣) حين رأى الاتراك الفرنجة، أبدى فيلق رماة السهام من الاتراك مقاومة

ضارية في الحال.[٢٥٨] ولكن روح الحمية والشجاعة الفائقة تأججت في صدور الفرنجة، فآثروا ان يَقهروا اذا ما شاء الله، او يُقهروا اذا ما سمح الله، على ان يحتملوا تحرشات الاتراك هذه كل عام. فحملوا على الاعداء بطريقة مذهلة حيث رأوا تجمعاتهم على أكثفه

٤) قاوم الاتراك في البداية فترة وجيزة، ثم فروا فجأة من اولئك الذين فتكوا بهم واهلكوهم، وقدر عدد القتلى من الاتراك بثلاثة الاف كما أسر الكثيرون. اما الذين نجوا من الموت منهم فقد اركنوا الى الفرار. وفقدوا خيامهم التي احتوت على كثير من الاموال والممتلكات. وقدرت قيمة الاموال بثلاثمائة الف قطعة ذهبية. وخلف الاتراك هناك اولئك الذين كانوا قد اسروا من شعبنا، من الفرنجة والسوريين، كما خلفوا زوجاتهم وخادماتهن من الصبايا وكثيرا من الجمال. وقد تم تعداد آلاف البغال والخيول.[٢٥٩]

٥) حقا ان الله مدهش في كل معجزاته، اذ بينما كان رجال القدس ومعهم رجال انطاكية ودمشق مستعدين للمعركة لم ينجزوا شيئا قط. ومتى كان نصر المقاتلين يعتمد على عدد الرجال؟ اذكر المكابيين وجدعون (المكابين ١ ـ ١١، يهودا ٦ ـ ٨) وكثيرين غيرهم ممن وضعوا ثقتهم لا بقوتهم بل بقوة الله فانتصروا على الالاف المؤلفة.

٦) "وبهذا الوصف سوف تعرف هذه الحوادث للاجيال القادمة.

ومرت ثلاث ليال قبل ان ينقضي برج العذراء

عندما خان الحظ الغادر الاتراك بقسوة.[٢٦٠]

فمن الواضح اذن ان على الجميع ان يخشوا

انه قبل نهاية اي مسألة يجب ان لا يعتبر اي امر مؤكدا".

٧) في تلك السنة دمرت مدينة ماميسترا بزلزلة. وقد اصيبت اماكن اخرى في نواحي انطاكية بما لا يقل عن ذلك.[٢٦١]

٨) في تلك السنة وصل اسقف اورانج، مبعوثا للقدس من قبل كرسي البابوية وعزل البطريرك ارنولف من منصبه. ولهذا السبب ذهب ارنولف الى روما فيما بعد واستعاد بطريركيته.[٢٦٢]

القلعة الذي تم تشييدها في جزيرة العرب

١) في ذلك العام[٢٦٣] ذهب الملك بلدوين الى جزيرة العرب وشيد قلعة منيعة

على قمة جبل صغير وهي لا تبعد كثيرا عن البحر الميت، حوالى مسيرة ثلاثة ايام، وتبعد عن القدس حوالى اربعة ايام. وقد وضع فيها حامية لتتسلط على البلاد حماية لمصالح المسيحيين. وقد قرر ان يدعو تلك القلعة مونتريال تمجيدا لنفسه لأنه بناها في فترة قصيرة، بقليل من الرجال وكثير من الجسارة.(٢٦٤)

حملة الملك الى جزيرة العرب، وما شاهد هناك

١) في عام ١١١٦ م، عندما ذهب الملك مع قرابة مائتي فارس ليزور قلعته ثانية في بلاد العرب، تقدم الى حد البحر الاحمر ليرى ما لم يشاهد من قبل، مؤملا ان يجد شيئا في طريقه قد يرغب في اجتيازه.(٢٦٥)

٢) في ذلك الوقت وجدوا مدينة ايليم على شاطىء ذلك البحر حيث قرأنا ان بني اسرائيل عسكروا بعد ان عبروا البحر.(٢٦٦) وعندما سمع القاطنون هناك بقدوم الملك، انسحبوا وركبوا البحر في قواربهم الصغيرة وقد اصابهم هلع شديد.

٣) وبعد ان تفقد الملك ورجاله المكان كما طاب لهم، عادوا الى القلعة في مونتريال ومنها الى القدس.

٤) وعندما اخبرونا عما شاهدوا، ابتهجنا لسماع حكاياتهم ولرؤية الاصداف البحرية وبعض الحجارة الكريمة التي احضروها معهم. وقد استفسرت منهم انا شخصيا عن ماهية البحر، اذ انني كنت قد تساءلت حتى ذلك الحين عما اذا كان مالحا او عذبا، وهل كانت مياهه راكدة ام هي مثل البحيرة، وهل كانت له مداخل ومخارج مثل بحر الجليل (طبريا) وعما اذا كان محدد الابعاد كالبحر الميت الذي يصب فيه نهر الاردن ولا يخرج منه شيء.(٢٦٧) اذ ان البحر الميت تحده جنوبا زغر مدينة لوط (سفر التكوين ١٣: ١٠، ١٩: ٢٢ ـ ٢٤)(٢٦٨)

البحر الاحمر

١) يدعى هذا البحر بالاحمر لأن الرمل والحجارة في قعره حمراء، فهو يظهر للناظر كأنه احمر. ولكن مياهه رائقة صافية ان وضعت في وعاء، كمياه اي

بحـر آخر. ويقـولون ان هـذا البحر ينبع من المحيط في الجنوب.[٢٦٩] ويمتـد كلسان شمالا الى ايليم، التي ذكرناها، حيث ينتهي على مقربة من جبـل طور سيناء، ويبعد هذا الاخير مسيرة يوم واحد على الحصان.[٢٧٠]

٢) يقدرون ان الرحلة في البحر الاحمر او من ايلات للبحر العـظيم[٢٧١] الذي يبحر فيه المرء من يافا وعسقلان الى دمياط، تستغرق حـوالى اربعة او خمسـة ايام على الخيـل. وتضم المنطقـة ما بـين هذين البحـرين كـل مصر ونميـديـا والحبشـة التي يحيطهـا نهر جيحـون وهـو نهر الجنـة الـذي هـو نهر النيـل كـما قرأنا.[٢٧٢] (التكوين ٢ : ١٣).

نهر جيحون

١) لقـد قرأنـا كيف يخرج نهر جيحـون من الجنة مـع ثلاثـة أنهر اخـرى.[٢٧٣] ويعجبني ولكنني لا أقـدر ان افسر كيف، وبأي طـريقة، وجـد مصدرا آخـر يصب فيـه، اذ ان البحر الاحـمر من ناحيتـه الشرقيـة، وبحـرنـا من نـاحيتـه الغربية. فبينـه وبين الشرق يقـع البحر الاحمـر، ومع ذلـك نقرأ ان الجنـة في الشرق. لـذلك فـإنني استغرب جـدا كيف يتابـع مجراه في هـذه الناحيـة من البحر الاحمر وكيف يقطع البحر او عما اذا هو يقطع البحر فعلا.

الفرات

١) ويقال الامر ذاته عن نهر الفرات، الـذي له مصـدر ثان في ارمينيـا فيقطع بلاد ما بين النهرين حوالى اربعة وعشرين ميلا من الرها على ما اعتقد.

٢) دع من يشـاء يتساءل عن هـذا السبب، ودع من يقـدر ان يعلم السبب، فقد حاولت مرارا ان اعلمه بالاستفسار من عدة اشخاص ولكنني لم اجد ابدا من استـطاع ان يفسره لي. وانني اتـرك هـذا التفسـير للذي يـرفـع المـاء الى السحب باعجازه، ويرفع الجداول الى الجبال والتلال، ويجري الوديان تنساب بين صدوع الاخـاديد المخفيـة، الى ان تجد البحـر في نهاية المـطاف وتبتلع في احشائه.

٣) لما اوشكت تلك السنة عـلى الانتهاء، اصيب الملك بمـرض تعاظم عليـه،

وخشي من الموت. لذلك صرف زوجته اديليد، كونتسية صقليه المذكورة سابقا[٢٧٤] التي كان قد تزوجها خلافا للشرع اذ ان التي كان قد تزوجها شرعا من قبلها، في مدينة الرها ما زالت على قيد الحياة.[٢٧٥].

وباء الجراد الاعظم

١) في عام ١١١٧ بعد ميلاد سيدنا المسيح، غادرت الملكة المذكورة[٢٧٦] ميناء عكا في اليوم الذي انشدوا فيه الصلاة المؤلفة من سلسلة[٢٧٧] ابتهالات، حسب طقوس الكنيسة، وعبرت البحر مصحوبة بسبعة سفن الى صقليه.

٢) وفي شهر ايار، عجت اراضي القدس بحشود لا تعد ولا تحصى من الجراد ملتهمة اكثر من المعتاد من الكرمة ومحاصيل الحقل والاشجار على مختلف انواعها[٢٧٨] وكنت تراهم يزحفون كجيش من الرجال بانتظام كما لو انهم عقدوا المشورة ونظموا زحفهم حسب الاتفاق. وبعد ان قضوا رحلة يومهم، بعضهم سائرين وبعضهم طائرين، اختاروا بالاتفاق مرقدا مريحا لانفسهم. وهكذا بعد ان التهموا كل ما هو اخضر، وقضموا لحاء الشجر، غادروا بأسراب بعضها مجنح، وبعضها الاخر بلا اجنحة.

٣) تبا لسفاهة الرجال الذين يمعنون في ضلالهم المؤذي! فكثيرا ومرارا ما يمسنا الخالق بتأنيبه، ويرعبنا بنذره، ويثيرنا بوعيده، ويرشدنا بعبره، ويكبحنا بعقابه ولكننا نمعن ابدا في جورنا، ونزدري نصحه وننتهك تعاليمه بازدراء.

٤) فما وجه الغرابة اذا ما اخذ الشرقيون، او أناس اشرار غيرهم منا بلادنا، بينما نحن انفسنا نمد يدا لصوصية الى حقول جيراننا. فنحن بالفعل نحتال عليهم جورا بثلم المحراث، او نسلبهم خفية بأفعال جشعة منكرة، وهكذا نزيد ثروتنا اثما بوضع ايدينا على ممتلكاتهم.

٥) ما وجه العجب، اذا ما سمح الله، ودمرت الفئران محاصيلنا وهي تبرعم من جذورها في الارض، او اذا ما التهمها الجراد بعد نضجها، او اذا ما اصابها العطب في المخازن بسبب العفن، او اكلتها الديدان من كل جنس، بينما نحن نبيع الاعشار التي ندين بها لله ضلالا، او نحتفظ بها كلية مدنسين المقدسات؟

علامات القمر

١) في الشهر التالي، الذي صادف شهر حزيران، ظهر القمر لمن كان منا ينظر الى السماء بعد وقت صياح الديك، وكله احمر في البداية، على ان الاحمرار سرعان ما تغير الى سواد، حتى ان القمر فقد قوته الضوئية قرابة ساعتين. وقع ذلك في اليوم الثالث عشر من الشهر، ولو وقع في الرابع عشر لكنا ظنناه خسوفا بكل تأكيد.[٢٧٩]

٢) لهذا اعتبرنا ذلك نذيرا، وظن البعض بسبب الاحمرار، ان الدم سيسفك في المعركة، وبسبب السواد ظن آخرون ان المجاعة قادمة. ولكننا اودعنا الامر للعناية الألهية، فالله قد انبأ حواريه انه ستكون هناك علامات في الشمس والقمر. (لوقا ٢١ : ٢٥ ـ وتكون علامات في الشمس والقمر والنجوم).

٣) وهو ان شاء يجعل الارض ترتجف ثم تسكن. وقد تتابع وقوع ذلك في الشهر ذاته في ليلة ساد فيها السكون، في اليوم السادس قبل غرة شهر حزيران.[٢٨٠].

القلعة التي شيدت قرب صور

١) ثم شيد الملك قلعة قرب مدينة صور تبعد عنها مسافة خمسة اميال وقد دعاها سكاندليون وتفسير هذا الاسم "اسد الحقل"[٢٨١] وقد اصلح صدوعها ووضع فيها حامية لتكبح جماح اهل صور.

العلامة المدهشة التي ظهرت في الشمس

١) في العام ذاته. وفي شهر كانون الاول في الليلة الخامسة بعد خسوف القمر الذي حصل في الثالث عشر من ذلك الشهر، رأينا جميعا في بداية الليل، السماء الشمالية وقد خطها شعاع من لون فاقع من النار او الدم، وقد تعجبنا كثيرا ظانين ان هذه الظاهرة مليئة بالنذر المذهلة.

٢) في منتصف هذا الاحمرار، الذي بدأ يتزايد شيئا فشيئا، شاهدنا اشعة بيضاء كثيرة تتعالى بشكل مدهش من القعر الى القمة، مرة في المقدمة ومرة في المؤخرة ثم في المنتصف.(٢٨٢) وفي الجزء المنخفض بدت السماء فاتحة اللون كما تظهر عند طلوع الفجر حين توشك على الاضاءة قبل بزوغ الشمس. وشاهدنا امام هذه الظاهرة من الناحية الشرقية، بياضا كأن القمر اوشك على الطلوع هناك. ولهذا تألقت الارض وكل الاماكن بجلاء في هذا المظهر.

٣) لو ان ذلك وقع في الصباح لقلنا جميعا ان النهار كان ساطعا. لذلك حسبنا انه اما ان دما كثيرا سيسفك في الحرب او ان امرا لا يقل عن ذلك وعيدا ينذر بالوقوع. ولكننا اوكلنا بتواضع للرب الإله ما غمض علينا ليقضي فيه امره.

٤) على ان بعض الناس اعلنوا، متنبئين ان ذلك كان نذيرا بالموت لاولئك الذين كانوا سيلاقون حتفهم في العام التالي. وقد توفي فعلا هؤلاء الاشخاص فيما بعد. البابا باسكال في شهر كانون الثاني. وبلدوين، ملك اهل القدس، في نيسان وكذلك زوجته في صقلية التي كان قد هجرها. وارنولف بطريرك القدس، والكسيس امبراطور القسطنطينية وكثيرون غيرهم من عظام الرجال في العالم.(٢٨٣)

وفاة الملك بلدوين

١) في عام ١١١٨ بعد الميلاد العذري، وفي اواخر شهر اذار هاجم الملك بلدوين مدينة فاراميا ونهبها.(٢٨٤) ثم ذهب ماشيا في احد الايام على شاطىء النهر الذي يدعوه الاغريق بالنيل، ويدعوه اليهود جيحون على مقربة من المدينة، ممتعا نفسه مع بعض اصدقائه. واستعمل بعض الفرسان حرابهم بمهارة فائقة في اصطياد السمك هناك، وحملوه الى المعسكر قرب المدينة وأكلوه. ثم شعر الملك في احشائه بالآلام المتجددة لجرح قديم واصيب بضعف شديد.(٢٨٥)

٢) اعلنت الاخبار لرجاله على الفور، ولما سمعوا بذلك شعروا مخلصين بتعاطف وجداني معه. واصابهم الاسى والقلق. وقرروا الرجوع الى القدس، ولما لم يقدر الملك على الركوب اعدوا له محفة صنعوها من عشرة اعمدة وطرحوه بها. اعطي الامر للرجوع الى القدس بعزف بوق المنادي.(٢٨٦)

٣) عندما وصلوا قرية تدعى العريش[٢٨٧]، توفي بلدوين اخيرا، وقد هزل جسده وهده المرض. فازالوا احشاءه وملحوها، وطرحوها في الكفن واسرعوا الى القدس.

٤) في اليوم الذي جرت فيه العادة ان يحملوا سعف النخيل[٢٨٨] قابل موكب الجنازة، بمشيئة الله، وبظرف نادر الاحتمال، ناقلا حمله الحزين، الموكب الديني وهو ينحدر من جبل الزيتون الى وادي يهوشافات.

٥) وما ان شاهد الحاضرون ذلك، وكأن بلدوين قريبهم، اجهشوا جميعا بالندب بدل الانشاد، واحسوا بالفجيعة بدل السرور. وبكى الفرنجة كما حزن السوريون وحتى الشرقيون الذين شاهدوا ذلك. اذ من، من بكى هناك بخشوع، استطاع ان يتمالك نفسه؟ وعليه فقد قام رجال الكهنوت وعامة الشعب ايضا في طريق عودتهم الى المدينة باداء واجباتهم حسب العرف والعادة في تلك المناسبة الحزينة.

٦) ودفنوا بلدوين في الجلجلة[٢٨٩]، بجانب شقيقه الدوق جودفري.

٧) مرثاة في الملك بلدوين

"بكى شعب الفرنجة الورع عندما مات الملك
اذ انه كان درعهم ومصدر قوتهم ومعينهم
كان ساعد شعبه الايمن، وكان رعب اعدائه وخصمهم
قائد بلاده الجبار، مثل ما كان اليشع

وقد أخذ عكا والقيصرية وبيروت وصيدا ايضا من اعدائه المحليين غير الأتقياء وبعد ذلك اضاف لحكمه، واخضع لسلطته بلاد العرب، او على الاقل اولئك الذين جاوروا البحر الاحمر.

واستولى على طرابلس وبجبروت لا يقل عن ذلك اخذ ارسوف.
وقد قام كذلك بأعمال مجيدة عديدة اخرى[٢٩٠]

٨) وقد اعتلى العرش لمدة ثمانية عشر عاما
ومضى الى مصيره كما قدر له.
ورأت الشمس برج القوس ست عشرة مرة.
عندما توفي بلدوين الملك العظيم.[٢٩١]

هوامش الكتاب الثاني

١) لم يرحب الجميع ببلدوين، ويكشف فوشيه نفسه في الفصل الثالث اللثام عن ان تنكريد والبطريرك ديمبرت كانا معارضين لبلدوين.

٢) يستعمل فوشيه هنا كلمة regni ويعني بذلك مملكة اذ انه كتب ذلك بعد عام ١١٠٠ م اي بعد تأسيس المملكة

٣) بلدوين لي بورج، وهو من ابناء عمومة بلدوين الاول، وقد خلفه على ولاية الرها اولا (١١٠٠ - ١١١٨) ثم على مملكة القدس (١١١٨ - ١١٣١ م).

٤) يستعمل فوشيه هنا تاريخا يشير الى التقويم الروماني القديم.

٥) في ٨ - ١٢ تشرين اول. يذكر البرت ايكس ان اهل انطاكية عرضوا ولايتها على بلدوين الاول لغياب بيهمند ولكن بلدوين رفض العرض.

٦) في ٢١ تشرين اول ١١٠٠ م.

٧) ملك طرابلس كما يدعوه فوشيه هو القاضي جلال الملك بن عمار. اما دقاق ويدعوه فوشيه "دكاك" فهو شمس الملوك دقاق امير دمشق. وجناح الدولة، الذي يدعوه فوشيه جناهدوليس، فهو آتابك حمص، وسابقاً حماة راجع Cahen, "The Turkish Invasion" in setton, ed. Crusades I, 164, 172

٨) هذا المكان هو ممر ضيق محاذ للبحر، يبعد ٢/١ ٩ اميال شمالي بيروت. وهو ذائع الصيت وقد عبر منه الفاتحون لثلاثة آلاف سنة، وترك كثير منهم كتابة منقوشة فيه. وتعين على بلدوين ان يجتاز جزءا من الطريق الروماني القديم عرضه٢/١ ١ متر وطوله ٥٠٠٠ خطوة، منحوتا في واجهة منجرف عميق. ورواية فوشيه عن معركة نهر الكلب هذه هي الوحيدة التي يرويها شاهد عيان. وقد اشار اليها كل من وليم الصوري والبيرت ايكس. راجع Munro, Kingdom of the Crusades, 3-4

البيرت ايكس VII, XXXiii - xxxiv

وليم الصوري (X, V- vi)

٩) كان ذلك يوم ٤ تشرين اول ١١٠٠ م (HF, 360, note 14)

١٠) يعتقد ان هذا الممر المنبسط يقع في المخرج الشمالي للممر.

راجع HF, 361, note 21 Lebanon, by Boulanger, 94 - 95

١١) لم استطع تحديد هذا الطريق.

١٢) ٢٦ تشرين الثاني، ١١٠٠ م

١٣) يذكر وليم الصوري ان هذا المكان هو جونية. وتبعد ثلاثة اميال شمالي نهر الكلب. Boulanger, Lebanon, 93, 95

١٤) لا يعرف اسم هذا الامير.

١٥) وصل بلدوين ابواب حيفا التي حفظها رجال تنكريد في ٣٠ تشرين اول ١١٠٠ م. كانت العداوة بين بلدوين وتنكريد الذي حكم قطاعا كبيرا حول طبريا، قد بدأت في عام ١٠٩٧ م عندما طرد بلدوين تنكريد من طرطوس. وقد خاف البطريرك ديمبرت وتنكريد كلاهما على مركزيهما اذا ما

استلم بلدوين العرش فتآمرا عليه. وقد كانت مخاوفهما في محلها كما سيظهر في المستقبل. Nichol-son, Tancred, 42-48, 122-21

١٦) تقع ارسوف (وقد دعاها فوشيه ارسوت) على بعد عشرة أميال شمالي يافا، واشدود (وقد دعاها ازوتس) على بعد واحد وعشرين ميلا جنوبي يافا قرب عسقلان. HF, 367, note 38

١٧) ٩ تشرين الثاني ١١٠٠ م HChr, 514

١٨) يعرب فوشيه الذي كان قسيسا لبلدوين، عن تعاطفه مع موقف سيده.

١٩) يذكر البيرت ايكس ان بلدوين اصطحب ١٤٥٠ فارسا وخمسمائة راجل. (VII, xxxviii)

٢٠) يخبرنا هذا الفصل والذي يليه عن رحلة بلدوين الى ضواحي عسقلان، الميناء البحري المصري في ذلك الوقت، والى المناطق غربي وجنوبي البحر الميت من ١٥ تشرين الثاني حتى ٢١ كانون الاول ١١٠٠ م. وقد كان يهدف الى ان يجس الدفاع حول عسقلان، وان يستطلع المنطقة التي تمر عبرها القوافل بين القاهرة ودمشق لتتجنب الفرنجة، ولكي يعطي ديمبرت الوقت الكافي لكي يتفهم ضرورة التفاهم مع منافسه بلدوين. وتظهر هذه القصة حيوية بلدوين ونشاطه الفائق.

٢١) . يشير فوشيه الى ان بلدوين عرج جنوب اشارون وجبنيل (جامنيه، يبنى) التي اشتهرت فيما بعد لكونها مقر فرسان الفرنجة ابلين.

٢٢) قطع جيش بلدوين تلال يهوذا في الخليل حيث يوجد بنيان مسور سماه الفرنجة قلعة القديس ابراهيم. وفي داخله مسجد فوق كهف مكفيله، ويعتقد انه قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب. وهبط بلدوين من الخليل بجنوده عمق ٤٣٠٠ قدم في مسافة سبعة عشر ميلا الى شواطىء البحر الميت. ويذكر وليم الصوري أنه وصل البحر في عين جدي التي تبعد ثلاثة وعشرين ميلا جنوب شرقي القدس.

٢٣) يهمنا وصف فوشيه للمناطق جنوبي البحر الميت لثلاثة اسباب. فهو شاهد عيان، ودقيق في الوصف واخيرا فانه يكسبنا ادراكا لحيوية بلدوين ونشاطه في استكشاف الحدود الجنوبية لولايته الصغيرة علما بأن جودفري لم يزر هذه المناطق.

٢٤) مرجع فوشيه هو Joseph. Bell. Jud. IV, 482

٢٥) من المرجح انه يشير الى جبل اسدم، وهو مرتفع من ترسبات الاملاح جنوب غربي البحر الميت HF, 377, note 6

٢٦) Joseph, Bell. Jud. IV, 476

٢٧) البحر الابيض المتوسط.

٢٨) يدعو فوشيه هذه البلدة صيغور أو زوار في نسخته الاول HF, 378, note 2

٢٩) تفاحة سدوم او تفاح البحر الميت. راجع Baedeker, Palestine & Syria, 171, Cf 129

٣٠) ٢٥ تشرين الثاني ١١٠٠ م HF 380, note 17

٣١) يعتقد ان هذا المكان هو وادي موسى (جنوبي البترا ويبعد حوالى خمسين ميلا جنوبي البحر الميت) والنبع هو عين موسى. راجع HF 380, note 20

٣٢) يشير فوشيه الى جبل هارون الذي يحتوي على ضريح هارون. (Baedeker, Palestine & Syria, 186)

٣٣) بحيرة اسفالتيت هي البحر الميت وقد سبق ذكر ذلك في الكتاب الاول. ويبعد قبر راحيل مسافة ميل شمالي كنيسة المهد في بيت لحم.

٣٤) ٢١ كانون الاول ١١٠٠ م.

٣٥) وهكذا فإن البطريرك ديمبرت، الذي كان معاديا لبلدوين، أخذ فترة كافية من الوقت للموافقة على تفاهم مشترك.

٣٦) تم التتويج في بيت لحم، لا القدس، لان البطريرك ديمبرت اعتبر نفسه مولى للقدس، الولاية الدينية، ولم يرغب في ان يتوج بلدوين ملكا في عاصمة الدولة. كان ديمبرت قد اجبر جودفري في ربيع عام ١١٠٠ م ان يتنازل له عن الولاية على القدس ويافا وتوقع ان يفتتح جودفري القاهرة او مدينة اخرى يتولى عليها، ومن المؤكد انه توقع ان يصبح بلدوين ملكا على منطقة اخرى غير القدس ولكن بلدوين خيب اماله. راجع وليم الصوري. IX, XVI

٣٧) تم اختيار جودفري "اميرا للبلاد" وليس ملكا.

٣٨) رفض تنكريد الذي كان يحكم في طبريا وحيفا، ان يعترف ببلدوين ملكا. البيرت ايكس (VII, cliv)

٣٩) كان بلدوين يمتلك القدس وبيت لحم ويافا. وتعطي بقية هذا الفصل صورة معبرة عن ضعف موقف بلدوين.

٤٠) كان الفرسان بحاجة الى الخيول المدربة. وتبعد انطاكية ٣٠٠ ميل عن القدس وتفصلها بلاد معادية، وقد كان اميرها بيهمند اسيرا في يد الملك الغازي كمشتكين بن دانشمند.
راجع الكتاب الاول.

٤١) ٩ اذار ١١٠١م . (H Chr, 542)

٤٢) يذكر البيرت ايكس ان تنكريد سلم بلاده على ان يحتفظ بحق استرجاعها خلال سنة وثلاثة اشهر اذا ما اضطر لذلك، وغادر مع كل فرسانه وخمسمائة من المشاة. راجع (Nicholson, Tancred, 120-121)

٤٣) يذكر كافارو الجنوي ان الاسطول غادر جنوى يوم ١ آب ١١٠٠ م الى اللاذقية حيث قضى الشتاء. وتألف هذا الاسطول من ست وعشرين او ثمان وعشرين سفينة واربعة او ستة زوارق نقل. وغادر اللاذقية في ٦ آذار ١١٠١ م ووصل الى يافا في ١٦ نيسان. وقد وصل الرجال الى القدس في ١٨ نيسان (راجع وليم الصوري. H Chr, 539, 552, 555. X, xxviii)

٤٤) كانت النار المقدسة تظهر عادة في كنيسة القيامة قبل عيد الفصح بيوم واحد، ولما لم تظهر في وقتها المعين عام ١١٠١م أصيب الناس بقلق شديد. ولا يفيض فوشيه في بحث هذه القضية ربما لانه شك في قيمتها. ويبحث رنسيمان الابعاد السياسية لهذه القضية في كتابه Crusades (راجع HF, 395, note 5)

٤٥) ٢٥ نيسان ١١٠١ م (H Chr, 559)

٤٦) اصبح هذا نموذجا للعمل في المستقبل. فقد عرض اهل جنوى المساعدة البحرية التي احتاج اليها الملك، واتخذوا التنازل المذكور. وذلك يعادل الميناء الحر في الزمن المعاصر.

٤٧) تم استسلام ارسوف في ٢٩ نيسان ١١٠١ م، وقد خدع بلدوين أهل جنوى لأنه خشي ان ينهبوا المدينة. واراد أن يحافظ على المدينة مزدهرة غير مدمرة ليحافظ على العلاقات التجارية مع عرب عسقلان وشرقي الاردن.

٤٨) لا يدري احد مصدر حكاية فوشيه حول بناء سليمان تحصينات ارسوف (HF, 397, note 12)

٤٩) يشير فوشيه الى حصار ارسوف الفاشل على يدي جودفري من تشرين الاول الى كانون الاول ١٠٩٩ م (البيرت ايكس. H Chr. 431. VII, i -vi)

٥٠) من المحتمل ان ذلك استهلك كل مجاديف وصواري الاسطول.

٥١) دام الحصار من ٢ ايار حتى يوم الجمعة ١٧ ايار ١١٠١ م H Chr 431

٥٢) يتضح من هذا الكلام ان الجنود حصلوا على بغيتهم بالنهب والسلب الذي حرموا منه في ارسوف.

٥٣) يستعمل فوشيه كلمة اركاديوس ويعني بها القاضي الذي كان يمارس في بعض الاحيان مهام رئيس البلدية ويحكم بحسب الشريعة الاسلامية.

٥٤) يعطينا كافارو الجنوي فكرة عن ثروات هذا الميناء العربي الواحد، فيذكر انه بعد ان دفع اهل جنوى اجر قادتهم وقباطنة السفن، بقي معهم من الغنائم ما يكفي لاعطاء ثمانية وأربعين قطعة ذهب ورطلين من البهارات لكل من ثمانية آلاف رجل. مع العلم ان حصة اهل جنوى كانت ثلث المجموع. RHC, Occ, V, 65

٥٥) كانت القيصرية تدعى مدينة ستراتون.

٥٦) كان اسم الاسقف الجديد بلدوين، ويقال انه وصم جبهته برسم الصليب، وقد جلب ذلك له كثيرا من الهدايا من اهل الورع.(RHC, Occ. IV, 182-83, 251) حصلت هذه الاحداث بين ٢٤ ايار و١٧ حزيران (H CHr. 568)

٥٧) ٢٤ ايار - ١٧ حزيران / ١١٠١ م. (H CHr. 570, 577)

٥٨) يتلاعب فوشيه هنا بالكلمات باللغة اللاتينية.

٥٩) يوم ١٧ حزيران ١١٠١ م. (H CHr 577)

٦٠) دامت فترة الانتظار بين ١٧ حزيران و ٢٥ آب ١١٠١م. ويدل عنوان هذا الفصل بالاشارة الى الاتراك على خطأ الكاتب بدل الاشارة الى العرب او الشرقيين.

يذكر ابن القلانسي ان الجيش المصري تجمع في عسقلان في مطلع شهر رمضان عام ٤٩٤ هـ (٣٠ حزيران ١١٠١ م) (The Damascus Chronicle, 53)

يعطي فوشيه في هذا الفصل وفي الذي يليه صورة مفصلة عن هزيمة الملك بلدوين للجيش المصري على مقربة من الرملة في ٧ - ٨ ايلول ١١٠١ م.

٦١) يذكر اكهارد اوف اورا ان بلدان بلدوين كانت القدس والقيصرية ونيكوبوس، وجبل طابور والخليل وارسوف (RHC, Occ. V. 33)

٦٢) تقدير فوشيه لقوة الجيش الفرنجي متواضع ومن المرجح انه صحيح. اما تقديره لقوة الجيش المصري فمبالغ فيه، مثل تقدير ابن القلانسي لقوة جيش الفرنجة الذي قدر عدده بالف فارس وعشرة الاف راجل (The Damascus Chronicle, 53)

٦٣) ٦ - ٧ ايلول ١١٠١ م، ويذكر ابن القلانسي ان المعركة وقعت في ٢٧ ايلول. ولكنه لم يشهدها. (المصدر السابق).

٦٤) واسمه جيرهارد (روث شامهاوزن) (RHC, Occ. V. 35)

٦٥) ويذكر البيرت ايكس انهم خمسة (VII, Lxv)

٦٦) يذكر ابن القلانسي ان بلدوين قتل قائد الجيش المصري سعد الدولة القوامسي (The Damascus Chronicle 53-54)

٦٧) يصف فوشيه أهوال المعركة على الطرفين بينما هو عادة يبتهج بمصرع المسلمين.

٦٨) ٧ ايلول ١١٠١ م.

٦٩) يخطىء فوشيه هنا، ويعيد الخطأ تاليا بتسمية اشدود باسم ابينم (ابلين) اذ ان هذا المكان الاخير الذي يدعى في التوراة باسم جبنيل واسمه التقليدي جامنيا (يبنى)، يبعد حوالى عشرة اميال شمال شرقي اشدود، واشدود هي احدى خمس مدن فلسطينية وردت في كتاب صموئيل ولم تكن جبنيل

واحدة من هذه المدن.

٧٠) يذكر المؤلف المجهول ان الفرنجة ايضا لجأوا الى التنكر واستعملوا عدة العرب ليخدعوهم لكي يقتربوا اكثر منهم. (RHC, Occ. III, 530)

٧١) يقول رانسيمان ان أحد هذين الشخصين هو هيوسنت اومير. (Crusades II, 75)

٧٢) هذه هي زوجة بلدوين الاولى، الاميرة الارمنية ابنة تفنوز، وكان قد تزوجها من اجل مهرها. HF, 421, note 7

٧٣) فوشيه هو مصدر هذه المعلومات حول التماس العون من تنكريد، الذي كان يفتقد المودة لبلدوين منذ ايام منافستهما في طرطوس عام ١٠٩٨ م. (HF, 423, note 8)

٧٤) "ملك بابل" هو الخليفة الفاطمي الآمر بن المستعلي، ١١٠١ - ١١٣٠م وكان عمره آنذاك خمس سنوات وقد نصبه على الحكم الوزير الافضل. ونعلم من مرجع سابق ان فوشيه كان يعرف الفرق بين "الملك" (الخليفة) والافضل (الوزير). ويذكر ابن الاثير ان قائد الجيش المصري كان شرف المعالي بن الافضل. ويلاحظ ان تقدير فوشيه لقوة الجيش المصري مبالغ فيه.
(RHC, Or., I, 215)

٧٥) ١٦ ايار ١١٠٢ م (HF 426, note 7)

٧٦) تقع هذه الكنيسة في شمال اللد بالقرب من الرملة ويدعى هذا الاسقف روبرت دوق روين. (HF 427, note 12)

٧٧) ١٧ ايار ١١٠٢ م (H Chr. 645)

٧٨) ترد الاشارة لاعضاء حملة عام ١١٠١ م السيئة الطالع الذين نجحوا في الوصول الى فلسطين، وكانوا ينتظرون العودة الى موطنهم.

٧٩) "الجيش العظيم" هو جيش الحملة الصليبية في عام ١١٠١ م وقد تضاءل الى بضعة لاجئين وصلوا الى القدس في اوائل ١١٠٢ م.

٨٠) الكونت وليم بواتو المعروف باسم الدوق وليم اوف اكويتين هو جد اليانور اكويتين زوجة لويس السابع ملك فرنسا وبعد ذلك هنري الثاني ملك انجلترا. HF 429, note 4

٨١) راجع الكتاب الاول

٨٢) راجع الكتاب الاول

٨٣) هو ريموند سنت جيل

٨٤) قتل الكونت ستيفين واثنان من اشقائه في حملة عام ١١٠١ - ١١٠٢ م وقد اصبح شقيق رابع له اسمه جي، فيما بعد، البابا كاليكتس الثاني. Setton, ed., Crusades, I. 349 - 50, 357, 363, 364

٨٥) استسلمت نيقيا في ١٩ حزيران ١٠٩٧. وسليمان المذكور هو قليج ارسلان الاول سلطان سلاجقة الروم وابن السلطان سليمان.

٨٦) لم يكن قليج ارسلان قد خسر نيقية فحسب، بل انه خسر معركة حاسمة في دوريلايم في ١ تموز ١٠٩٧ م.

٨٧) خسر هؤلاء الصليبيون في معارك متتالية في داخل اناضوليا عام ١١٠١م - راجع (Cate, "Crusade of 1101" 355 - 62)

٨٨) قدم اهل جنوى المعونة البحرية. ويحدد هاجنمير هذا التاريخ بحوالى ١٨ شباط ١١٠٢ م.
(H Chr. 631)

٨٩) يفسر الكاتب المجهول الذي عاصر الحملة هذه النقمة بقوله ان ريموند كان يعرف الطريق الى

القدس منذ عام ١٠٩٩ م. (RHC, Occ, III, 533)

٩٠) عنوان هذا الفصل خاطىء فاعداء الفرنجة هنا كانوا العرب وليس الاتراك.

٩١) نيسان ١١٠٢ م

٩٢) ابحر وليم بواتو (واكوتين) في اواخر نيسان او اوائل ايار (H Chr. 640)

٩٣) راجع الفصول السابقة.

٩٤) جيوفري الثالث من بروى وفندوم

٩٥) هيو السادس (الشيطان) وهو سلف سلالة لوسنيان ملوك القدس وقبرص، واخ غير شقيق لريموند سنت جيل (من امه) (Hill and Hill, Raymond IV, 4,6,7)

٩٦) يذكر المؤلف المعاصر "الكاتب المجهول" ان بلدوين اعتقد انه سيقابل مجموعة قليلة من الاعداء تبحث عن الاسلاب. وقعت هذه الحوادث في ١٧ ايار ١١٠٢ م.

٩٧) يذكر الكاتب المجهول ان بلدوين اخبر ستيفين بلوا بازدراء انه - اي بلدوين - سيهاجم حتى لو كان ستيفين واصدقاؤه في فرنسا. ويذكر جيبرت نوجنت انه قال لهاربي بورجيس انه اذا ما تملكه الفزع فليهرب الى بورجيس.

٩٨) يذكر ان بلدوين غادر مع خمسة رفاق وقاد روبيرت الانجليزي الطريق وتبعه بلدوين ورفيق ثم تبعهم ثلاثة فرسان ولم ينج منهم الا بلدوين ورفيقه.

٩٩) تدعى فرس بلدوين غزالة ولا بد انها كانت شهيرة فقد ورد ذكرها في ثلاثة مصادر.

١٠٠) تم اخضاعهم في اليوم الثالث - ١٩ ايار ١١٠٢ م حسب رواية البيرت ايكس.

١٠١) إما ١٧ - ١٨ ايار او ١٨ - ١٩ عام ١١٠٢ م حسب رواية هاجنمير. (HF, 444, note 2)

١٠٢) ١٩ ايار ١١٠٢ م. (HF 445, note 4)

١٠٣) لعله هيوجو دي برولييس ومرافقه.

١٠٤) لم يذكر فوشيه البطريرك في نص الفصل، ومن المرجح على هذا الاساس ان شخصا آخر كتب عنوان الفصل.

١٠٥) ١٩ ايار ١١٠٢ م.

١٠٦) خلف هيو فالكنبرج اومير تنكريد حاكما لطبريا عام ١١٠١ م. (HF 447, note 3)

١٠٧) يذكر البيرت ايكس ان هذا الزورق كان ملك جيدريكي القرصان الانجليزي. ويفترض انه جودريك فنشال فلاح لنكولنشير الصبي الذي اصبح رحالة وتاجرا ثم قديسا.

١٠٨) ٢١ ايار في اليوم التالي لوصول بلدوين الى يافا. (HF, 448, note 7)

١٠٩) مدينة الخليل.

١١٠) لعله يوم ٢٣ ايار ١١٠٢ م (H Chr 653 - 54)

١١١) ٢٧ ايار ١١٠٢ م. (HF, 451, note 18)

١١٢) يخمن هاجنمير انه كان مع بلدوين ستمائة او سبعمائة رجل بل حتى ثمانمائة او تسعمائة. ولكننا لا نستطيع التحديد. (HF, 451, note 20)

١١٣) ليس هناك اي سبب يدعو الى الاعتقاد بأن فوشيه كان قد حضر هذه المعركة، واستعماله لضمير الجمع "نحن" هو استعمال بلاغي، ومن المرجح انه كان في القدس. (HF 13 & 453, note 6)

١١٤) اشارة واضحة لانتقاده لبلدوين . ولا ندري اذا كان بلدوين قد علم بهذا الانتقاد، وان فعل فإنه لم يطلب حذفه من النص.

١١٥) نقلا عن الاصل اللاتيني De Consolatime philosophiae iv. pros. 6. 131 - 33 pros 4. 156

١١٦) يحيط البيرت ايكس اللثام عن حصار فاشل دام ثمانية ايام حول عسقلان اقامه الفرنجة في اواخر ايلول ١١٠٢ م. (IX, xv; H Chr. 673)

ويرى هاجنمير ان فوشيه اعتقد ان هذه الحادثة غير ذات اهمية. (HF 455, note 37)

١١٧) ٢٩ اذار ١١٠٣ م.

١١٨) يصف البيرت ايكس هذا الحصار بالتفصيل، ويوافق ابن الاثير (RHC, Or, I, 213) على انه كان بامكان بلدوين ان يأخذ المدينة مستعملا آلات الحصار لو لم يأتها العون من البحر. (HF 456, note 4)

١١٩) كان الملك الغازي كمشتكين ابن دانشمند قد اسر بيهمند في سيواس عام ١١٠٠ م (راجع الكتاب الاول XXXV, 3) واطلق سراحه في ايار ١١٠٣ م (H Chr 691)

١٢٠) يلجأ فوشيه هنا الى شدة الاقتضاب والغموض، فقد ساعد كل من بطريرك انطاكية برنارد، والملك بلدوين في اطلاق سراح بيهمند. واضطر تنكريد ان يسلم آخر فتوحاته من اللاذقية، ومامیسترا واضنه وطرطوس بالاضافة لحاكمية انطاكية، وما كاد يتبقى له سوى بلدتين صغيرتين. (RHC, Occ III, 709)

١٢١) اصيب بلدوين بجراح قبل او في تموز ١١٠٣ م. (Nicholson, Tancred 136 - 37) (H Chr. 701)

١٢٢) نيسان ١١٠٤ م

١٢٣) يذكر البيرت ايكس الذي يورد اكمل التفاصيل ان الاسطول ضم سربا من اهل جنوى واهل بيزا (IX, xxvi) ويذكر كافارو ان اربعين من السفن الاصلية كانت من جنوى (RHC. Occ. III, 537) ويقول ابن القلانسي ان الاسطول تألف من اكثر من تسعين سفينة من جنوى (The Damascus Chronicle, 61)

١٢٤) ٢٦ ايار ١١٠٤ م (H Chr. 721)

١٢٥) استسلمت المدينة بشروط منحها الملك بلدوين ولكن حلفاءه الجشعين من جنوى وبيزا قتلوا ونهبوا كثيرا من المواطنين الذين لا حول لهم ولا قوة - حسب رواية البيرت ايكس. (IX, xxix) راجع ايضا الكاتب المجهول (RHC, Occ. III, 537)

١٢٦) تألفت متاعب بيهمند من هزيمة نكراء على يد الاتراك في حران في ٧ ايار ١١٠٤ م ثم تبعها اعتداء من قبل رضوان امير حلب والبيزنطيين علاوة عن قلة في الرجال والاموال. غادر انطاكية في خريف عام ١١٠٤م ووصل الى باري في كانون الثاني ١١٠٥ م. (راجع Yewdale, Bohemond, 100 - 102)

١٢٧) حكم تنكريد وصيا على امارة بيهمند, (Yewdale, Bohemond 115 - 34)

١٢٨) نتج عن ذلك هجوم بيهمند على البيزنطيين في ابيرس عام ١١٠٧ - ١١٠٨ م.

١٢٩) اراد البطريرك ديمبرت ان تكون القدس ولاية كنسية يقوم هو برئاستها، فأخرجه الملك عنوة من القدس عام ١١٠١م ، فذهب الى انطاكية حيث استعمل تنكريد نفوذه ليعيده موقتا الى منصبه ولكنه فقد مركزه في خريف عام ١١٠٢م. وفي اواخر عام ١١٠٤م غادر الى ايطاليا مع بيهمند كما يذكر فوشيه هنا. وقد اعلن البابا باسكال الثاني اعادة تنصيبه، ولكنه مات اثر ذلك في مسينيا في طريق عودته. (HF, 468, note, 9)

١٣٠) ادخل فوشيه هذا الفصل والفصلين التاليين في النسخة الثانية التي كتبها عام ١١٢٤م، وهي تتعلق بشؤون بيهمند. وقد حشاها في النص الاصلي، بعد الفصل الذي ذكر فيه ان بيهمند غادر الى الغرب عام ١١٠٤ م لتجميع القوات العسكرية.

١٣١) جوسلين كورتني الذي خلف ابن عمه بلدوين الثاني على مركز كـونت الرهـا (١١١٩ - ١١٣١م)
راجـع Nicholson, Joscelyn, I: Prince of Edessa Urbana: University Of Illinois Press 1954

١٣٢) راجـع E. G. Rey Les familles d'outremer de Du Cange, 769 Nicholson, Joscelyn, 8

١٣٣) راجع Nicholson, JoscelynI: Prince of Edessa

ابن القلانسي هو الكاتب الوحيد الذي يحدد تاريخ المعركة بيوم ٧ ايار ١١٠٤م. وقد كـان قائـدا الاتراك في هذه المعركة جقرمش امير الموصل، وسقمان بن ارتق امير ماردين.

١٣٤) Lucan. Pharsalia. i, 281

١٣٥) يذكر وليم الصوري ان بلدوين وجوسلين وهما على وشك اخضاع حـران واستلامهـا، قد تنـازعا على من سيأخذ المدينة، واعطيا مجالا لقوة النجدة التركية ان تأتي.

١٣٦) يعني فوشيه هنا ان الفارس لم يعتبر حياته الدنيوية اعز من روحه.

١٣٧) راجع (Nicholson, Tancred, 172 - 78) حيث يرد افضـل بحث عن اطلاق سراح بلدوين وحربه مع تنكريد.

١٣٨) وقع بلدوين في الاسر في عام ١١٠٤ م. وتم اطلاق سراحه ليس في عام ١١٠٩ م بل في اواسط آب عـام ١١٠٨ م W. B Stevenson, the Crusader in the East, Cambridge 1907 (Nicholson, Tancred 172 note 2) وقد اطلق سراحه مقابل فدية دبرها جوسلين

١٣٩) حكم تنكـريـد انـطاكيـة والـرهـا في تلك الفـترة وقـد كـان مـوقفـه في غـايـة الـتردد ازاء تحـريـر بلدوين. (Nicholson, Tancred, 169 - 173)

١٤٠) وقعت هذه المعركة قرب تل باشر في ايلول ١١٠٨ م، وهي مثـيرة للاهتـمام لان كلا من تنكـريد من ناحية، وبلدوين وجوسلين من ناحية اخرى قد تحالفا مع قوات اسلامية تركيـة متنازعـة. وهكذا فقد كانت حربا اهلية مزدوجة بالفعل.

١٤١) غـادر بيهمند الى ابـوليا في خـريف عام ١١٠٤ م ثم ذهب الى فـرنسـا في اوائـل عـام ١١٠٦ م (Yewdale, Bohemond, 102, 109)

١٤٢) راجع الفصول السابقة.

١٤٣) فيليب الاول (١٠٦٠ - ١١٠٨م)

١٤٤) مات ابنه الاول جون في طفولته. وقد ولد ابنه الثـاني بيهمند الثـاني حوالى عـام ١١٠٩ م وحضر الى انطاكية عام ١١٢٦، واصبح سلف امراء انطاكية بعد ذلك. ومات بيهمنـد الاول في ابوليـا عام ١١١١ م. راجـع (Yewdale, Bohemond, 101, 131, 133 LXI, 2) وفـوشيـه، الكتـاب الثالث.

١٤٥) فوشيه هو المصدر الرئيسي لهذا التاريخ - ٢٨ شباط ١١٠٥ م. (HF. 484, note 2) اما مـوقع ريمـوند الحصـين فهو قلعـة الحجاج التي بنيت عـام ١١٠٢ - ١١٠٣ م ولا تزال آثـارها مـوجودة الى اليوم. (Hill and Hill, Raymond IV, 154 - 155)

١٤٦) رضوان هو ابن الامير تتش حاكم سوريا السلجوقي (١٠٧٨ - ١٠٩٥م) وقد طالب بعرش والـده ولكنه افلح بامتلاك حلب فقط (١٠٩٥ - ١١١٣م)

راجع (Crawford, "Ridwan the Maligned", 135 - 44 In: The World of Islam, Macmillan and Co., 1960)

١٤٧) راجع بخصوص تفاصيل هذه المعركة التي وقعت في ارتاح، على بعد اثنين وعشرين ميلا شرقي انطاكية، المصادر الآتية (HF, 487, note 13; Nicholson, Tancred, 154 - 56, HF 486, note5)

ويعزز ابن القلانسي التاريخ الذي ذكره هاجنمير وهو ٢٠ نيسان ١١٠٥ م ويضيف ان رضوان خسر ثلاثة الاف رجل. (The Damascus Chronicle, 65)

١٤٨) وقعت هذه الاحداث في ٢٧ آب عام ١١٠٥م وكانت اخر محاولة قام بها الافضل وزير الخليفة الفاطمي الأمر (١١٠١ - ١١٣٠م) (الذي يدعوه فوشيه بالملك الصبي) للقضاء على الفرنجة في القدس. وكان حاكم عسقلان يدعى جمال الملك.

١٤٩) حصل خلاف بين الاتراك حكام دمشق اذ ان ارتاش، شقيق الامير دقاق (مات ١١٠٤م) كان قد هرب خوفا من الاتابك طغتكين الذي حكم المدينة منذ ذلك التاريخ (١١٠٤ - ١٠٢٨م): ذهب ارتاش الى بصرى واستغاث ببلدوين ملك القدس. ونجم عن ذلك ان طغتكين السني، ارسل العون للقوة العسكرية المصرية الشيعية في عسقلان. راجع ابن القلانسي (The Damascus Chronicle 70, 71) (RHC, Or. I. 229) ويذكر ابن الاثير ان عددها الف وثلاثمائة مقاتل.

١٥٠) اسمه الرمار ١١٠٢ - ١١٠٨ م. (HF 513, note 3)

١٥١) في ٢٧ أب ١١٠٥ م

١٥٢) Ovid, Fast, vi 753

١٥٣) يذكر البيرت ايكس ان الفرنجة انتظموا في خمس فرق وقاد بلدوين الفرقة الخامسة وتتألف من ١٦٠ رجلا.

١٥٤) تقديرات فوشيه لقوة الفرنجة محافظة، ومن الممكن ان تقارب الصحة.

١٥٥) Ennius, Annal, xi, 1

١٥٦) هؤلاء القادة هم سنا الملك، ابن الافضل وجمال الملك، كما يذكر ابن الاثير (RHC, Or. I. 288) اما ابن القلانسي فيذكر ان اولهما كان شرف المعالي ابن الافضل الذي قاد الحملة عام ١١٠٢ م (The Damascus Chronicle 58) بينما يشرح ابن الاثير كيف احيل شرف المعالي من منصب القيادة بسبب حوادث عام ١١٠٤ م (RHC, Or. I, 228 - 29)

١٥٧) ظهر الدولة بناء الجيوشي

ابن الاثير RHC, Or. I, 228 - 29

ابن القلانسي The Damascus Chronicle, 61

١٥٨) يذكر ابن الاثير ان كلا الطرفين خسر حوالي ١٢٠٠ رجل (RHC, Or., I., 220) ويكتب ابن القلانسي ان الاعداد كانت متساوية (The Damascus Chronicle 71)

١٥٩) يذكر البيرت ايكس ان الاسطول المصري انسحب اولا الى طرابلس حيث قضى الليلة، ثم عاد الى دياره عبر عسقلان (HF, 502, note 6)

١٦٠) يعرف فوشيه هنا بنفسه كمؤلف هذا التاريخ ويعترف بالنقص في اسلوبه الادبي، ويعلن عن هدفه بأن يدون الاحداث التي قد يطويها النسيان ان لم يفعل، ثم يذكر انه يكتب عما شاهد بنفسه او علم من الاخرين بعد التحقيق الدقيق.

١٦١) يدل فوشيه هنا على ان كاتبا اخر كان يقرأ تاريخه ويعيد كتابته لتحسين الاسلوب.

١٦٢) ٢٣ كانون الثاني ١١٠٥ م.

١٦٣) يذكر ابن القلانسي هذا الشهاب الذي ظهر في شباط - اذار ١١٠٦م، كما يذكره متى الرهاوي.

متى الرهاوي (RHC, Arm. I, 81)

ان كومنينا (Alexiade, III, 64)

١٦٤) ٢٣ شباط ١١٠٦ م.

١٦٥) ذكرت هذه الظواهر الشمسية في (HF, 508, notes 9, 10)

١٦٦) آذار ١١٠٦ م. والجدير بالذكر ان تاريخ المؤلف المجهول ينتهي هنا. (RHC, Occ. III, 543)

١٦٧) ١١٠٦ م.

١٦٨) كان بلدوين وهيو يضايقان صور بغارات متكررة محاولين قطع تجارتها مع دمشق. راجع ابن القلانسي.
ابن الاثير RHC, Or. I, 229 - 30
سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان RHC, Or., 111, 529 - 30
البيرت ايكس X, v - vi
وليم الصوري

١٦٩) ربما قتل هيو في ايلول ١١٠٦ م . (HF, 512, note 8)

١٧٠) هذه هي المرة الوحيدة التي يدعو بها فوشيه افريمار باسمه مع انه يشير اليه مرتين اخريين (فصل CCC1 - XXXii) ثم في الكتاب الثالث. ولم يعد البابا باسكال أفريمار الى منصبه، ولكن احيلت قضيته الى القدس للبت في الامر، وقد عزل من منصبه في عام ١١٠٨ م. (HF, 512 - 15, notes 2- 4)

١٧١) من المحتمل انه مات عام ١١٠٥ م.

١٧٢) عاد بيهمند الى ابوليا في كانون الثاني عام ١١٠٥م وكسب موافقة البابا باسكال للقيام "بحملة صليبية" ضد امبراطور بيزنطية الكسيس كومنين. ثم ذهب الى فرنسا في رحلة للتجنيد عام ١١٠٦م وعاد الى ايطاليا في آب من ذلك العام. وقضى العام التالي في تحضير الجيش والاسطول في برنديزي وابحر كما ذكر فوشيه في ٩ تشرين اول عام ١١٠٧ م الى افلونا في ايبرس. راجع (Yewdale, Bohemond 102 - 15)

١٧٣) ١٣ تشرين اول ١١٠٧ م.

١٧٤) طال حصار دورارو من ١٣ تشرين اول ١١٠٧م حتى ايلول ١١٠٨م (Yewdale, Bohemond 117)

١٧٥) يقدر هاجنمير ويوديل قوة جيش بيهمند بـ ٣٤,٠٠٠ (HF, 521 note 9)

١٧٦) راجع (HF, 521 note 9)

١٧٧) يلاحظ ان فوشيه قد قبل مع الوقت نظرية بيهمند ان الكسيس خان اعضاء الحملة الصليبية الاولى وحملة عام ١١٠١م، لذلك ساند بيهمند.

١٧٨) راجع Yewdale, Bohemond 127 - 130 لتفاصيل معاهدة ديفول

١٧٩) تشرين اول ١١٠٨ م

١٨٠) جملة فوشيه هذه مشكوك بها اذ ليس هناك اي دليل على تدفق عدد كبير من رجال بيهمند الى القدس، مع ان من الممكن ان بعضهم فعل ذلك ولا بد ان معظمهم عادوا الى ايطاليا.

١٨١) مات فيليب الاول يوم ٢٩ تموز ١١٠٨ م.

١٨٢) اعتبر فوشيه عام ١٠٩٩ اول عام للحملة.

١٨٣) كان بيرتراند ابن الكونت ريموند من زوجته الاولى ولا تعرف هويتها بالتحديد.

١٨٤) يذكر البيرت ايكس ان بيرتراند غادر فرنسا بأربعة الاف رجل واربعين سفينة، وأبحر الى بيزا،

حيث انضم اليه اهل جنوى ومعهم ثمانون سفينة، بينما يذكر كافارو ان بيرتراند ذهب الى جنوى حيث انضم اليه اهل جنوى بستين سفينة (RHC, Occ, V, 72) ويذكر ابن القلانسي ان بيرتراند وصل الى طرابلس بستين سفينة محملة من الفرنجة واهل جنوى. (The Damascus Chronicle 88)

١٨٥ يذكر هاجنمير انهم وصلوا في اوائل اذار (HF, 527, note 4) بينما يذكر ابن القلانسي ان الحصار بدأ يوم ٤ ايار.

١٨٦) توفي ريموند في ٢٨ شباط ١١٠٥ م ولبحث مفصل عن النزاع بين بيرتراند ووليم جوردان راجع رانسيمان. (Crusades II, 66 - 68)

١٨٧) Sallust, Bell. Jugurth X

١٨٨) هذا التلاعب بالالفاظ نموذجي لاسلوب فوشيه في الكتابة.

١٨٩) يهمل فوشيه ان يذكر هنا ان بلدوين احتاج الى القوة البحرية ليقهر الموانيء البحرية، وانه كان على استعداد لمنح التنازلات التجارية لاهل جنوى. (Fink, in Setton ed., Crusades I, 398)

١٩٠) يحذف فوشيه ايضا المباحثات الحساسة التي جرت بين الملك بلدوين، وكونت بلدوين من الرها، وبيرتراند من ناحية وبين تنكريد ووليم جوردان من ناحية اخرى. ولقد تاق كل من الملك بلدوين وتنكريد الى وضع بلاد طرابلس في دائرة نفوذه.
راجع المصدر السابق.

١٩١) اراد بلدوين لاسباب اقتصادية بحتة، اخذ هذا الميناء البحري الوافر الثروة، وسكانه التجار، سالما بدون اذى، بينما اصاب عامة الناس الذين قدموا حديثا من اسطول جنوى الجشع للسطو والسلب. ويعطي ابن القلانسي الدمشقي الذي عاصر هذه الاحداث صورة شنيعة عن نهب هذه المدينة الثرية المتحضرة. على انه يذكر ان حاكم المدينة وبعض عساكره سلموا حفاظا على الاتفاق. (The Damascus Chronicle 89 - 90)

١٩٢) يفسر هاجنمير تاريخ فوشيه بانه كان يوم ٢١ حزيران ١١٠٩م. ولكنه يعترف ببعض الالتباس (HF, 534, note 4) ويحدد ابن القلانسي هذا التاريخ بيوم ١٢ تموز The Damascus Chronicle 89

١٩٣) يذكر البيرت ان حوالى عشرين الفا من اهل بيروت قد قتلوا بعد الاستسلام حسب الشروط. ولكن فوشيه وابن القلانسي لا يذكران اية شروط. ومن الممكن ان يكون البيرت قد خلط مذبحة بيروت بمذبحة طرابلس السابقة الذكر. (HF, 536, note 12)

١٩٤) يوافق ابن القلانسي مع فوشيه على التاريخ ١٣ ايار ١١١٠ م. (The Damascus Chronicle 100)

١٩٥) يشير فصل فوشيه هذا عن حملة الاغاثة الفرنجية للرها عام ١١١٠م خيبة الامل. فهو يشير بغموض الى هجوم تركي على الرها. ولكنه لا يذكر بتاتا ان ذلك يمثل جهدا جبارا من سلسلة حروب الجهاد التي قادها اتابك الموصل النشيط، شرف الدين مودود في تحالف مع اتابك دمشق طغتكين. والحقيقة انه لا يذكر اسم اي منهما هنا كما لا يورد اي ذكر للنزاع الحديث بين كونت الرها بلدوين وتنكريد وخلافهما على من يمتلك المدينة. ولا يعلق على مهارة الملك بلدوين في الحكم، اذ توصل الى تسوية مجددة مع تنكريد لكي يقدم الغوث للرها. راجع المراجع التالية التي تقدم تفهما ادق لهذه الحوادث. Muslim World 1953, Mawdud, Precursor of Saladin 101 - 104

ابن القلانسي The Damascus Chronicle
البيرت ايكس XI, xvi - xxv
متى الرهاوي RHC, Arm. I, 91 - 94

١٩٦) رجع الملك بلدوين من اجل عيد العنصرة في ٢٩ ايار ١١١٠م.

١٩٧) يذكر كل من البيرت ايكس ومتى الرهاوي ان كونت الرها بلدوين طلب العون من الملك بلدوين اثناء حصار هذا الاخير لبيروت ولكن الملك رفض ان يتحرك الى ان يستولى على المدينة وحصل ذلك في ١٣ ايار.

ويذكر ابن القلانسي ان اول هجوم شنه مودود على الرها وقع بين ٣ ـ ١٢ ايار.

١٩٨) يذكر ابن المقدسي هذا الشهاب ـ ٢٩ ايار الى منتصف تموز.

١٩٩) يذكر البيرت ايكس ان الملك بلدوين بدأ بالمسيرة في اوائل حزيران، واخذ شهرا للوصول الى الفرات. وقد استدعى كل من بلدوين الملك والكونت بلدوين الامير تنكريد.

٢٠٠) يجدد فوشيه صائبا تكتيك الاتراك (المسلمين) بالتظاهر بالتراجع ثم معاودة الهجوم. وتتفق المصادر الاخرى على ان الاتراك (المسلمين) تراجعوا الى حران موقع انتصارهم الشهير عام ١١٠٤ م. كما تتفق ايضا على ان مؤخرة الفرنجة، ومعظمها من الارمن، قد اسرت في الضفة الشرقية من نهر الفرات وذبحت ويذكر متى الرهاوي ببساطة ان البلاد حول مدينة الرها قد ابيد سكانها.

(ابن القلانسي The Damascus Chronicle 103 - 104)

٢٠١) بلغ هذا الشاب من العمر آنذاك حوالى تسعة عشر عاما واسمه سيجورد جورسا لافاريـر (الصليبي) وقد اشترك في ملك النرويج (١١٠٣ ـ ١١٣٠ م) مع اخويه ايستين (١١٠٣ ـ ١١٢٢) وآولاف الذي مات يافعا. عندما توفي والدهم الملك ماجنوس بيرفوت عام ١١٠٣م في غارة على شواطىء اولستر في ايرلندا ، بدأ الشقيقان الكبيران الملك ايستين والملك سيجورد بالتحضير لحملة صليبية. وعندما تمت التحضيرات عام ١١٠٧م. اختير سيجورد لقيادتها. وقد امضى ورجاله اول شتاء في انجلتره ضيوفا على الملك هنري الاول وقضوا الشتاء الثاني في جاليسيا في شمالي اسبانيا وفي حروب مع المسلمين في البرتغال، والشتاء الثالث بين اقاربهم النورمان في ايبوليا قبل وصولهم الى فلسطين في حوالى آب ١١١٠ م. وبعد ان تعاونوا مع الملك بلدوين في الاستيلاء على صيدا، أبحر الملك سيجورد الى القسطنطينية حيث استقبل بحفاوة بالغة واعطى سفنه للامبراطور الكسيس وترك بعض رجاله في خدمة الامبراطور. ثم سافر برا مع البقية من رجاله الى الدانمرك وعبر الى النرويج في صيف ١١١١ م. ويحفظ رأسه الى وقتنا الحاضر في اسوار قلعة اكبرشس في اوسلو.

٢٠٢) يذكر البيرت ايكس ان سيجورد القى مرساته اصلا في عسقلان ولكنه لما وجدها في ايدي الاعداء ذهب الى يافا.

٢٠٣) الاشارة هنا الى الملك الصبي الخليفة الآمر، الذي كان واقعا تحت سطوة الوزير الافضل الذي كان بيده الحل والربط.

٢٠٤) تجدر الاشارة ثانية أن الملك بلدوين، وما زالت ذكرى طرابلس وبيروت حية في ذهنه آثر ان يأخذ مدينة سليمة لم تصب بأذى على واحدة سلبت ونهبت.

٢٠٥) يذكر البيرت ايكس ان الحصار بدأ في ايلول وطال لمدة ستة اسابيع. ويحدد ابن القلانسي التاريخ بأنه بدأ يوم ١٩ تشرين اول وانتهى يوم ٤ كانون اول ١١١٠ م ودام سبعة واربعين يوما. The Damascus Chronicle, 107 مع ان فوشيه يذكر انه انتهى يوم ٥ كانون اول HF, 549, note 18

٢٠٦) يصف فوشيه في هذا الفصل كشاهد عيان حملة مودود امير الموصل الثالثة على الفرنجة. راجع

Fink, Mawdud, Precursor of Saladin, in Muslim World XL III 1953, 21 - 22

٢٠٧) شهران، حسب رواية البيرت ايكس، وخمسة واربعون يوما حسب رواية ابن الاثير .RHC) Or. I) اما ابن القلانسي فيذكر ان حصار تل باشر بدأ في ١٨ تموز ١١١١ م وان العمليات حول حلب توقفت في اواخر صفر اي حوالى ٦ ايلول.

واذا كان كمال الدين قد اصاب بقوله ان عملية حلب دامت سبعة عشر يوما ,RHC, Or. III) (600 فإن حصار تل باشر لا بد أنه دام حوالى اسبوعين.

٢٠٨) كان تنكريد امير طرابلس يهدد شيزر على نهر العاصي التي تبعد حوالى خمسة وسبعين ميلا عن حلب. وكانت خطة مودود أن يلتقي مع رضوان امير حلب ضد تنكريد جيدة، ولكن الريبة اصابت رضوان من بقية الاتراك (المسلمين) فاغلق ابواب مدينته وصدهم عنها. وهجر مودود حلفاؤه العراقيون لعدم رغبتهم في الذهاب ابعد من حلب. ولكن طغتكين امير دمشق الذي اراد المساعدة حضر، واشترك مع مودود.

ابن القلانسي The Damascus Chronicle 114 - 17 Nicholson, Tancred, 210 - 14

٢٠٩) كانت الرقية (الروج) ورصة موقعين حصينين لتنكريد وتقعان شرقي العاصي حوالى اربعين ميلا جنوب شرقي حلب.

٢١٠) يتلهف فوشيه لان يظهر ان بلدوين وتنكريد المتنافسين عادة، قد تحالفا في قضية مشتركة. ونهر الفيرنوس هو نهر العاصي.

٢١١) في ١٤ ايلول حسب رواية كمال الدين. راجع RHC, Or. III, 595

٢١٢) كانت شيزر انذاك معقل سلطان بن المنقذ، وهو عم الكاتب والشاعر العربي الشهير اسامة بن المنقذ، الذي كان شاهد عيان للقتال حول شيزر كما كان فوشيه. يذكر اسامة ان مودود وصل هناك في ١٥ ايلول ١١١١م بعد تنكريد، وان الفرنجة كانوا يتراجعون نحو افاميا في ١٩ ايلول. راجع كتاب الاعتبار ـ اسامة بن المنقذ ترجمه الى الانجليزية فيليب حتي. ويخطىء فوشيه في تقدير المسافة بين شيزر وافاميا، فشيزر تبعد حوالى خمسة عشر ميلا الى الجنوب الشرقي.

٢١٣) يذكر البيرت ايكس ان الجيشين واجها بعضهما لمدة ستة عشر يوما وان الحملة انتهت يوم ٢٩ ايلول (XI, xli, xlii) وتتفق جميع المصادر على ان غارات الاتراك (المسلمين) المستمرة سببت حرمان الفرنجة من الطعام والشراب.

٢١٤) بدأ الحصار يوم ٢٩ تشرين الثاني ١١١١ م ابن القلانسي (Damascus Chronicle 120)

ابن الاثير (RHC, I, 283)

سبط ابن الجوزي (RHC, II, 543)

البيرت ايكس XII, iv

وانتهى في ١٠ نيسان ١١١٢م حسب رواية ابن القلانسي Chronicle ICO او قبل ٧ نيسان حسب رواية البيرت ايكس.

٢١٥) يذكر ابن القلانسي، الذي امتلأت روايته بالتفاصيل ان البرجين الفرنجيين قد احترقا بمواد لاهبة القيت من صارية وعارضة متأرجحة رفعت على سور المدينة. The Damascus Chronicle) 124)

٢١٦) حكم تنكريد وصيا على انطاكية منذ عام ١١٠٤ م باسم بيهمند الذي مات في ٧ آذار ١١١١ م، ثم بعد ذلك باسم ابنه القاصر بيهمند الثاني في ايوليا.

راجع (Yewdale, Bohemond, 133)

٢١٧) مات تنكريد في ١٢ كانون الاول ١١١٢ م . (Nicholson, Tancred, 224)

٢١٨) خلف تنكريد في الوصاية على انطاكية روجر سالـيرنو (١١١٢ - ١١١٩ م) ابن ريتشارد الامير الوصي على الرها (١١٠٤ - ١١٠٨ م) وزوجته شقيقة تنكريد (HF, 563, note 4)

٢١٩) بقيت القدس آمنة دون حرب الى ما بعد نيسان ١١١٢م عندما انتهى حصار صور والى هجوم مودود امير الموصل، وطغتكين امير دمشق في حزيران ١١١٣م.

٢٢٠) ١٩ آذار ١١١٣ م. لبحث هذا الكسوف الشمسي راجع (HF, 564, note 2)

٢٢١) وقعت هذه الاحداث في اواخر ذو القعدة عام ٥٠٦ هـ (انتهت في ١٨ ايار ١١١٣ م) حسب رواية ابن الاثير. ويعطي فوشيه في هذا الفصل الرواية اللاتينية الاساسية للغزو الاسلامي الكبير في عام ١١١٣ م الذي قاده مودود امير الموصل وطغتكين امير دمشق والذي كاد يودي بدولة الفرنجة. ويظهر ان فوشيه نفسه كان في جوار مدينة القدس وليس مع الملك بلدوين. ويعطي ابن القلانسي اكثر الروايات تفصيلا.

راجع (The Damascus Chronicle 132 - 39 Fink. Mawdud, 23 - 25)

٢٢٢) بانياس وتقع حوالى ثمانية وعشرين ميلا شمال بحيرة طبريا.

٢٢٣) يشير فوشيه الى ان الاتراك (المسلمين) اقتربوا من الناحية الغربية لبحيرة طبريا. (HF, 566, note 9)

٢٢٤) يخلط فوشيه هنا بين الاشياء اذ ليس هذان الجدولان «جور» و«دان» اللذين ذكرهما في مكان سابق بل جدولان تخيلهما جنوبي بحيرة طبريا (HF, 567, note 10) وقد اضاف هذين الاسمين في الطبعة الثانية.

٢٢٥) نعلم من ابن القلانسي ان الفرنجة اقاموا معسكرهم غربي جسر الصنابرة واملوا ان يهاجموا الاتراك في الاقحوانة The Damascus Chronicle 134 - 35 شرقي نهر الاردن، ويتبع ذلك ابن الاثير RHC, or. I. 288 ورواية فوشيه عن جزيرة وجسرين مشكوك بها.

٢٢٦) يذكر ابن القلانسي ان مجموعة من الاتراك (المسلمين) عبرت الجسر وقابلت الفرنجة غربي نهر الاردن. (The Damascus Chronicle, 135)

٢٢٧) يذكر ابن القلانسي ان قرابة الفين من الفرنجة قد قتلوا (المصدر السابق).

٢٢٨) يوافق ابن القلانسي على هذا التاريخ، ٢٨ حزيران ١١١٣ م (المصدر السابق).

٢٢٩) تلك اشارة لزميلي بلدوين الشابين، روجر الوصي على انطاكية (١١١٢ - ١١١٩م) وبونز كونت طرابلس (١١١٢ - ١١٣٧م).

٢٣٠) مودود اتابك الموصل، ويدعوه فوشيه مالديكتوس وطغتكين اتابك دمشق ويدعوه فوشيه كالدكينس.

٢٣١) يقع هذا التل غربي مدينة طبريا (ابن القلانسي) (The Damascus Chronicle 136)

٢٣٢) هذه فقرة منيرة بشكل خاص لانها تظهر مدى قرب الفرنجة من الدمار الشامل. فالشرقيون المذكورون هنا هم عامة الفلاحين الذين عاشوا في ضياع الفرنجة اذ انهم لم يطردوا منها قط. ويذكر ابن القلانسي ان الاتراك (المسلمين) شنوا الغارات على مشارف القدس ويافا (المصدر السابق ١٣٧) وقد عاد الاتراك الى بلادهم في ١٦ آب.

٢٣٣) لا نستطيع ان نحدد تاريخا لغارة اهل عسقلان هذه. وتدل هذه الفقرة، والتي تليها، على ان فوشيه كان في القدس او حواليها، وقطعا ليس مع بلدوين في طبريا.

٢٣٤) يبدو ان ذلك اشارة للاضرار التي لحقت بالاسوار من زلزلة ذلك الصيف.

٢٣٥) ١٨ تموز، و ٩ آب ١١١٣ م.

٢٣٦) وهما شهرا تموز وآب، الشهران اللذان تبعا معركة الصنابرة.

٢٣٧) يـذكـر ابن القـلانسي ان الاتـراك وصلوا دمشق في ٥ ايلول (The Damascus Chronicle, 139)

٢٣٨) تلك كـانت الكونتيسـة اديليد، ارملة روجـر الاول ملك صقلية (تـوفي ١١٠١ م) وقـد تـزوجهـا بلدوين من اجل ثروتها ولانه اراد ان يحصل على دعم ابنها روجر الثاني الديبلوماسي والبحري. وقـد كان جيسكار والد بيهمند الاول (توفي ١٠٨٥).

٢٣٩) قتل مودود في جامع دمشق الكبير يوم ٢ تشرين اول ١١١٣ م.
ابن القلانسي. (The Damascus Chronicle, 139 - 40)

٢٤٠) راجع (HF, 578, note 10)

٢٤١) لم يستطع فوشيه ان يقاوم اعجابه بهذا العدو العظيم المقدرة.

٢٤٢) يرد ذكر هذا الوباء في ولتر المستشار.
ويذكر فوشيه وباء آخر من الجنادب وقع في شهر ايار ١١١٥ م.

٢٤٣) في ١٠ آب ١١١٤ م.

٢٤٤) ١٣ تشرين الثاني ١١١٤ م. وقد اصاب الدمار ماميسترا في زلزلة اخرى عام ١١١٥م.

٢٤٥) يصف ولتر المستشار اثار هذه الزلزلة في ٢٩ تشرين ثاني ١١١٤ م على انطاكية بصورة تفصيلية.
كما يذكرها عدة مؤرخين عرب
كمال الدين (RHC, Or., III, 607)
ابن الاثير (RHC, Or., I, 295)
ابن القلانسي (The Damascus Chronicle, 149)
وتبعد مرعش حوالى مائة ميل شمالي انطاكية.

٢٤٦) لا نستطيع ان نتحقق من مدينة تريالث هـذه. ويقترح هـاجنمير ان من الممكن ان تكـون باليس على الفرات وتبعد حوالى مائة ميل شرقي انطاكية، حيث وقعت زلزلة في عام ٥٠٨ هـ (من حزيران ١١١٤ م الى ايار ١١١٥ م) وقد ذكرها سبط ابن الجوزي.

٢٤٧) يخبرنا فوشيه في هذا الفصل عن اجتياح سوريـا من قبل بـرسق بن برسق الحمـداني، وهو القـائد الاعـلى لقوات السلطان السلجـوقي محمـد بن ملكشـاه في جهـاد عـام ١١١٥م. وحسب روايـة ابن الاثير، الذي كتب تاريخه في وقت لاحق، تم عبـور الفرات قبـل نهاية عـام ٥٠٨ هـ (قبل ٢٦ ايـار ١١١٥م) راجع تفاصيل هذه الحملة. (Stevenson, Crusaders in the East 98 - 100)

٢٤٨) فصل XLV, 6

٢٤٩) مقتل الامير مودود قائد جيش السلطان محمد عام ١١١٣م.

٢٥٠) يشخص فوشيه مأزق طغتكين بـدقة. فقـد فضل طغتكـين، الذي كـان عمليا مستقـلا، ان يقيم حلفا مع احـلافه الفـرنجة السـوريين، عـلى وجود منـدوب قوي في سـوريا للسلطان السلجـوقي في بغداد. ولا يذكـر فوشيـه دور لؤلؤ الوصي عـلى حلب والغازي امير ماردين اللذين تحـالفا ايضـا مع الفرنجة عام ١١١٥م.

٢٥١) يذكر ولتر المستشار وهو مصدر معاصر ممتاز من انـطاكية ان روجـر الذي كـان في افاميـا في آب، استدعى الملك بلدوين، وذلك يدعم جملة فوشيه. ويذكر مصدران عربيان ـ وكـلاهما لاحقـان ـ ان بلدوين كان مع الحلفاء لمدة شهرين ابتداء من حزيران.
ابن الاثير (RHC, Or. I, 297)
سبط الجوزي (RHC, Or. III, 554)

ويشير فوشيه بذكره "ثلاثة اشهر" الى حزيران وتموز وآب.

٢٥٢) فك برسق الارتباط مع اعدائه. (HF, 584, note 16)

٢٥٣) فوشيه هو المصدر الوحيد لهذه الحملة على القدس، ومن الممكن انها وقعت قبل ١٥ آب ١١١٥م حيث ان البيرت ايكس يورد ذكر اسطول مصري في صور بين ١٥ آب و ١١ ايلول من ذلك العام (HF, 585, note 18)

٢٥٤) ٢٢ آب ١١١٥ م. (HF, 586, note 22)

٢٥٥) يسرد فوشيه في هذا الفصل حكاية النصر الكبير الذي احرزه روجر امير انطاكية على القائد السلجوقي برسق بن برسق في وادي سرمين قرب تل دانيث يوم ١٤ ايلول ١١١٥ م ومع ان فوشيه لم يشهد المعركة، الا ان روايته تطابق رواية ولتر المستشار الانطاكي التي تقدم تفاصيل كاملة (Walter the Chancellor, Bella Antiochena, I, iv, 6)

٢٥٦) استولى برسق بعد مغادرة اعدائه في آب على حصن كفرطاب التابع لروجر، ثم دمر المناطق حول معرة النعمان (المصدر السابق).

٢٥٧) تبعد مدينة سرمين حوالى ثلاثة وثلاثين ميلا جنوب شرقي انطاكية، والمسافة ذاتها جنوب غربي حلب.

٢٥٨) يظهر ان ذلك هو الهجوم الذي شنه التركي تميرك امير سنجر على روجر (Walter the Chancellor, Bell. Antiochena, I, vi. 8)

٢٥٩) يذكر كمال الدين ان الغنائم كانت هائلة (RHC, OR. III, 610) ويذكر ولتر المستشار ان توزيعها دام ثلاثة ايام(Bell. Ant. I, vii, 5)

٢٦٠) ١٤ ايلول ١١١٥م. ويتفق مصدران لاتينيان آخران مع فوشيه في تحديد التاريخ. ولتر المستشار والبيرت ايكس. بينما يضع اسامة بن المنقذ التاريخ يوم ١٥ ايلول ١١١٥م.

٢٦١) لا يذكر اي كاتب آخر هذه الزلزلة، ولا يعرف تاريخها.

٢٦٢) اعلن اعادة تنصيب ارنولف في رسالة من البابا باسكال الثاني تاريخها ١٩ تموز ١١١٦ م (HF, 591, note c)

٢٦٣) ١١١٥ م.

٢٦٤) قدر لهذه القلعة (كراك دي مونتريال) ان تشتهر ايام صلاح الدين وقد بنيت على قمة تل في الشوبك وتبعد حوالى تسعين ميلا جنوبي القدس وخمسة وسبعين ميلا شمالي العقبة على البحر الاحمر. وهي تدعى بالعربية قلعة الشوبك. والجدير بالذكر ان بلدوين كان قد تفقد هذه المنطقة عام ١١٠٠م.

٢٦٥) تقدم بلدوين ـ حسب رواية البيرت ايكس ـ مع مائتي فارس.واربعمائة راجل الى مشارف جبل هورب، حيث بنى تحصينات لمدة ثمانية عشر يوما ثم تقدم مع ستين فارسا الى البحر الاحمر. ولكن البيرت خلط هذه القصة مع قصة بناء القلعة عام ١١١٥ م. (HF, 593, note 25)

٢٦٦) يخلط فوشيه بين ايليم حيث قيل ان بني اسرائيل عبروا البحر الاحمر في خليج السويس (سفر الخروج ١٥: ٢٧، والعدد ٣٣: ٩) وبين ايلات (ايله، او كما تعرف حاليا بالعقبة) على رأس خليج العقبة.

٢٦٧) يظهر فوشيه فضولا مماثلا حول البحر الاحمر في فصل سابق عام ١١١٠م

٢٦٨) راجع فصل ٦ فقرة ٤ و ٧ للاشارة الى زُغر.

٢٦٩) المحيط الهندي.

٢٧٠) يواصل فوشيه هنا خلط مدينة ايليم بايلات، كما ان تفكيره مشوش بخصوص جبل سينا، اذ لو كان

يعني الموقع التقليدي، جبل موسى، فإن هذا الجبل يبعد حوالى ٩٠ ميلا جنوبي ايلات.

٢٧١) البحر الابيض المتوسط.

٢٧٢) يظهر ان فوشيه كان يستعمل مكتبة في القدس حين كتابة الطبعة الاولى.

٢٧٣) الجنة هنا تشير الى عدن. والانهر الاربعة التي يقال انها تسري منها هي فيشون، وجيحون (الذي يعتبره نهر النيل) ودجلة والفرات (تكوين ٢: ١٠ - ١٤) "وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هنالك ينقسم فيصير اربعة رؤوس، اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع ارض الحويلة حيث الذهب. وذهب تلك الارض جيد. هناك المقل وحجر الجزع. واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع ارض كوش. واسم النهر الثالث حداقل وهو الجاري شرقي اشور. والنهر الرابع الفرات"

٢٧٤) راجع الفصول السابقة.

٢٧٥) كان طرد اديليد واعادة تنصيب البطريرك ارنولف مترابطين. فقد قام ارنولف في الماضي بتدبير ذلك الزواج، الذي كان فعلا زواج مضار، وقد اعاد له البابا باسكال الثاني منصبه على شرط ان يقنع الملك بلدوين بطلاق اديليد، ورضي بلدوين بذلك اذ انه كان قد انفق مهرها، كما انه توجس بهواجس تنذره بالموت. ويؤرخ البيرت ايكس مرض بلدوين بأنه بدأ في اذار ١١١٧م ويعتمد في ذلك على نظام توقيت بناه على اساس معلوماته من فوشيه. ويجدر بالذكر ان زوجة بلدوين الاولى واسمها اردا كانت حفيدة روبين الاول ملك ارمينيا وقد ورد اسمها في تنقيح طبعة متى الرهاوي، ولم يرد في اي من المصادر الاصلية.

٢٧٦) اديليد

٢٧٧) ٢٥ نيسان ١١١٧م HF, 602, note 3

٢٧٨) راجع بلاء الجراد في ايار ١١١٤م

٢٧٩) راجع التفاصيل بخصوص الظاهرة HF, 604, note 3

٢٨٠) ٢٦ حزيران ١١١٧م.

٢٨١) يخطىء فوشيه هنا في تفسيره لاسم سكاندليون اذ ان وليم الصوري يشرح انها سميت تيمنا بالاسكندر الكبير الذي يدعى بالعربية سكندر.

٢٨٢) تلك هي ظاهرة الشفق الشمالي.

٢٨٣) مات البابا باسكال في ٢١ كانون الثاني ١١١٨م، والملك بلدوين في ٢ نيسان والملكة السابقة اديليد في ١٦ نيسان وارنولف في حوالى ٢٨ نيسان والكسيسوس في ١٥ آب HF, 608, notes 12 16

٢٨٤) تلك مدينة الفرما، وتبعد حوالى اثني عشر ميلا شرقي قناة السويس الحديثة، ويذكر البيرت ايكس تسلسل التواريخ كالتالي: وصل بلدوين الفرما يوم الخميس "قبل منتصف فترة الصوم الكبير" وقرر ان يتراجع يوم الاثنين ٢٥ اذار وتوفي يوم الثلاثاء ٢٦ اذار. وكانت المدينة قد سقطت يوم الجمعة ٢٢ اذار.

٢٨٥) من الممكن ان ذلك هو الجرح الذي اصابه عام ١١٠٣م.

٢٨٦) يظهر ان ذلك وقع يوم الاثنين ٢٥ اذار.

٢٨٧) العريش وتبعد حوالى خمسين ميلا شرقي الفرما ويدعوها فوشيه لاريسا.

٢٨٨) احد الشعانين في ٧ نيسان م. (HF, 612, note 16)

٢٩٠) سقطت عكا في ٢٦ ايار ١١٠٤ م
والقيصرية في ١٧ ايار ١١٠١م
وبيروت في ١٣ ايار ١١١٠م
وصيدا في ٤ او ٥ كانون الاول ١١١٠ م
وارسوف في ٢٩ نيسان ١١٠١ م

٢٩١) ٢ نيسان ١١١٨ م.

الكتاب الثالث

هنا يبدأ الكتاب الثالث ـ اعمال بلدوين الثاني

ترسيم الملك بلدوين في عيد الفصح

١) عقد اهل القدس فور وفاة الملك بلدوين مؤتمرا، لئلا يظن بهم الضعف لافتقارهم الى ملك. واختاروا ملكا لهم بلدوين كونت الرها، قريب الملك الراحل. وصادف انه كان قد عبر نهر الفرات وحضر الى القدس ليعقد المشاورات مع سلفه. واختير بالاجماع وتم ترسيمه يوم عيد الفصح.[1]

تجمع الجيش البابلوني (المصري)*

١) عند حلول الصيف في العام ذاته، جمع المصريون حشودا جرارة في جيش يقدر عدده بخمسة عشر الف فارس وعشرين الف راجل قاصدين تدمير مسيحيي القدس في معركة[2]. وعندما وصلوا الى عسقلان، تقدم طغتكين ملك دمشق[3] مع رجاله، بعد ان عبر نهر الاردن، ليقدم المساعدة لهم. وعلاوة على ذلك ابحر اسطول خطر لا يستهان بقوته الى عسقلان، الا ان هذا الاسطول المؤلف من السفن الحربية وسفن المؤونة، غادر الى صور. ولكن الرجال الذين حضروا برا بقوا في عسقلان توقعا للقتال.

٢) ثم سارع الملك بلدوين مع رجال انطاكية وطرابلس.[4]، الذين كان قد بعث يستدعيهم للقتال في الاستعداد للمعركة ضد جيش العدو. وعندما مروا قرب اشدود[5] مدينة الفلسطينيين القديمة، أمر بانزال الخيام من على ظهوز الدواب واقام معسكره على مقربة من المصريين لكي يستطيع الجيشان مراقبة بعضهما البعض كل يوم.

٣) وبما أن كل طرف خشي كثيرا من مغبة مهاجمة الطرف الاخر، ثم لأنهم فضلوا الحياة على الموت، فقد نجح الطرفان في تأجيل القتال قرابة ثلاثة

---

* يواصل فوشيه على الدوام تسمية مصر باسم بابلون.

اشهر لاسباب مثل هذه. ثم اقلع الشرقيون عن الحرب وقد اضناهم التواني. وعاد رجال انطاكية الى بلادهم ولكنهم خصصوا مفرزة من ثلاثمائة جندي لبلدوين، وذاك تقوية لجيش الملك، اذا ما اقتضت الضرورة، في حالة عودة المصريين لاستئناف الحرب.

المعركة ومذبحة اهل انطاكية الذين كانوا يحاربون الاتراك

١) في عام ١١١٩ بعد ميلاد الرب، توفي البابا جيلاسيوس، خليفة باسكال، في اليوم الرابع قبل غرة شهر شباط[٦]، ودفن في كلوني. وتمّ اختيار كاليكستس، الذي كان اسقف مدينة فيين، خليفة له.[٧].

٢) لا نود ان نثقل على قارىء هذا التاريخ بتعداد كل الحوادث المشؤومة التي وقعت ذلك العام في منطقة انطاكية، وكيف خرج روجر، امير تلك المدينة مع قادته ورجاله ليقاتل الاتراك، فقتل على مقربة من بلدة ارتاح[٨]. وكيف قتل سبعة الاف من رجال انطاكية وما قتل من الاتراك سوى عشرين.

٣) لا ينبغي ان يعجب أحد كيف سمح الله بدحر روجر ورجاله اذ انهم اغرقوا في الملذات وتمتعوا بالثروات من كل صنف ولم يكنوا في اثمهم اي احترام لله ولا للانسان.[٩]

٤) فقد ارتكب بنفسه الفحشاء بلا حياء مع الكثيرات وهو ما زال يقطن مع زوجته[١٠]، وحرم سيده ذاته، ابن بيهمند، من ميراثه وقد كان هذا يعيش مع والدته في ابوليا في ذلك الوقت[١١] وقد أثم هو والقادة من رجاله وكلهم يعيشون في البذخ والرفاه، وارتكبوا كثيرا من المعاصي فانطبق عليهم ما قال داود "جحظت عيونهم من الشحم. جاوزوا تصورات القلب" (مزامير ٧٣ : ٧) وقل ما ساد الاعتدال في غمرة المتع الوافرة.

كيف سارع الملك بلدوين، اذ حمل صليب الرب، لمد العون لاهل انطاكية

١) تبع مذبحة اهل انطاكية نصر[١٢] مبين آخر حالف أهل القدس بأعجوبة، بفضل الله.

٢) اذ لما اعلم روجر المذكور الملك في القدس عن طريق مراسليه ان على هذا

الاخير ان يسارع لنجدته لان الاتراك كانوا يزحفون ضده بجيش عرمرم، اوقف الملك كل اشغاله الاخرى وكان قد خرج لقتال اهل دمشق على مقربة من نهر الاردن واخذ معه البطريرك ومعه صليب الرب[١٣]. وبعد ان طارد الاعداء بهمة واقصاهم عن الحقول في مناطقه سارع دون تباطؤ لمد العون لاهل انطاكية، واخذ معه اسقف القيصرية[١٤] الذي حمل على الاعداء فيما بعد رافعا صليب الرب ببسالة فائقة. كما احضر الملك معه كونت طرابلس فاجتمع لديهما مئتان وخمسون فارسا.[١٥]

٣) عندما وصلوا الى انطاكية ارسل الملك وفداً لاهل الرها[١٦] يأمرهم بالاسراع بالزحف قسرا للانضمام للحملة التي تدبر ضد الاتراك. بعد ان انضم الى الملك جنود انطاكية الذين كانوا قد فروا من المعركة الاولى، او نجوا صدفة من الموت، بدأت المعركة على مقربة من بلدة تدعى سردانيوم[١٧] وهي تبعد اربعة وعشرين ميلا من انطاكية وكان عدد فرساننا سبعمائة وعدد الاتراك عشرين الفا، واسم قائدهم غازي.[١٨]

٤) اعتقد انه لا ينبغي علي ان اغفل عن ذكر ما قاله احد الاتراك، اذ لاحظ ان احد فرساننا ينطق باللغة الفارسية "اقول لك ايها الافرنجي، أأحمق انت، فتجهد نفسك عبثا؟ فليس لكم بالفوز علينا قط، اذ انكم قلة ونحن كثرة. والحق ان الهكم قد تخلى عنكم لعلمه بأنكم لا تقيمون شرائعه كما حق عليكم، ولا تحفظون الايمان والصدق فيما بينكم ولا ريب اننا سنقهركم في الغد ونهزمكم". آه ما اشد خزي وعار المسيحيين اذ يعيرنا من لا دين له في ديننا. ومن اجل هذا يحق علينا ان نفرط في الخجل. وأن نذرف الدموع ونتوب ونقوم اخطاءنا.

المعركة والنصر الذي احرزناه بقوة الصليب القدوس واستقبال الصليب في انطاكية

١) لذلك نشب قتال عنيف كما ذكرنا، في اليوم التالي[١٩]. ولم يحسم النصر لاي طرف لفترة طويلة حتى اكره الله القدير الاتراك على الفرار بأن الهب المسيحيين بحمية ضدهم. رغم ذلك كان الاتراك اذ هاجموا المسيحيين في البداية قد شتتوهم الى مجموعات ضئيلة ولاحقوهم الى ابواب انطاكية، ولم

يقدر المسيحيون ان يجمعوا رفاقهم. ولكن الله من الناحية الاخرى شتتت شمل الاتراك، فالتجأ بعضهم الى داخل مدينة حلب طلبا للامان، وفر اخرون الى ديارهم في بلاد الفرس.[٢٠]

٢) وعلاوة على ذلك، اظهر ملك القدس وكونت طرابلس ورجالهم انهم حلفاء مخلصون للصليب العالي المجد فحملوه معهم للمعركة كخدام للرب، وذادوا عنه بثبات وبسالة وما تخلوا عنه، وصمدوا برجولة ودافعوا عن مواقعهم في ساحة المعركة. وبقوة هذا الصليب الغالي، العظيم القدسية، اختطف الله الكلي القدرة، خدامه من قبضة الجنس المقيت من الاتراك، وصان قومه وادخرهم لمهمة مقبلة في خدمته.

٣) بعد ان قام الملك بحراسة ارض المعركة لمدة يومين وما رجع احد من الاتراك للقتال، حمل صليب الرب وتقدم نحو انطاكية.[٢١]

٤) فخرج بطريرك انطاكية ليقابل الصليب العظيم القدسية والملك، ورجال الدين الذين حملوه.[٢٢] وقدّم الجميع الشكر لله وصبوا عذب الثناء للرب القدير الذي منح النصر، بقوة الصليب العظيم القدسية للمسيحيين واعاد الصليب لبلاد المسيحيين سليما لم يمسه اذى. فبكوا خشوعا وانشدوا فرحا وركعوا مرارا عابدين امام الصليب الجدير بالاحترام والتبجيل ونهضوا ثانية رافعين وجوههم لاسداء الشكر.

٥) شعر

ظهرت الشمس مرتين في برج العذراء،
عندما احتدمت هذه المعركة التي هزم فيها البارثيون
وفي ذلك الوقت كان الهلال قد اضاء لعشر ليال.[٢٣]

استقبال الصليب المقدس في القدس

١) بعد ان استراح الفرنجة في انطاكية فترة وجيزة، قرروا العودة للقدس مع صليب الرب المبارك، حسب الاصول. فأرسل الملك الصليب الى القدس بعد ان زود للمهمة العدد اللازم من الجنود. فدخلوا به المدينة المقدسة جذلين في اليوم الذي احتفلوا به بعيد اجلاله كما فعل الامبراطور هرقل من قبل عندما استرجعه من بلاد الفرس.[٢٤] واستقبل اهل القدس برمتهم الصليب بغبطة تفوق الوصف.

حصول الملك على امارة انطاكية

١) لكن الضرورة اقتضت ان يبقى الملك في انطاكية الى ان يمنح اراضي من توفي من النبلاء للاحياء حسب اصول الشرع والى ان يجمع بين الارامل، وقد وجد منهن الكثيرات، وبين ازواج يكنون لهن الطاعة والمودة، والى ان يعيد تنظيم الكثير مما اقتضت اعادته الى وضعه السابق. اذ انه حتى ذلك الوقت كان مجرد ملك لاهل القدس، ولكن بوفاة امير انطاكية روجر جعل بلدوين ملكا لاهل انطاكية في تلك المملكة الاخرى ايضا.[٢٥]

٢) لذا، فإنني احث الملك واتوسل اليه، ان يحب الله بكل قلبه وبكل عقله وكل قوته وان يكرس نفسه كلية خادما مطيعا لله، ويشكره على ما اعطاه وان يعترف، وقد وجد في الرب صديقا مخلصا، بأنه خادمه الوضيع. فمن رفع الرب من اسلاف بلدوين كما رفعه هو؟ لقد جعل الرب الاخرين مالكي مملكة واحدة ولكنه ملّك بلدوين اثنتين. وقد احرزهما دون خداع ودون سفك دماء ودون عناء التقاضي بل بسلام وبارادة الله.

٣) لقد منحه الله البلاد الواسعة ما بين مصر وبلاد ما بين النهرين[٢٦] ومد الرب نحوه يده بسخاء. فعليه اذن ان يحذر ولا يمد يدا حاقدة نحو الله الذي يمنح بوفرة ولا ينشغل بسفاسف الامور، وإن اراد بلدوين ان يكون ملكاً فعليه ان يجهد في ان يحكم بالعدل.[٢٧]

٤) عاد الملك بعد كثير من الانجازات من انطاكية الى القدس. وقد تم تتويجه وزوجته بالتاج الملكي في بيت لحم يوم عيد الميلاد.[٢٨]

الاعفاء من الضرائب

١) في عام ١١٢٠ بعد ميلاد الرب اعفى الملك بلدوين الثاني من جميع الضرائب كل من شاء ان يحضر الحنطة والشعير والبقوليات الى مدينة القدس، فأصبح للمسيحيين كما للشرقيين الحرية في ان يدخلوا او يخرجوا منها ويشتروا ما ارادوا ممن شاءوا، ثم انه الغى مكوس الاكيال المعتادة.[٢٩]

تجمع الاتراك وحملة الملك عليهم

١) بعد ان قضينا ستة شهور من ذلك العام في القدس، وصلت رسل من انطاكية تعلن للملك ولجميع الحاضرين منا[٣٠] ان الاتراك عبروا نهر الفرات[٣١] ودخلوا سويا للتحرش بالمسيحيين كما فعلوا من قبل.

٢) ثم توسل الملك، بعد عقد المشورة كما اقتضت الضرورة، من البطريرك والكهنوت بكل تواضع ان يعهد اليه بصليب الرب الظافر وقال انه ينبغي ان يتقوى هو ورجاله به تحضيرا للمعركة اذ انه اعتقد انه لن يمكن طرد الاتراك من البلاد التي بدأوا فعلا بتدميرها دون معركة شرسة. ولما لم يثق بقوته ولا بكثرة الرجال الذين في صحبته فقد آثر ان يمتلك ذاك الصليب ومعه عون الرب ورعايته على عدة الاف من الرجال.

٣) لذلك نشب خلاف حاد في الرأي بين اولئك الذاهبين الى المعركة وبين الباقين في القدس حول وجود الصليب في مثل هذه الازمة التي واجهتها المسيحية، وعما كان من الافضل ان يحمل الى انطاكية واذا ما توجب حرمان كنيسة القدس من مثل هذا الكنز. "وقلنا واأسفاه ماذا نفعل لو سمح الله بأن نفقد الصليب في المعركة كما فقد الاسرائيليون مرة تابوت الله" صموئيل الاول ٤ : ١٠ - ١١)*

٤) ولماذا نسجل اكثر من ذلك؟ فقد حثتنا الضرورة، وعلمنا العقل، وفعلنا ما لم نرغب، وقررنا ان نفعل ما لم نبتغ. وبعد ان ذرفت دموع غزيرة عبادة للصليب، وانشدت التراتيل مديحا له بينما وقف الملك والبطريرك والناس عن بكرة ابيهم حفاة الاقدام ثم رافقوه خارج المدينة، غادر الملك به وهو يذرف الدموع، بينما عاد الناس الى المدينة المقدسة، وحصل ذلك في شهر حزيران.

٥) ثم انهم ذهبوا الى انطاكية، التي كان الاتراك يتحرشون بها في تلك الفترة عن قرب حتى ان سكانها ما كادوا يجسرون على الخروج منها ابعد من ميل. ولما سمع الاتراك باقتراب الملك، غادروا على الفور وانسحبوا نحو مدينة

---

* صموئيل الاول ٤ : ١٠ - ١١
فحارب الفلسطينيون وانكسر اسرائيل وهربوا كل واحد الى خيمته وكانت الضربة عظيمة جدا وسقط من اسرائيل ثلاثون ' راجل. واخذ تابوت الله ومات ابناء عالي حفني وفيخاس.

حلب حيث ظنوها اسلم لهم وانضم اليهم هناك ثلاثة الاف جندي من دمشق.

٦) ولكن بعد ان دنا الملك منهم بعد زحف جسور لكي يشتبك في المعركة معهم، وبعد ان جرح وقتل الكثيرون من الطرفين بالسهام، رفض الاتراك الدخول في اشتباك عام. ورجع رجالنا بعد ثلاثة ايام من نزاعات غير حاسمة من هذا الطراز الى انطاكية وعاد معظم الاتراك الى بلادهم في فارس.[٣٢]

٧) اخيرا أعاد الملك الصليب المقدس باجلال ملائم الى القدس، بينما بقي هو نفسه في منطقة انطاكية لكي يحمي البلاد. وهكذا استقبلنا بترحاب وغبطة صليب الرب العالي المجد الى القدس في اليوم الثالث عشر قبل غرة شهر تشرين الثاني.[٣٣]

حملة الملك على اهل دمشق وتدمير قلعتهم

١) في عام ١١٢١ بعد ميلاد الرب، جمع الملك رجاله من البلاد ما بين صيدا ويافا في اليوم الثالث قبل السابع من تموز[٣٤] وعبر نهر الاردن. وزحف ضد ملك دمشق[٣٥] الذي كان يدمر مع حلفائه العرب بلادنا المجاورة لطبريا دون ان يقاومه احد.

٢) لما ادرك هذا ان ملكنا كان يقترب منه بجيشه، جمع خيامه على الفور، وتجنب المعركة ملتجئا الى مناطقه.

٣) بعد ان لاحق مليكنا العدو يومين اثنين، ولم يجسر العدو على القتال انسحب ملكنا وعاد الى قلعة حصينة كان طغتكين ملك دمشق، قد أمر بتشييدها في العام السابق بقصد التحرش بنا. وقد قدرنا انها تبعد ستة عشر ميلاً عن نهر الاردن. وضع الملك عليها الحصار وهاجمها بالآلات واخذها عنوة وقبل استسلامها وسمح لحاميتها المؤلفة من اربعين تركيا ان يغادروا حسب الشروط ثم دمرها حتى سواها بالارض.

٤) وقد دعا سكان هذه المناطق القلعة باسم جرش. وكانت تقع داخل مدينة بنيت بروعة وبهاء في غابر الزمان في موقع منيع. وقد بنيت من حجارة كبيرة مربعة. ولكن لما ادرك الملك مدى المشقة التي واجهها في احتلال ذلك الموقع

ومدى صعوبة تزويد القلعة بالرجال والمؤونة اللازمة امر بتدميرها وبعودة رجاله الى ديارهم.

٥) تدعى هذه المدينة التي اشتهرت فيما مضى في بلاد العرب جراس (جرش)[٣٦] وهي تقع على مقربة جبل جلعاد في بلاد قبيلة المناسة.

٦) شعر
"انصرمت هذه السنة بالسعادة من كل النواحي،
وبأمان وازدهار ووفرة في الثمار من كل صنف".

حملة الملك على كونت طرابلس ثم على الاتراك

١) في عام ١١٢٢ بعد ميلاد الرب، تم تعيين اسقف صور ويدعى اودو، اول شخص من العرق اللاتيني اسقفا للقدس.[٣٧]

٢) ثم خرج الملك الى عكا حيث جمع رجاله من الفرسان والمشاة. واتجه نحو طرابلس على رأس جيشه حاملا صليب الرب معه. وقد اراد ان يثأر للاذى والاهانة اللتين الحقهما به كونت تلك المنطقة المدعو بونز، برفضه الخضوع اليه كما كان قد فعل والده برتراند[٣٨]

٣) بعد ان تم التوفيق بينهما، ظهر هناك اسقف[٣٩] مرسل من قبل اهل انطاكية، وحث الملك على ان يسارع الى انطاكية ليقوم باغاثتها من الاتراك. وقد كان هؤلاء يخربون البلاد دون ان يقاومهم اي قائد مسيحي.

٤) بادر الملك عند سماعه ذاك على الفور، وأخذ معه ثلاثمائة من فرسانه المنتقين واربعمائة من افضل مشاته الذين احضرهم من مكان آخر. وعاد بقية رجاله الى القدس او الى ديارهم. ولكن لما وصل الملك الى حيث سمع ان الاتراك قد تجمعوا وبدأوا في حصار قلعة تدعى الزردانة انسل الاتراك وغادروا غير راغبين في مواجهة الملك. فلما سمع الملك بذلك رجع الى انطاكية.[٤٠]

٥) ثم عاد الاتراك مجددا لاستئناف مشروعهم. ولما سمع الملك التقارير بهذا الصدد زحف عليهم في الحال، ولكن هؤلاء الناس لكونهم بارثيين حقيقيين في تكتيك المعركة والعتاد، ولتميزهم بأنهم لا يمكثون طويلا في اي موقع (فهم يديرون بأسرع مما يمكن تصوره وجوههم مرة واعقابهم مرة اخرى لمن

يقابلهم فيفرون بغتة متظاهرين باليأس ثم يرتدون فجأة ليعيدوا الهجوم) لم يدربوا انفسهم على القتال وهم محصورون في مكان محدد، بل يتجنبون المواجهة كليا ويفرون كما لو اصيبوا بالهزيمة.[41]

٦) فلتحل البركة على راية صليب الرب العالي القدسية، ذلك العون المتواجد في كل مكان لجميع الراشدين الذي يدعم المؤمنين بحمايته وسلوانه. فقد سمح لمسيحيينا بأن يعودوا الى ديارهم دون ان يمسهم ضرر. وقد قدر عدد الاعداء حقا بحوالى عشرة الاف جندي، بينما كان عددنا الفا ومئتين عدا المشاة.

٧) وبعد ان عاد الملك الى طرابلس بصحبة صليب الرب، طرأ ما ادى الى عودته مع بعض رجاله الى انطاكية. وحمل صليب الرب الى القدس بغبطة فائقة واعيد الى موقعه باجلال عظيم في اليوم الثاني عشر قبل غرة شهر تشرين الاول.[42]

شعر

"كان ذاك الوقت الذي يحمل فيه برج الميزان الساعات المتكافئة،
المتكافئة في العدد، كما هي متشابهة في الطول"[43]

أسر كونت الرها

١) في تلك الاثناء وقع جوسلين، كونت الرها في الاسر ومعه جاليران قريبه، وقتل ما لا يقل عن مئة من رجال جوسلين، فقد داهمهم كمين بلك، وهو احد الامراء.[44]

٢) انقضى هذا العام كالعام الماضي بوفرة في الانتاج من كل الاصناف من كل ما جنى في الحقل وبيع مكيال الحنطة بدينار والاربعين بقطعة ذهب وفي ذلك الوقت لم تشن بارثيا (العراق) وبابيلون (مصر) اية حروب.[45]

توطيد السلام بين البابا والامبراطور

١) في عام ١١٢٣ بعد ميلاد الرب في الخمسعشرية الاولى، عاد الوئام بين ملك المانيا هنري والبابا جاليكتس. الحمد لله اذ توحد العرش والكنيسة ثانية في المحبة.[46]

استعدادات اهل البندقية للاسراع الى القدس .

١) في ذلك اليوم(٤٧)، اوحي لاهل البندقية بأن يبحروا بأسطول عظيم(٤٨) الى سوريا لكي يعززوا بعون الله، القدس والمناطق المجاورة، وكل ذلك منفعة وتمجيدا للمسيحية. وكانوا قد غادروا بلادهم في العام السابق(٤٩) وقضوا الشتاء في جزيرة كورفو(٥٠)، مترقبين فصلا ملائما لعبور البحر.

٢) تألف اسطولهم من مئة وعشرين سفينة، عدا القوارب والزوارق الصغيرة وكانت بعض السفن ذات مناقير، وبعضها سفنا تجارية والبعض الاخر ثلاثي المجاذيف.(٥١) وقد شيدت على هذه الانماط الثلاثة.

٣) وحمّلت بقطع خشبية كبيرة يمكن استعمالها، اذا ما حذق النجارون بصنع آلات حصار منها، لتسلق اسوار المدن العالية والاستيلاء عليها.

وقت ابحارهم

١) لم يتباطأ اهل البندقية، بعد حلول الربيع(٥٢) وانفتاح طرق البحر امام سفنهم، في تنفيذ العهود الراسخة التي قطعوها على انفسهم لله. وبعد ان تزودوا بالمؤونة الوافرة للرحلة واضرموا النيران بالاكواخ التي قضوا فيها الشتاء وناشدوا عون الله، عزفوا ابواقهم بابتهاج ورفعوا اشرعتهم.

٢) وقد ابهجت السفن قلوب من رآها عن بعد، اذ انها طليت بألوان متعددة وكان فيها خمسة عشر الف مقاتل، من اهل البندقية والحجاج(٥٣) الذين ضموهم معهم. وقد اخذوا علاوة على ذلك ثلاثمائة حصان.

٣) ولما هبت نسمة لطيفة من الشمال، انفصلوا بمهارة عن معابرهم الخشبية واتجهوا نحو ميثون(٥٤)، ومن ثم الى رودس.

٤) كان من الضروري ان يسافروا مجتمعين لا متفرقين، وبسبب تقلب الريح، تعين عليهم ان يمارسوا بعد النظر ويغيروا مجراهم لئلا يتفرقوا فجأة بعضهم عن بعض. فأبحروا لهذه الاسباب مسافات قصيرة، خلال النهار لا الليل، ووطئوا اليابسة لحاجاتهم اليومية في مرافىء عديدة لكي لا يعانوا وجيادهم من العطش لنقص المياه العذبة.(٥٥)

وقوع بلدوين في الاسر واستبداله بشخص يدعى بوستاس

١) حدث في تلك الفترة ان بلدوين ملك اهل القدس وقع في الاسر[٥٦] فقد اسره بلك الذي كان قد أسر[٥٧] جوسلين وجاليران من قبل. لم يكن بلدوين يتوقع ذلك ولم يكن مستعدا له. وما أفرح الكفار امر اكثر من هذا ولا ارهب المسيحيين.

٢) بعد ان وصلتنا الاخبار في القدس حضر الجميع الى مؤتمر في مدينة عكا لعقد المشورة فيما ينبغي عمله، فاختاروا ونصبوا حاميا وقائدا للبلاد شخصا يدعى يوستاس، وهو رجل باسل امين الخلق كان يملك في ذلك الحين القيصرية وصيدا[٥٨]. وقد توصل الى هذا القرار بطريرك القدس[٥٩] ومعه عظماء الرجال في البلاد، وأمر بأن يسري مفعوله الى ان يتيقنوا بدون ريب من مصير ملكهم الامير.

٣) هكذا كان الوضع في منتصف ايار عندما سمعنا بغتة بأن المصريين* وصلوا الى عسقلان بحشد من مجموعتين، وصلت احداهما بحرا والاخرى برا. فقررنا تحضير سفينة صغيرة شديدة السرعة[٦٠] لارسال المبعوثين لاسطول البندقية لنناشد البنادقة بأن يُعجلوا بالابحار لاغاثتنا من المأزق الذي بدأ بالاحاقة بنا.

حصار اهل يافا ثانية من قبل المصريين واصابتهم بالعذاب الشديد

١) ثم اندفع المصريون نحو يافا بأسطولهم[٦١] وانطلقوا من سفنهم بموكب عظيم وأبهة على عزف الابواق النحاسية وأحاطوا بالمدينة محاصرينها ثم شرعوا على الفور في نصب آلات دك الاسوار وغيرها من المعدات التي كانوا قد احضروها في سفنهم الكبرى[٦٢] وشنوا الهجوم على المدينة من جميع النواحي وضيقوا عليها بقذف حجارة من احجام لم يسبق لها مثيل.

٢) ذلك لانهم امتلكوا مجانيق عظيمة القوة، اطلقوا منها الحجارة ابعد من مدى السهام. وشن مشاة العرب او الاحباش الذين احضروهم، ومعهم جمع

---

* يدعوهم فوشيه هنا كعادته بالبابلونيين.

من الفرسان هجوما على اهل يافا. وفي كلا الطرفين قذف بعضهم الرماح، وبعضهم الحجارة ورمى الاخرون السهام. ثم ان اولئك الذين كانوا داخل المدينة، مقاتلين برجولة عن أنفسهم نحروا من كان خارجها بالطعنات المتتالية.

٣) حمل الاحباش دروعا في اياديهم فغطوا انفسهم واحتموا. ودأبت نساء يافا على تقديم العون على الدوام للمواطنين الذين كانوا يناضلون ببسالة. وقام بعضهن بتزويد الحجارة والاخريات باحضار الماء للشرب.

٤) وعلى مدى خمسة ايام[٦٣] الحق الشرقيون بالاسوار قليلا من الضرر، ودمروا كثيرا من الشرفات المفرجة في الاسوار بقذفها بالحجارة. ثم سمعوا باقتراب قدومنا فوضعوا حدا للقتال بعزف الابواق. وفككوا آلات الحصار ونقلوها الى سفنهم.

٥) ولو أنهم تجرأوا على اطالة مكوثهم هناك لاخذوا المدينة بلا ريب، لقلة عدد المدافعين عنها. وكانوا فعلا قد حفروا حول السور هنا وهناك أملين في اقتحامه بسرعة علاوة على انه كان لديهم اسطول من ثمانين سفينة.[٦٤]

المعركة مع الاتراك وكيف فاز المسيحيون بالنصر بمعونة الصليب المقدس

١) لما علم قومنا من حملة الاشاعات باقتراب الخطر احتشدوا من جميع الانحاء في جيش امام قلعة معينة يدعوها السكان المحليون باسم قاقون.[٦٥] وقدموا من طبريا وعكا والقيصرية والقدس. وبعد ان احضر صليب الرب لمكان الاجتماع، بادر قومنا بالاستعداد لقتال العدو قرب مدينة الرملة القريبة من اللد.[٦٦]

٢) اما نحن الذين بقينا في القدس، من لاتين واغريق وسوريين، فلم نتوقف عن الصلاة، لاخواننا الذين ابتلوا بالمحنة، وعن تقديم الصدقات للمحتاجين، وعن القيام في ذات الوقت بزيارة جميع كنائس المدينة المقدسة ماشين في موكب خاشعين حفاة الاقدام.

٣) في تلك الاثناء امر قوادنا، وقد استيقظوا على انبلاج الفجر، رجالهم الذين اصطفوا بانتظام في مجموعاتهم بأن يزحفوا نحو الرملة. وبعد ان منح البطريرك بركاته وغفرانه نشبت المعركة قرب اشدود وقد كانت هذه سالفا

احدى المدن الفلسطينية الخمسة[٦٧] ولكنها تدعى الآن ايبنيوم وقد قل شأنها اليوم فهي قرية صغيرة.

٤) على ان هذه المعركة لم تدم طويلا اذ لما رأى اعداؤنا رجالنا المسلحين يزحفون نحوهم بانضباط من الطراز الاول، ازمع فرسانهم على الفرار في الحال كما لو مسهم جنون ودب فيهم الهلع بدل ان يحكموا عقلهم. وتم ذبح مشاتهم.

٥) بقيت على ساحة المعركة كل خيامهم وممتلكاتهم من جميع الاصناف. وقد انتزعنا منهم ثلاثة بيارق نفيسة جدا. واحضر رجالنا معهم اصنافا عديدة من الاشياء من الفراش والوسائد وعديدا من العربات المحملة بالمتاع، بالاضافة الى اربعمائة جمل وخمسمائة حمار.

٦) وقد قتل ستة آلاف من الستة عشر الفا من الاعداء الذين قدموا الى المعركة[٦٨] ولكن قليلا من رجالنا قتلوا. وقدر عدد رجالنا بثمانية آلاف ولكنهم كانوا شجعانا فائقي المهارة ملهمين على القتال واثقين بمحبة الله، ومحصنين بثقتهم الكاملة به.

٧) شعر

طلعت الشمس اثنتي عشرة مرة في برج الجوزاء[٦٩]
عندما هلك اولئك القوم المتوحشون بقدرة الله.
وطرحت أجسادهم على سهول بلاد فلسطين
واصبحت قوتا للذئاب والضباع

استقبال الصليب المقدس من قبل اهل القدس

١) بعد ان تم الفوز في المعركة، كما ذكرنا، بقوة الله وتعظيما لاسمه، وتمجيدا للمسيحية، عاد البطريرك الى القدس ومعه صليب الرب المقدس. وقد استقبله موكب حافل خارج بوابة داود ونقل بأسمى درجات التبجيل الى الباسيليقا داخل كنيسة قيامة الرب. وقدمنا المديح لله القدير على بركاته ونحن ننشد "الشكر لله"[٧٠]

وصول اهل البندقية ومعركتهم البحرية مع الشرقيين

١) في اليوم التالي بعد الفوز بهذا النصر المؤزر وصلتنا انباء اخرى. [٧١] فقد اثلج صدورنا ان نسمع بأن اسطولا من اهل البندقية قد دخل كثيرا من الموانىء الفلسطينية. والحق ان الشائعات قد سبق وتنبأت بوصوله لفترة طويلة[٧٢] وحال وصول الدوج رئيس اهل البندقية[٧٣]، وآمر الاسطول الى عكا، اعلم على الفور بما حدث في يافا في البر والبحر وكيف اوقع المصريون قدر ما استطاعوا من الدمار ثم غادروا بعدما انجزوا قصدهم. واذا ما شاء الدوج بأن يلاحقهم بهمة فبمقدوره ان يدركهم بعون الله.

٢) فعقد المشاورات على الفور مع بحارته وقسم اسطوله. وتولى هو نفسه امرة عمارة بحرية وأبحر نحو يافا ثم ارسل الاخرى بدهاء وخبث الى عرض البحر لكي يظن الشرقيون انها ستجلب حجاجا الى القدس من نواحي قبرص.

٣) لما رأى الشرقيون ثماني عشرة سفينة من اسطول اهل البندقية تقترب منهم، شرعوا بالتهليل وكأن الغنائم قد وقعت فعلا بأيديهم وتهيئوا للابحار نحوهم لينازلوهم ببسالة في المعركة. [٧٤]

٤) لكن رجالنا، متظاهرين بخشية القتال، ومنتظرين بدهاء وصول العمارة البحرية الاخرى التي تفوق الاولى عددا والتحاقها بمؤخرة الاسطول، لم يجنحوا للفرار ولا للقتال الى ان شاهد الشرقيون السفن تلتحق بمؤخرتنا واشرعتها منشورة ومجاديفها مشدودة.

٥) ارتفعت معنويات اهل البندقية بذلك وانقضوا على اعدائهم بضراوة تجل عن الوصف وحصروهم من جميع النواحي حتى ما استطاعوا ان يروا لانفسهم اي مخرج. وقد تم حصر الشرقيين بطريقة مذهلة فما اتيح للسفن ولا للبحارة ان ينجوا من اي ناحية بينما ركب اهل البندقية متن سفنهم وامعنوا في تقطيع اوصال رجالهم.

٦) من الصعب تصديق هذه الحقيقة لان احدا لم يسمع بمثلها من قبل، ولكن اقدام المهاجمين في السفن تلطخت بالدماء. وهكذا تم الاستيلاء على هذه السفن المحملة بالثروات الطائلة. وبعد ان طرحت الجثث خارج السفن

كنت ترى البحر وقد امتد احمرار مياهه لبعد اربعة اميال.[٧٥]

٧) ثم لما اقلع رجالنا الى ما بعد عسقلان[٧٦] يستقصون عما يتيسر وجوده، اكتشفوا عشر سفن اخرى محملة بالمؤونة من مختلف الاصناف، قادمة نحوهم. وكان في هذه السفن قطع خشبية مستقيمة عظيمة الطول تصلح لتشييد الالات الحربية فأخذوا هذه السفن وما عليها من المعدات الحربية والذهب والعملة الفضية والبهارات والفلفل واصناف عديدة من العطور.

٨) واحرقوا على رمال الشاطىء بعض السفن التي لجأت الى الشاطىء، ولكنهم احضروا اكثر منها الى عكا دون ان يمسوها بأذى. وهكذا كافأ الرب عبيده بأضعاف مضاعفة من العطايا الوافرة.

لم يخذل اهل القدس مع ان مليكهم وقع في الاسر

١) طوبى لقوم يكون الله دوما معينهم! طوبى للامة التي الرب آلهها (مزامير ٢٣ : ١٢)[٧٧] فقد قال الوثنيون "لنخرج ونمحق الامة المسيحية محقا ونزيل ذكرها عن وجه الارض. فهم الآن بلا ملك مثل اعضاء الجسد بلا رأس" حقا قالوا اذ انهم ما علموا ان الله كان مليكنا.

٢) لقد فقدنا بلدوين[٧٨] ولكننا اتخذنا الله ملكا للجميع وتضرعنا اليه في وقت حاجتنا، وبه انتصرنا بمعجزة[٧٩]. لعل من فقدنا عرضا لم يكن ملكا، ولكن من احرز لنا النصر مؤخرا ليس هو ملك القدس فحسب بل هو ملك العالم بأسره. علينا ان نقر بحق انه كان لدينا فعلا ملك في المعركة وهو لدينا الان وسوف يكون دوما لدينا، اذ اننا سنؤثره على جميع الاخرين في كل مساعينا "فالرب قريب لكل الذين يدعونه، الذين يدعونه بحق" (مزامير ١٤٥ : ١٨)

٣) لقد رانا في محنتنا نعاني من شدة العذاب فغمرنا برحمته وترفق لخضوعنا واطلق سراحنا "مبارك الرب الذي لم يسلمنا فريسة لاسنانهم" (مزامير ١٢٤ : ٦) فقاتل معنا اعداءنا. وشيمته ان يقهر دوما ابدا. فهو يغلب ولا يغلب وهو لا يخدع. هو ملك بحق، اذ انه يحكم بالعدل. وكيف يكون ملكا بحق من تقهره عيوبه دوما؟ وكيف يحق لامرىء ان يدعى ملكا اذا ما دأب على تجاوز القانون دائما وابدا؟ ذلك لان من لا يحافظ على قانون الله فليس له ان يطاع، ولأن من لا يخاف الله فسوف يخاف الانسان الذي هو عدوه. اما من

كان زانيا، وحانثا بقسمه، وفاسقا فقدْ فَقدَ لقب الملك، وهل من يثق بمحتال مخادع؟ فإن رضي بـه من لم يقسم بالتقـوى فكيف يصغي اليه الله؟ وان كـان سالبا للكنائس، وان كان ظالما للفقراء، فهو لا يحكم بل يطغى.

٤) فلنتعلق بـالملك في الاعـالي ونضـع املنـا بـه وهـو لن يخيب مسعـانـا في الاخرة.

وفاة يوستاس وخلافة وليم

١) تـوفي في تلك الفترة الحـرجة يـوستاس الـذي كان قـد اختير وصيـا عـلى البلاد في اليوم السابع عشر قبل غرة تموز[٨٠] واستقر القرار على تنصيب وليم بوريس الذي ملك طبريا في ذلك الوقت، خليفة له.[٨١]

كيف نجا الملك بلدوين من الأسر

١) في منتصف شهر آب[٨٢]، وبرحمة العناية الألهية، نجا ملك القدس بلدوين من اغلال وسجون بلك الـذي كان قـد اعتقله في قلعة معينـة[٨٣]. كان هـذا الموقع حصينا منيعا يصعب اخذه لشدة ارتفاعه. وكان مع بلدوين قيـد الأسر جوسلين كونت الرها وآخرون غيره[٨٤] والحديث عن هذه المسألة يطول الا انه مبارك بتدخل العناية الألهية وموشح بالمعجزات.[٨٥].

٢) فبعد ان وهنوا محتجبين في تلك القلعة لأمـد طويـل دون اي مساعـدة من اصـدقائهم بـدأوا يتدارسـون بينهم كل اصنـاف المخططات والحيـل التي قـد تعينهم عـلى الخلاص من هنـاك. لذلـك دأبوا عـلى طلب العـون عن طـريق مبعوثين مؤتمنين من اصدقائهم حيثما كانوا. وبذلوا قصـارى جهدهم ليتـآمروا مع الارمن الذين يقطنون حـولهم من اجل تحقيق هـذا الغرض، حتى اذا مـا استـطاعوا ان يحصلوا عـلى العون من اصـدقائهم في الخـارج فسـوف يستمـر الارمن في كونهم اعوانهم المخلصين.

٣) بعد ان تم الاتفاق على ذلك، وبعد تبادل الهدايا، وبمختلف الوعود وتبـادل حلف الايمـان بعث خمسون نفـرا[٨٦] من مدينـة الرهـا بدهـاء الى القلعة لهـذا الغـرض. فأتـوا متنكرين بـزي رعاع ينتقلون ويبيعـون البضـائـع. وعنـدمـا سنحت الفرصة تدرجوا الى ان شارفوا على ابواب القلعة الداخلية.

٤) وبينما كان آمر الحرب يلعب الشطرنج دون احتراز قرب البوابة مع أحد الرجال المخلصين لنا، اقترب منه عملاؤنا بحذر وبمنتهى المكر كأنهم يودون ان يشتكوا اليه مظلمه احاقت بهم. ثم ضربوا بالحيطة والخوف عرض الحائط واستلوا خناجرهم من اغمادها وذبحوا الأمر لتوه. واستولوا على الحراب التي وجدوها هناك وفتكوا وذبحوا برجولة وبدون تردد.

٥) دب المرج والمرج هناك وعمت الفوضى في الداخل والخارج. واما من سارع في الحضور الى مشهد الحلبة فسرعان ما عوجل بلقاء مصرعه. والحق انه كان هناك قرابة مائة من الاتراك. وتم اطلاق سراح الملك في الحال.

٦) وكان بعضهم ما يزالون بالاصفاد عندما تسلقوا السلالم الى قمة القلعة. وهكذا بانت الحقيقة. وفي هذه القلعة نفسها كانت زوجة بلك وآخرون من العزيزين عليه.[٦٧]

٧) قام الاتراك على الفور باحاطة القلعة من جميع النواحي ومنعوا من كان داخلها وخارجها من الدخول اليها و الخروج منها منعا باتا، واوصدت الابواب واثبتت أحكامها بالمسامير.

كيف نجا كونت الرها من الأسر

١) لا اظن ان علي ان التزم الصمت حيال مصيبة تراءت لبلك في طيف خيال. فقد رأى (وقد روى ذلك بنفسه فيما بعد) مقلتيه يقتلعهما جوسلين. فأخبر حكماءه على الفور عله يعلم منهم تفسير هذا الحلم. فقالوا "حقا سوف يحل بك ذلك، او ما لا يقل عنه سوءا، اذا ما وقعت بين يديه". وحال سماع ذلك ارسل بلك رجالا على الفور لقتل جوسلين لئلا يقتل هو على يديه كما ورد في النبوءة[٦٨]. ولكن قبل ان يصل القتلة الى جوسلين كان هذا قد نجا، بحمد الله من الاسر بالطريقة التي سوف نسرد ذكرها الان.

٢) عقد الملك بلدوين المشاورات الجادة مع كل رجاله لبحث اي وسيلة على الاطلاق يمكن ان تنقذهم من الاسر. وعندما ظنوا ان الوقت الملائم قد حان، وضع اللورد جوسلين روحه على حافة الموت، واودع نفسه بين يدي خالق الكون، وانسل من القلعة يتبعه ثلاثة من الخدم[٦٩]. ومر جوسلين بين غمرة الاعداء في ضوء القمر[٧٠]، يتملكه الخوف كما تتملكه الجرأة. واعاد

على الفور احد رجاله للملك ومعه خاتمه ليظهر انه خط طريقه عبر المحاصرين حسب الاتفاق المسبق بينه وبين بلدوين.

٣) واخيرا، بعد فرار واختباء، وسير في الليل اكثر من النهار، وصل الى نهر الفرات وقد اهترأت نعاله واوشك ان يكون حافي القدمين. ولما لم يكن لديه قارب فلم يتردد في ان يفعل ما أمره به الخوف. وما ذاك؟ لقد نفخ بالهواء قربتين من الجلد كان قد حملهما ووضع نفسه فوقهما والقى بنفسه في النهر[٩١] وقد جهد رفاقه للحفاظ عليه، اذ انه لم يكن يحسن العوم، واحضروه بعون الله سالما الى الشاطىء.

٤) كان التعب قد انهكه بعد هذه الرحلة الفريدة، واضناه الجوع، وهده العطش، وضاق نفسه، ولم يكن حوله احد ليقدم له يد المعونة. وبعد ان اضناه الجهد واثقل عليه النعاس، سمح لنفسه بأن ينام تحت شجرة جوز وجدها هناك. والتحف ببعض الاغصان المقطوعة والعليق لكي لا يتعرف عليه من رآه. وأمر احد خدامه بأن يبحث عن بعض الاهالي ويتوسل اليهم بأن يعطوه او يبيعوه خبزا بأي ثمن اذ انه كان يتضور جوعا.

٥) وجد الخادم ريفيا ارمنيا يحمل عجوة وعناقيد عنب في حقل مجاور وبعد ان بادره بالكلام بحذر احضره لمقابلة سيده[٩٢] اذ ان هذا الاخير كان يتوق لشدة جوعه حتى لمثل هذا الزاد.

٦) عرف الفلاح اللورد جوسلين اذ اقترب منه فوقع عند قدميه قائلا "تحية اليك يا جوسلين" فارتاع هذا لسماعه ما لم يشأ ان يسمع وأجاب "لست أنا من عنيت بمخاطبتك، اعانه الله حيث كان" فأجاب الريفي "اضرع اليك ان لا تنكر ذاتك، فإنني اعرفك حق المعرفة. ولكن خبرني عما جرى لك في هذه الاقطار واتوسل اليك ان لا تخشى مني شرا".

٧) فأجابه الكونت اشفق على حالي، ايها الغريب، انني اتوسل اليك ان لا تعلم اعدائي بما اصابني بل خذني الى مكان آمن فتستحق بذلك اجرا هذه القطعة من النقود. فإنني هارب بمعونة الله، بعد ان نجوت من قيد اسر بلك، من القلعة التي تدعى خربوط الواقعة في بلاد ما بين النهرين في هذا الجانب من نهر الفرات".

٨) وسوف تحسن الصنيع لو قمت بمساعدتي في وقت حاجتي لكي لا اقع ثانية بين ايدي بلك واواجه الهلاك المحتوم. وان انت قبلت واتيت معي الى قلعتي

في تل باشر فسوف تطيب احوالك الى آخر ايام حياتك. فخبرني اذن ماذا وكم تملك في هذه القصاع لكي اعوضها عليك، وازيدك عن طيب خاطر في مقاطعتي اذا ما شئت".

٩) فأجابه الفلاح "انا لا ابتغي منك شيئا سوى ان اقودك بأمان الى حيث تشاء، فإنني اذكر كيف عطفت علي يوما وتناولت الطعام معي. ولذا فأنا جاهز لرد الجميل. ولدي يا سيدي اللورد زوجة وطفلة صغيرة وحمار صغير وشقيقتي وثوران وانني اضع نفسي كلية تحت امرتك. فأنت رجل حكيم عاقل وسوف اذهب معك بكل ما امتلك الان. ولدي ايضا خنزير صغير سوف أطهوه على الفور واحضره اليك"..

١٠) فقال جوسلين "كلا، ايها الاخ، ليس من عادتك ان تأكل خنزيرا كاملا في وجبة واحدة، فلا تثر شكوك جيرانك".

١١) غادر الارمني ثم عاد بكل ما امتلك كما اتفقا. فامتطى الكونت حمار الفلاح الصغير، وهو من كان قد تعود على امتطاء أجود البغال. وحمل امامه الطفلة الصغيرة[٤٣] وهكذا فإن من لم يتسنّ له ان يكون والدا لها تسنى له ان يحملها كما لو كان والدها. وقد فعل ذلك، مع انه لم يكن ابنة من صلبه، لكي يجعل اولئك الذين لا يعلمون يظنون انه أمل حقا بأن تصبح له ذرية.

١٢) ولكن لما بدأت الطفلة بالصراخ والعويل اصاب جوسلين القلق اذ لم يستطع ان يهدئها بأي طريقة، ولم تكن هناك مرضعة ترضعها او تغني لها. ففكر بأن يهجر خوفا عشرة هذه المجموعة التي قد تعرضه للخطر. وان يتقدم وحيدا بأمان. لكن لما ادرك ان ذاك قد يضايق الفلاح لم يشأ ان يزعجه بل ثابر في المهمة التي أخذها على عاتقه.

١٣) ولما وصل الى تل باشر[٤٤] جرى استقباله وضيوفه بغبطة شديدة فابتهجت زوجته[٤٥] وهلل اهل بيته. ولا نقدر ان نشك بمدى البهجة التي اثلجت صدور الجميع وكم ذرفت من دموع الفرح، وكم كثرت التنهدات هناك. اما الفلاح فقد منح دون ابطاء مكافأة حسنة، واعطي بدل زوج من الثيران زوجان.

١٤) ولما لم يستطع الكونت جوسلين ان يمكث طويلا بين اصدقائه فقد ذهب الى انطاكية[٤٦] على الفور ومنها الى القدس[٤٧]. وهناك قدم لله الشكر الذي دان به لرحمته. وقدم القيدين اللذين كان قد حملهما معه عطية وعلقهما

بتبجيل على الجبل الذي صلب فيه المسيح تذكارا لاسره وتمجيدا لخلاصه. وكان احدهما من الحديد والآخر من الفضة.

١٥) غادر القدس بعد ثلاثة ايام[٩٨] ملاحقا صليب الرب الذي كان قد ارسل الى طرابلس. اذ ان جيش الرب كان في طريقه مع الصليب الى خربوط، قلعة بلك، حيث اعتقل الملك وعدد من اعوانه غير مقيدين بالسلاسل، بل آمنين بالحصن.

١٦) مبارك رب العالمين الذي يبسط ارادته وسلطته، وحين يشاء يطرح الجبار من العلياء، ويرفع الوضيع من الثرى. ففي الصباح كان بلدوين يحكم ملكا، وفي المساء اصبح يخدم عبدا، وما حدث لجوسلين لا يقل عن ذلك. فمن الواضح ان ليس في هذا العالم شيء اكيد ولا شيء ثابت ولا يدوم شيء مرغوب فيه طويلا. وعليه فليس من الخير ان يتلهف المرء على متاع الدنيا بل من الافضل ان يتجه بقلبه نحو ربه. دعنا لا نضع ثقتنا بمتاع الدنيا لكي لا نخسر الحياة الابدية.

١٧) شعر

لقد اتممت الان سنتي الخامسة والستين حسب تقديري[٩٩]
ولكنني لم ار قط ملكا قيد السجن مثل هذا
ولست اعلم ما اذا كان ذلك يعني شيئا ولكن الله يعلم.

حملة اهل القدس واعتقال الملك بلدوين للمرة الثانية

١) بينما كان رجال القدس يتقدمون نحو موقع متفق عليه، انضم اليهم رجال طرابلس وانطاكية في انطاكية. ولكن لما وصل الجميع الى تل باشر[١٠٠] علموا ان الملك الذي كان محاصرا في قلعة خربوط[١٠١] قد وقع في الاسر ثانية[١٠٢]. ولما علموا بذلك غيروا مخططاتهم، وصدرت الاوامر بالعودة على الفور.

٢) ورغبة منهم في اكتساب شيء لانفسهم، عزفوا الابواق واتجهوا نحو مدينة حلب[١٠٣]، فدمروا واتلفوا كل ما وجدوا خارج اسوارها بعد ان اجبروا بشراسة كل من خرج لقتالهم على التقهقر الى داخلها. وبعد ان مكثوا هناك اربعة ايام لم ينجزوا خلالها شيئا استقر امرهم على العودة الى بلادهم لانهم بدأوا يعانون من شح المؤونة. على ان الكونت جوسلين بقي في منطقة

انطاكية.[١٠٤]

٣) بعد ان رجع رجال القدس ووصلوا الى عكا، وقبل ان يثيروا انتباه الشرقيين المجاورين عبروا نهر الاردن فجأة ولكنهم، بعد ان تجولوا على عجل في تلك المنطقة التي يحدها جبل جلعاد وبلاد العرب وقبضوا على عدد من الشرقيين من الجنسين وكثيرا من الدواب والماشية، عادوا الى منطقة طبريا القريبة منهم ومعهم قافلة عظيمة من الجمال والاغنام وكذلك الاطفال والراشدين. وبعد ان اقتسموا الغنائم فيما بينهم حسب العرف والعادة اجتمعوا في القدس من كل صوب، واودعوا صليب الرب الذي كانوا قد احضروه معهم في موضعه.[١٠٥]

٤) علي الان ان اعود الى الموضوع الذي خرجت عنه لفترة.

كيف حاصر بلك الملك وأسره ثانية

١) لما سمع بلك بما جرى في خربوط، وكيف نجا الكونت جوسلين من الاسر، بادر بالذهاب الى هناك بأسرع ما استطاع. وخاطب الملك بمعسول الكلام. وطلب من بلدوين ان يسلمه القلعة على ان يسمح هو، اي بلك، بعد تقديم الرهائن المختارة، لبلدوين بأن يغادر بأمان ويؤمن سفره الى الرها او الى انطاكية، والا فسوف يلحق الشر بأحدهما او بكليهما.

٢) لما رفض الملك شروط بلك استشاط هذا غضبا وهدد بالقبض على الملك والاستيلاء على القلعة بالعنف، وبالانتقام المحتوم من اعدائه. وأمر في الحال بتقويض اساس الصخرة التي بنيت عليها القلعة وبوضع الدعائم على الخندق لكي تسند الاشغال من فوقها. ثم أمر بجلب الاخشاب واشعال النيران. وعندما احترقت الدعائم هبطت الحفريات فجأة وانهار البرج القريب من النار واحدث ضجيجا هائلا.[١٠٦]

٣) تصاعد الدخان مع الغبار اولا لان الانقاض غطت الحريق، ولكن لما التهمت النيران ما تحت الانقاض وبانت السنة اللهب للعيان، ألم بالملك الذهول والانشداه لهذه الاحداث التي لم تكن بالحسبان. وخابت آماله وهبطت عزائمه اذ ان هذا الدمار اقعده واصابته هذه الاحداث بفزع شديد.

وهكذا بعد ان فقدوا شجاعتهم مع صوابهم استسلم الملك ورجاله[١٠٧]

متشفعين لرحمة بلك، غير متوقعين اكثر من العقاب حسب ما جنت ايديهم.

٤) على ان بلك صفح عن بلدوين وابقاه على قيد الحياة، ثم فعل ذلك مع احد ابناء اخ الملك[١٠٨] وكذلك جاليران. اما الارمن الذين قدموا العون للملك فقد شنق بلك بعضهم، وجلد بعضهم وشطر بعضهم بالسيف الى نصفين. ثم أبعد الملك وثلاثة من رجاله من القلعة واخذهم الى مدينة حران. [١٠٩]

٥) صعب علينا ان نتيقن مما حصل هناك لان هذه الاحداث وقعت بعيدا عنا، على انني سجلت هنا بكل ما استطعت من الدقة ما اخبرني به آخرون. [١١٠]

٦) شعر

انتهت هذه السنة بشح في الامطار، منذرة بالقحط
وسبب ذلك لاهل القدس كثيرا من الفجيعة
وقد دام تاريخنا هنا اربعة وعشرين عاما حتى الان.
منذ بدء حملة الحجاج الشهيرة التي قدمت من كل البلاد[١١١]

التحضير لحصار صور

١) في عام ١١٢٤ بعد ميلاد سيدنا المسيح، احتفلنا بميلاد المخلص في بيت لحم وفي القدس حسب الاصول[١١٢]. وقد حضر دوج البندقية[١١٣] ورجاله هذه المراسم واحتفلوا بخشوع. وتم الاتفاق طوعا، وبرضى الطرفين بعد حلف الايمان، على حصار اما مدينة صور او عسقلان بعد عيد الغطاس. [١١٤]

٢) وقد جمعنا في تلك الفترة، نظرا لافتقارنا للاموال الذي اقعدنا جميعا عن العمل، مبلغا كبيرا من الناس فردا فردا لندفع للفرسان والمشاة المأجورين. اذ لم يكن لمثل هذا الحصار المقترح ان يتم الا بدفع الاموال للرجال. وقد اضطررنا الى رهن انفس زخارف كنيسة القدس لكي نحصل على القروض من الدائنين. [١١٥]

٣) ولذلك اجتمع الجميع من كل حدب وصوب في الموقع المحدد[١١٦] حسب الاتفاق.

شعر
عندما انتعش برج الدلو بحرارة الشمس للمرة الثالثة
غادر الناس القدس مجتمعين ليقابلوا العدو
وحصل ذلك يوم الاحد، اول ايام الشهر القمري.[١١٧]

كيف تم حصار صور على يدي البطريرك واهل البندقية

١) عندما وصلوا الى عكا، اعدوا الترتيبات مع اهل البندقية على ان يسيروا نحو صور ويقوموا بحصارها، لذلك طوق البطريرك[١١٨] وبصحبته اتباعه كافة، والدوج ومعه بحارته وسفنه مدينة صور تحديدا في اليوم الخامس عشر قبل غرة شهر اذار.[١١٩]

شعر
"عندما دخلت الشمس في برج الحوت"[١٢٠]

٢) عندما سمع رجال عسقلان، الذين ما استطاعوا ابدا ان يكبحوا جماح صفاقتهم، بذلك لم يترددوا في ان يوقعوا بنا اكثر ما استطاعوا من الاذى. وفي أحد الايام[١٢١] قسموا جيشهم الى ثلاثة اقسام، وقادوا القسم الاكبر من فصائلهم الى القدس. وقتلوا لتوهم بوحشية ثمانية رجال وجدوهم يشربون النبيذ خارج المدينة.

٣) ما ان اكتشف مقدمهم عزف البوق من على برج داود لاعلامنا بذلك، وخرج فرنجتنا والسوريون للقائهم وقاوموهم ببسالة، وبعد ان انهك كل طرف نفسه ثلاث ساعات في مواجهة الطرف الاخر، انسحب اهل عسقلان وقد اعترتهم الكآبة حاملين معهم عددا كبيرا من الجرحى.[١٢٢]

٤) طاردهم رجالنا مسافة قصيرة ولكنهم لم يجسروا على متابعتهم طويلا لافتقارهم للفرسان وخشيتهم من الكمين ومع ذلك احضروا معهم في النهاية سبعة عشر رأسا مقطوعة من الاعداء وعددا مماثلا من الجياد. واخذوا ثلاثة من الفرسان على قيد الحياة بينما قتل الاخرون[١٢٣]، ولو كان لدينا فرسان لما نجا من الاعداء الا القلة، ولكن فرساننا كانوا مع الجيش، ثم قدمنا الثناء لله الذي حق له الثناء على الدوام.

صور وشهرتها

١) كان اهل صور في تلك الاثناء محصورين مطوقين داخل مدينتهم فلا هم يطلبون السلام ولا هم يخضعون للتسليم. فقد اعتادوا لوفرة ثرواتهم وللدعم والعون الذي يأتيهم عن طريق البحر على الغطرسة.(١٢٤)

٢) وهذه المدينة هي اوسع مدن ارض الميعاد ثراء وأشهرها صيتا باستثناء حاصور التي ملكها جابين، ملك الكنعانيين، في قديم الزمان والتي دمرها يشوع فيما بعد ومعها مدن اخرى كثيرة (يشوع ١١ : ١ - ٤). وقد قرأنا ان حاصور تباهت فعلا بأن تسعمائة مركبة حديدية قد حمتها (يهودا ٤ : ١٣، ٣). ومن ناحية اخرى ذكر يوسفوس انه كان فيها ثلاثة آلاف مركبة حديدية وثلاثمائة الف رجل مسلح وعشرة الاف فارس وقاد جيشها سيسرا.(١٢٥)

٣) وقد شيد الفينيقيون هاتين المدينتين صور وحاصور على اليابسة، وقد اشتهرت الاولى بتجارة المفرق وبتجارة الجملة الضخمة ايضا (اشعياء ٢٣ : ٨)* واشتهرت الاخرى بكثرة سكانها(١٢٦) وتقع صور على الشاطىء بينما كانت حاصور تقع في المرتفعات.

٤) عندما حكم على جدعون في اسرائيل (يهودا ٦ : ١١ - ٤٠، ٧ - ٨) شيد الفينيقيون صور قبيل زمن هرقل.(١٢٧) اذ ان هذه المدينة كانت في بلاد الفينيقيين. وهي المدينة التي ذكرها اشعياء مؤنبا اياها على غرورها (اشعياء ٢٣)** وفيها يصبغ الارجوان الرفيع ويرجع الى ذلك التعبير "الصبغ الارجواني الصوري"(١٢٨) وكلمة صور تعني ضيق، وهي تدعى سور بالعبرانية.(١٢٩)

٥) فتح شلمنصر، ملك الاشوريين، صور في حروبه التي شنها على سوريا وفينيقيا في الفترة التي حكم فيها هيلوسيوس هناك. ولان اهل صور عافوا

---

* اشعياء ٢٣ : ٨
من قضى بهذا على صور المتوجة التي تجارها رؤساء. متسببوها موقرو الارض.

** اشعياء ٢٣
١) وحي من جهة صور. ولولي باسفل ترشيش لانها خربت حتى ليس بيت حتى ليس مدخل. من ارض كيتم اعلن لهم؟ ٢) اندهشوا يا سكان الساحل. تجار صيدون العابرون البحر ملاوك.... الى آخر الاصحاح.

الخضوع لملك الاشوريين، فقد حوصروا مدة خمس سنوات ويكتب ميناندر عن ذلك، كما يطيل يوسفوس الكتابة بهذا الصدد.[130]

٦) ثم عبر الصوريون في تلك الفترة البحر تحت امرة ديدو، ابنة بيلوس، وانشأوا مدينة قرطاجة في افريقيا ويذكر المؤرخ اوروسيوس ان موقعها احيط بسور يمتد ثلاثين ميلا بلا مداخل، ويكاد البحر ان يحيط بها من جميع النواحي وكان عرض مينائها ثلاثة اميال. وقد شيد سور قرطاجة من الصخور المربعة وكان عرضه ثلاثين قدما وارتفاعه اربعين ذراعا.[131]

٧) وقد شغلت قلعتها، وتدعى برسة، مساحة تزيد عن الميلين.[132] ودمرت قرطاجة، التي انشأتها هيليسيا، قبل روما بسبعين عاما[133] في السنة السبعمائة بعد انشائها وتم تدمير سورها الحجري برمته. وقد اتى بابلوس سكيبو، الذي كان قنصلا لسنة خلت على المدينة بقدرها المحتوم، حيث ظلت تحترق بائسة لمدة سبعة عشر يوما كاملا.[134]

الاستيلاء على صور في الماضي، ومن حاصرها في الازمان السالفة

١) ثم ان صور التي سبق ذكرها، وهن امرها وبقيت غير اهلة بالسكان لمدة سبعين عاما كما ورد في اشعياء (اشعياء ٢٣ ـ ١٥، ١٧)* عندما تمرد اهل قبرص على صور قهرهم الملك هيلاسيوس[135] وهاجم شلمنصر ملك الاشوريين، صور ثانية[136] ثم انسحب وفي ذلك الوقت استسلمت مدن صيدا وارثي، التي تدعى اكتيبس، وصور القديمة[137] ومدن اخرى كثيرة لملك الاشوريين.

٢) ولما لم تخضع له صور، تقدم نحوها بستين سفينة وتسعمائة مجذاف[138] زوده بهم الفينيقيون (الاخرون) فأبحر الصوريون ضدهم باثنتي عشرة سفينة وبددوا شمل سفنهم، وأسروا خمسمائة من رجالهم وقد تعاظمت سمعة صور بذلك وعلا صيتها.

---

* اشعياء ٢٣ : ١٥
ويكون في ذلك اليوم ان صور تنسى سبعين سنة كأيام ملك واحد. من بعد سبعين سنة يكون لصور كأغنية الزانية ٢٣ : ١٧ ويكون من بعد سبعين سنة ان الرب يتعهد صور فتعود الى اجرتها وتزني مع كل ممالك الارض على وجه الارض.

٣) عاد ملك الاشوريين وأوقف حراسا على النهر وعلى قنوات المدينة ليمنع الصوريين من جر المياه. وقد صبر الصوريون على ذلك مع انه طال مدة خمسة اعوام، فكانوا يشربون المياه من آبار حفروها. وقد دونت هذه الحقائق عن شلمنصر، ملك الاشوريين، في سجلات صور.[١٣٩]

٤) وهو من حاصر السامرة[١٤٠] واخذها في السنة السادسة لحكم الملك حزقيال، وحمل اسرائيل الى السبي في اشور (الملوك الثاني ١٧ : ٣ ـ ٦، ١٨ : ٩ ـ ١١)* وقد حكم قبل شلمنصر فول، ملك الاشوريين (الملوك الثاني ١٥ : ١٩)[١٤١] وبعده تغلث فلاسر، ملك الاشوريين الذي أخذ قادش وحاصور في نفتالي قرب بانياس ويانوح وجلعاد والجليل بأسره وسبى اهلها الى اشور (الملوك ١٥ : ٢٩)[١٤٢] ثم اتى سرجون ملك اشور الذي بعث ترتان ليحارب اشدود فأخذها ترتان (اشعياء ٢٠ : ١ في سنة مجيء ترتان الى اشدود حين ارسله سرجون ملك اشور فحارب اشدود واخذها). وهكذا وبسبب خطايا اهلها، دمرت ارض الميعاد واخضعت للسبي على يد الاشوريين اولا ثم على يد الكلدانيين.[١٤٣]

٥) حاصر نبوخذ نصر ملك كلده وبابل مدينة القدس واخذها. لذلك لجأ الملك صدقيا الى الفرار ولكنه وقع في الاسر على مقربة من اريحا واحضر الى ملك بابل في المنطقة التي تدعى ربله في بلاد حماة. ويذكر جيروم ان حماة الكبرى في انطاكية وحماة الصغرى في ابيغانيا. وهناك امر نبوخذ نصر بقلع عيني صداقيا وبقتل بنيه في حضرته. ثم حضر نبوزراداان رئيس شرطة الملك وأحرق بيت الرب وبيت الملك وهدم جميع اسوار القدس مستديرا.[١٤٤]

٦) ثم اتى الملك اسكندر بعد مرور فترة من الزمان، وحاصر واخذ صور واخضع صيدا وقبل ذلك دمشق. واحتل غزة على مدى شهرين اثنين ولكنه كان قد حاصر صور لمدة سبعة شهور. ثم سارع الاسكندر الى مدينة

---

* الملوك الثاني ١٧ : ٣ ـ ٦
ووجد ملك اشور في هوشع خيانة لانه ارسل رسلا الى سوا ملك مصر ولم يؤد جزية الى ملك اشور كما كان يفعل كل سنة فقبض عليه ملك اشور واوثقه في السجن. وصعد ملك اشور على كل الارض وصعد الى السامرة وحاصرها ثلاث سنين. في السنة التاسعة لهوشع اخذ ملك اشور السامرة وسبى اسرائيل الى اشور واسكنهم غب حلح وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي
في ايام فتح ملك اسرائيل جاء تغلت فلاسر ملك اشور واخذ عيون وابل مكعة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل اراضي نفتالي وسباهم الى اشور.

القدس. وحيث انه استقبل بحفاوة وتكريم فقد خلع اسمى درجات الشرف على الكاهن الاعظم، واسمه جيدوه، فدخل الاسكندر منفردا وقدم بالغ التبجيلات اللائقة لجيدوه والذي ارتدى قلنسوة على رأسه، وثوبا ارجوانيا مذهبا وصفحة ذهبية خط عليها اسم الرب. وبعد ان تدبر امور القدس، قاد الاسكندر جيوشه ضد المدن الاخرى.(١٤٥)

٧) بعد انقضاء سنين عديدة وبسبب خطايا اليهود تحدى انطيكوس ابيفانس شريعتهم وكبح جماح المكابيين بشدة.(١٤٦) واتى بعده بومباي الذي اطاح بأهل القدس بشكل محزن يبعث على الاسى(١٤٧) واخيرا اتى فسباسيان وابنه طيطس، وقد دمر هذا الاخير القدس تدميرا شاملا(١٤٨). وهكذا فبتعاقب الاحداث، ولوقتنا هذا، تجشمت المدينة المقدسة والنواحي التابعة لها العناء الشديد.

٨) معظم اراضي فلسطين، وجزء من فينيقيا التي سميت على اسم فينكس(١٤٩) شقيق قدموس جرداء قاحلة، ثم هناك السامرة واراضي الجليل وتقسم هذه الاخيرة الى قسمين الجليل العليا والجليل السفلى. ويحدهما على الجانبين فينيقيا وسوريا.

٩) يمتد ذلك الجزء الذي ما وراء الاردن طولا من ماشيروس (مقاوير) الى بللا (طبقات فحل) وعرضا من فيلادلفيا (عمان) الى الاردن. وتحدها شمالا بللا طبقات فحل وغربا الاردن، وتحدها جنوبا بلاد مواب وشرقا بلاد العرب وفيلادلفيا (عمان) وجرش.(١٥٠)

١٠) تقع السامرة ما بين يهودا والجليل. وتمتد يهودا عرضا ما بين الاردن ويافا، وتقع مدينة القدس في وسطها وهي سرة البلاد.(١٥١)

١١) يضم الجليل السفلي، الذي يمتد من طبريا الى زبلون ثم عكا والكرمل وجبال صور، الناصرة وصفورة، وهي مدينة منيعة، وتابور وقانا ومدنا كثيرة اخرى. ويحدها لبنان ومنابع نهر الاردن التي تدعى الان بانياس او دان او قيصرية فيلبي. وتقع حولها بلاد الطراخونيين والنبطية (بلاد النبطيين) وجنوبا منها تقع السامرة وسكثوبوليس، التي تدعى بيسان.(١٥٢)

١٢) تحد مدينة بير السبع يهودا وتضم هذه الاخيرة تمنة واللد، ويافا، ويبنة وتكوه والخليل واشتول وزورا وكثيرا وغيرها.(١٥٣)

١٣) اعود الان الى الموضوع الرئيسي اذ انني سلكت سبلا متشعبة لفترة طويلة.

انتصار رجال انطاكية على الاتراك، ووفاة بلك

١) بينما كنا نجهد خارج صور[١٥١] ونجهز آلات الحصار بعناية لم يتوان بلك عن حشد جيشه وحلفائه لقتالنا:[١٥٢] فوصل مدينة هيرابوليس (منبج) بعد ان غادر مدينة حلب[١٥٣] في اوائل شهر ايار ومعه خمسة الاف فارس وسبعة آلاف راجل. وتعرف هذه المدينة باسم منبج. وعندما رفض مالك هذه المدينة تسليمها دعاه بلك الى اجتماع خارج المدينة وغدر به وقطع رأسه.[١٥٤]

٢) حاصر بلك المدينة على الفور. وأعلم السعاة جوسلين بذلك، وكان في انطاكية في ذلك الوقت، فسارع الى هيرابوليس (منبج) ومعه رجال انطاكية. ومع ان جيش المسيحيين كان قليل العدد الا ان جوسلين لم يخش ان يزحف على حشود الكفار. وما مضى وقت طويل قبل ان نشبت معركة حامية الوطيس.

٣) وبعون الله صد الاتراك مرات ثلاثا ولكنهم عادوا بجسارة ليقاتلوا ثلاث مرات وقاد بلك، الذي اصيب في المعمعة بجرح مميت، المعركة وهو يعاني سكرات الموت.[١٥٥] وما ان اكتشف رجاله ذلك فر منهم من استطاع الى ذلك سبيلا. والحق ان كثيرا ممن تمكنوا من الفرار لم يدركوا النجاة.

٤) وروي ان ثلاثة آلاف فارس منهم لاقوا حتفهم. ولكن عدد المشاة لم يعرف. وقد سقط من فرساننا ثلاثون قتيلا. وكذلك ستون من مشاتنا الذين كانوا يسوقون الدواب.

٥) على ان جوسلين اراد ان يتيقن من وفاة بلك او من نجاته. وبعد ان تفقد الباحثون من رجاله جثث الموتى تحققوا من جثة بلك لشارات على درعه مألوفة لمن يعرفه. قطع رجل رأس بلك وحملها الى جوسلين مهنئا وتسلم اربعين قطعة نقد ايفاء بوعد قطع له.

٦) امر جوسلين بحمل الرأس في الحال الى انطاكية امارة لفوزه. وقد كان الرجل الذي حمل رأس بلك في جراب الى صور والقدس، واعلن الرواية ووصفها لنا جميعا، ممن شهدوا هذه المعركة الجديرة بالذكرى.

٧) والحق ان هذا المبعوث كان وصيف جوسلين، وبما انه جلب هذا النبأ الذي طاب سماعه لجيشنا المعسكر امام صور، فقد خلع عليه بسلاح فارس،

فارتقى مرتبه من وصيف الى فارس[١٥٦]. وقد منحه هذه المرتبة كونت طرابلس.

٨) وحمدنا وباركنا الله جميعا لان بلك، ذلك التنين الصارم الهائج، الذي ظلم المسيحية ووطأ عليها، قد اخمدت اخيرا انفاسه.

٩) شعر

سطعت الشمس تسع عشرة مرة في برج الثور عندما خر بلك صريعا، عندما خانه الحظ[١٥٧]

١٠) انظر كيف بان تفسير الحلم الذي ذكرناه من قبل، الحلم الذي رواه بلك، وكأنه يتنبأ بحتفه عندما نجا جوسلين من الأسر بأعجوبة[١٥٨]. والحق ان جوسلين حطم بلك تحطيما شاملا اذ جرده من الرأس والاعضاء.

شعر

فلا رأى بلك، ولا سمع، ولا تكلم ولا مشى وما بقي له موضع في السماء ولا في الارض ولا في البحار.

ما جرى في حصار صور

١) بينما لجأ اولئك الذين اقاموا الحصار المشهود حول صور[١٥٩] الى الراحة في احد الايام اغتنم الصوريون من اتراك[١٦٠] وشرقيين الفرصة وطرحوا ابواب البلد جانبا واندفعوا خارجها. وانقضوا جميعا بسيوف مشرعة على اكثر آلاتنا مناعة وهولا.

٢) وقبل ان يستطيع رجالنا الذين يحرسونها حمل سلاحهم، داهمهم العدو واقصاهم مثخنين بالجراح واشعل النار في الالات[١٦١]. وكانت هذه تستعمل لتحطيم ابراج سور المدينة بقذفها بالحجارة واحداث الثغرات في وسائل دفاعها.

٣) وقد فقدنا في هذه الغزوة ثلاثين من رجالنا بينما خسر العدو ضعف ذلك. وأصاب اهل المدينة رجالنا بجراح وخسائر جمة من الضربات المتتالية بالسهام والرماح والحجارة من ذرى الاسوار.

٤) وفي تلك الاثناء ابحر جماعة من اهل البندقية لا ينيف عددهم عن الخمسة في مركب صغير، فواتاهم الحظ السعيد كالعادة، وسطوا على دار صغيرة قرب

سور المدينة ونهبوها. وقطعوا رأسي رجلين وجدوهما هناك، ورجعوا على الفور فرحين بغنيمتهم المتواضعة. وقع ذلك في اليوم الحادي عشر قبل غرة حزيران.[١٦٢]

٥) لكن ذلك لم يجد نفعا اذ ان بعض الصوريين، قبل ذلك بقليل، سرقوا قاربا في احدى الليالي وجروه الى مرفأ المدينة، فمثل هذه الامور تحدث كثيرا في مثل هذه المناوشات.[١٦٣]

شعر

"يفشل امرؤ وينجح امرؤ، ويفرح امرؤ، ويبكي امرؤ."[١٦٤]

اجتياح رجال عسقلان المؤسف

١) لم يتوان رجال عسقلان، لمعرفتهم بقلة عددنا، عن التحرش بنا عندما ظنوا انهم قادرون على اضعافنا والحاق اشد الدمار بنا. فدمروا واحرقوا قرية صغيرة على مقربة من القدس تدعى البيرة[١٦٥] وحملوا معهم كل الاسلاب النافلة التي وجدوها هناك، ومعها قتلاهم وكثيرا من الجرحى.

٢) لجأت النساء والاطفال الى برج شيد هناك في زماننا فنجوا بذلك بأرواحهم، وهكذا طاف العسقلانيون في البلاد ينهبون ويقتلون ويسلبون ويلحقون ما استطاعوا من الدمار وما كان هناك من يصدهم.

٣) فقد كنا جميعا عاكفين على حصار صور، نأمل في الرحمة من السماء، وفي انجاز مهمتنا بعون الله ووكالته[١٦٦]. وقد كان فوق طاقتنا ان نحتمل جهد الليل وعناء النهار.

٤) بينما كنا ننتظر بآذان مرهفة سماع اي كسرة من الانباء، انظر، فاذا بثلاثة مبعوثين يصلون على جناح السرعة حاملين رسائل من بطريركنا[١٦٧] تعلن سقوط صور.

٥) عند سماع ذلك علت جلبة تدل على الغبطة الفائقة. وارتفعت الاصوات في الحال منشدة "الحمدلله" وقرعت الاجراس، وسار موكب نحو معبد الله، ورفعت الاعلام على الاسوار والابراج. وعرضت الزخارف الملونة في كل الطرقات، وقدمت ايماءات الشكر، وكوفىء المبعوثون مكافآت مناسبة كما حق لهم، وتبادل الوضيع والرفيع التهاني، وابتهجت الفتيات وهن يرفعن اصواتهن بالغناء.

٦) حق للقدس ان تفرح مثل الوالدة على ابنتها صور التي تجلس متوجة عن يمينها كما يليق بمن في منزلتها. بينما ندبت مصر على فقدان هيبتها، التي كانت الى أمد قريب سندا لها، وعلى خسارة اسطولها المعتدي الذي كانت تسيره ضدنا كل عام.

٧) مع ان مرتبة صور قد تدنت في الابهة الدنيوية، فالحق يقال انها ارتقت في البركة الربانية. اذ بينما كان للمدينة ايام الكفار كاهن او امام في مركز السلطة، فسوف يصبح لها، حسب تقاليد الاباء في الشريعة المسيحية، رئيس اساقفة او بطريرك، وحيثما كان هناك أئمة سوف يتم تعيين رؤساء اساقفة لحكم المقاطعات.

٨) وحيثما كان هنالك حاضرة او ما يدعى "بالمدينة الام" سوف يشرف متروبوليتان على ثلاثة او اربعة مدن داخل مقاطعة المدينة الام او الحاضرة.

٩) وحيث كان هناك كهنة أو كونتات في البلدان الصغيرة سيتم تنصيب اساقفة. وفضلا على ذلك، فقد عُرف الرهبان وباقي رجال الكهنوت في بعض الاسلاك الرهبانية الاقل شأنا بمحامي الشعب وما ذلك من باب الحماقة.

استسلام مدينة صور

١) عندما رأى ملك دمشق(١٦٨) ان الاتراك والشرقيين قد احتجزوا في المدينة ما لهم من قبضتنا مناص، آثر ان يفتديهم احياء ببعض المهانة، على ان يندبهم امواتا. لذلك استقصى عن طريق وسطاء حكماء عن امكانية خروج قومه ومعهم كل املاكهم من المدينة وتسليمها اثر ذلك خالية الينا.

٢) بعد ان ساوم الطرفان على هذا الامر فترة طويلة، تبادلا الرهائن وخرج المسلمون من المدينة ودخلها المسيحيون بسلام. على ان من شاء ان يبقى في المدينة من الشرقيين فعل ذلك بأمان حسب شروط الاتفاقية.(١٦٩)

٣) شعر

طلعت الشمس احدى وعشرين مرة في برج السرطان
عندما أخذت صور مستسلمة ومقهورة
وحصل ذلك بعد سبعة أيام من مطلع تموز.(١٧)

٤) لذلك يجب علينا ان لا نكف عن، بل ان لا نتردد في، ان ننشد الرب،

حاميا رؤوفا ومعينا لنا في اوقات شدتنا، وان نتضرع اليه بالصلوات لكي يلقى اذنا صاغية لتوسلاتنا. لقد فعلنا ذلك فعلا في القدس بزياراتنا المتكررة للكنائس، وبذرف الدموع، وتقديم العطايا، وكبح الاجساد بالصيام، وانني اعتقد ان الله مطلا من علياته لم يغادر قبل ان يبقي وراءه بركة (يوئيل ٢ : ١٤)* ولسوف يسمع صلواتنا.

٥) تطابق كل سلطة زمنية مقام عزتها بالمرتبة التي تماثلها. ففي المقام الاول هناك اغسطس او الامبراطور، ثم القياصرة ثم الملوك والدوقات والكونتات. ذاك ما قاله البابا كليمنت، وانا كليت، وانيسيت وكثيرون غيرهم. (١٧١)

٦) الحمد لله في الاعالي الذي اعاد صور لنا، لا ببأس الرجال بل بطيب خاطر وبدون سفك الدماء. (١٧٢). فصور مدينة نبيلة، شديدة المنعة يصعب كثيرا اخذها لو لم يبسط الله عليها يمينه.

٧) لقد خذلنا اهل انطاكية في هذا الامر، فلا هم زودونا بالعون ولا شاؤوا ان يحضروا هذه العملية. ولتحل البركة على بونز امير طرابلس، فقد كان حليفا امينا مخلصا لنا. (١٧٣)

٨) عل الله يصلح ما بين كنيسة انطاكية وكنيسة القدس، وقد اختصما حول صور، ثالثتها في المرتبة، فتقول الاولى ان صور كانت تابعة لها زمن اليونان بينما تقول الاخرى ان مركزها ازداد قوة بالامتيازات التي منحها لها البابا في روما. (١٧٤)

٩) اذ ان مجلس اوفيرن، ذلك المجلس النافذ السلطة الذائع الصيت، كان قد اصدر قرارا بالاجماع دون معارضة يقضي بوجوب الاحتفاظ بأية مدينة عبر البحر العظيم يمكن انتزاعها من براثن الكفار الى أبد الدهر. فضلا عن ان ذلك قد اعيد تثبيته وسلم به الجميع في مجلس انطاكية الذي ترأسه اسقف لابوى. (١٧٥)

١٠) ثم ان القدس كانت الموقع الذي استلم فيه الدوق جودفري واللورد بيهمند بلادهما من البطريرك ديمبرت محبة بالله. (١٧٦)

١١) وقد ثبت البابا باسكال هذه الامتيازات من حين لاخر. ونقلها لكنيسة القدس، ولسوف تتمتع كنيسة القدس بحق هذه الامتيازات، مستندة لسلطة

---

* يوئيل ٢ : ١٤
لعله يرجع ويندم فيبقي وراءه بركة تقدمه وسكيبا للرب الهكم.

كنيسة روما، الى ابد الدهر، وترد هذه الامتيازات في هذه الوثيقة.

امتيازات البابا باسكال

١) من باسكال[١٧٧] خادم خدمة الله، الى اخيه العظيم التبجيل جبلين، بطريرك القدس[١٧٨] والى خلفائه في القوانين الكنسية.

٢) حسب تغيرات الزمن، كذلك تتغير ممالك الارض. ولهذا السبب فإن من الملائم ان تتغير وتنقل حدود الابرشيات الكنسية في معظم المقاطعات. وقد وزعت حدود الكنائس الاسيوية في قديم الزمان حسب قواعد محددة مثبتة. وقد اخل بنظام هذا التوزيع تدفق شعوب شتى تدين بأديان متعددة. على ان مدينتي انطاكية والقدس، والمقاطعات والضواحي المجاورة لهما، قد اعيدتا، بحمد الله، في زماننا هذا الى سلطة امراء مسيحيين.

٣) وعليه فمن الضروري ان نضع يدنا على هذا التغيير والتحول الآلهي ونتصرف فيها يجب ان نتصرف به بما يلائم هذا الزمن. وبناء على ذلك فإننا نمنح كنيسة القدس تلك المدن والمقاطعات التي امتلكت ببركة الله بحكمة الملك بلدوين وبدماء الجيش الذي تبعه.

٤) لذلك فإننا نمنح اليك، يا جبلين، وانت الاخ العزيز والشريك في الاسقفية، والى من يخلفك ومن لدنك الى كنيسة القدس المقدسة، بموجب نص هذا المرسوم، الحكم والتصرف بحق البطركة والمطرانية بجميع المدن والمقاطعات التي اعادتها البركة الآلهية الى حكم الملك المذكور او قد تتلطف باعادتها في المستقبل.

٥) اذ ان من المناسب ان تحظى كنيسة قيامة الرب على الاجلال الذي يحق لها وفقا لرغبات جنود الدين وان تحظى بعد ان تحررت من براثن الاتراك والشرقيين بقدر اوفر من التبجيل على ايدي المسيحيين.[١٧٩]

توزيع الاراضي حول صور

١) تمت تسوية الامور في صور حسب الاصول. وقسمت الممتلكات الى ثلاثة اجزاء متساوية، أعطي اثنان منها لسلطة المدينة. اما الجزء الثالث، الذي

وقـع داخل المـدينة وفيـا حول المـرفأ فقـد اعطي الى اهـل البندقيـة، نتيجـة تنازلات متبادلة، تم الاتفاق عليها واحداً اثر الاخر ليحتفـظوا به حقـا وراثيا لهم.[180] ثم عاد الجميع الى بلادهم.

٢) عاد بطريرك القدس الى القدس مع جند المدينـة واستقبل رجـال الكهنوت والشعب الصليب المقدس بالاجلال الواجب.

العلامات التي ظهرت في ذلك الوقت

١) في ذلك الوقت، ظهرت الشمس لنا بلون بـاهر مـدة ساعـة واحدة. وقـد تبدلت بجمال ارجواني غير مألوف. وانقلبت الى شكل قمري كما لو كـانت في كسوف مزدوج. حدث ذلك في اليوم الثالث قبل منتصف آب عندما اوشكت الساعة التاسعة على الانتهاء.[181]

٢) فلا تعجب عندما ترى العلامات في السماء لان الله يصنع معجزاته هنـاك كـما يصنعها عـلى الارض.[182] وكما في السـماء، كذلـك عـلى الارض، يبـدل ويدبر الامور حسب مشيئته وان كانت هذه الامور التي يفعلها رائعـة فإن من يفعل هذه الامـور يفوقهـا روعة. وانني اتـوسل اليـك ان تتبصر وتمعن الفكر مليا كيف حول الله في زمننا هذا الغرب الى الشرق.

٣) اذ ان اولئك الذين كانوا غـربيين اصبحـوا الان شرقيين. ومن كـان روميا او فرنجيا قد تحول في هذه البلاد الى جليـلي او فلسطيني ومن اتى من الـرايم او شارتر اصبح الان مواطنا في صور او انـطاكية.[183] وقـد نسينا الان امكنـة ولادتنا فهي غير معروفة لدى الكثيرين منا الان ولا يرد ذكرها.

٤) ويمتلك البعض البيوت والمنازل بالميراث الان، واتخـذ البعض زوجات لهم لا من بنات جلدتهم بل من السوريات او الارمنيات بل وحتى من الشرقيـات اللواتي حظين ببركة العماد. فقد يسكن مع المرء حماه او زوجـة ابنه، او ابنـه ان لم يكن ابن زوجته او زوج امه. فلدينـا هنا احفـاد واولاد احفاد. ويعتني البعض بزراعة الكرمة ويحرث الاخرون الحقول.

٥) يلجأ الناس الى استعمال التعابـير والبيان من لغـات شتى في التحادث فيـما بينهم. فـأصبحت الكلمات من اللغات المختلفـة ملكية مشـتركة تعـرفهـا كـل امة، ويوحد الدين المشـترك ما بـين اولئك الـذين جهلوا اصلهم. وحقا لقـد

ورد في الكتاب "الذئب والحمل يرعيان معا والاسد يأكل التبن كالبقر" (اشعياء ٦٥: ٢٥) ومن ولد غريبا اصبح الان كمن ولد هنا، ومن ولد اجنبيا صار كابن البلد.

٦) وبين فترة واخرى، ينضم الينا اقرباؤنا ووالدونا مضحين، ولو على مضض، بكل ما ملكت ايديهم في السابق. وقد جعل الله من كانوا فقراء في الغرب، اثرياء في هذه البلاد. ومن كان لديهم قليل من المال ملكوا ما لا يحصى من القطع الذهبية هنا، ومن لم تكن لديهم دار امتلكوا بنعمة الله مدينة.

٧) فلماذا يعود الى الغرب اذن من وجد الشرق كذلك؟ فالله لا يريد ان يلقى العوز والفاقة اولئك الذين كرسوا انفسهم ليتبعوه بصلبانهم حتى النهاية.

٨) فأنت ترى اذن، ان هذه معجزة خارقة، يجب على العالم بأسره ان يعجب بها، فمنذا سمع بأمر مثل هذا؟ فالله يشاء يان يغنينا جميعا ويدنينا اليه كأعز اصدقائه. ولانه يشاء ذلك فإننا نتوق اليه بلا تحفظ، فنحن نفعل ما ينال رضاه بقلب تملأه المحبة والخضوع لكي نتولى الملك معه الى ابد الدهر.

اطلاق سراح الملك من الاسر وحصار مدينة حلب

١) بفضل الله القدير، اطلق سراح ملك القدس من الاسر على يد الاتراك في اليوم الرابع قبل غرة شهر ايلول، بعد ان قضى في السجن ستة عشر شهرا ونيفا.(١٨٤) ولما وجب عليه ان يقدم الرهائن المختارة مقابل اطلاق سراحه فإنه لم يمض حرا طليقا بلا تحفظ. فقد اكره هو والرهائن على ان يقلقوا على مستقبل مبهم يحفه الغموض.(١٨٥)

٢) بعد ذلك بقليل، واثر عقد المشاورات سارع الملك بحكم الضرورة لحصار حلب.(١٨٦) وقصد بتطويقها اما ان ينتزع اطلاق سراح رهائنه عن طريق المواطنين انفسهم او عله يستطيع ان يحتل المدينة بينما كانت تعاني من المجاعة. اذ انه علم انها كانت فعلا تعاني من شح الغذاء.

٣) تبعد هذه المدينة حوالى اربعين ميلا عن انطاكية الكبرى(١٨٧) وهنا جعل ابراهيم، وهو في طريقه من حران لبلاد كنعان، رعاته يرعون الماشية، سواء أكانت حملت ام سوف تحمل العجول، في هذا المرتع الخصيب. وهنا قام

بحلب الحليب في الدلاء، وتخثيره، وعصر الخثارة في اكياس، وصنع الجبنة منها، فقد كان موسرا لديه من الممتلكات من كل صنف.[١٨٨]

٤) توفي البابا كاليكستس في اليوم الثالث عشر قبل غرة شهر كانون الثاني.[١٨٩]

تجمع الجيش التركي بهدف فك الحصار

١) في عام ١١٢٥ بعد ميلاد مخلص الدنيا، في الخمسعشرية الثالثة، حاصر ملك القدس ورجاله[١٩٠] مدينة حلب خمسة شهور[١٩١] وما انجز شيئا. فقد عبر الاتراك يقظين كعادتهم، نهر الفرات نهر الجنة العظيم (سفر التكوين ٢ : ٨، ١٠، ١٤) وعاجلوا المسيرة قسرا الى المدينة المذكورة بهدف فك الحصار عنها. فقد خشوا ان تسقط حلب على الفور ان لم يعاجلوا باغاثتها في الحال. وكان قومنا قد حاصروها لمدة طويلة.

٢) كان هناك سبعة الاف فارس من الاعداء وقرابة اربعة آلاف جمل محملة بالحنطة وغيرها من المؤن.[١٩٢] ولما لم يفلح رجالنا في الفوز على العدو اضطروا لفك الحصار. وانسحبوا في اليوم التالي الى سارف[١٩٣] اقرب موقع حصين تحت سيطرتنا.

٣) بعد ان لاحقتنا مجموعة من الاتراك فترة وجيزة فقدوا اثنين من اشجع رجالهم، اذ سقطا عن فرسيهما ولقيا حتفهما. وفقدنا نحن احد تابعي المعسكر وستة خيام.

٤) وقع هجوم الاتراك في اليوم الرابع قبل غرة شباط.[١٩٤] ولأن الاتراك باغتونا في الليل فقد وجدونا غير محتاطين وأربكونا.

٥) انه لمقيت جدا ان يحكى عن هذا، ولشائن جدا ان يعرف، وممل ان يسرد ومعيب ان يسمع، ولكنني انا الذي انبىء به لا احيد عن الحقيقة. فماذا اذن؟ من يقدر ان يقاوم مشيئة الله؟ وعلاوة على ذلك فقد صدق المثل الذي رواه رجل حكيم اذ قال "الحوادث التي لا تزال في المستقبل لا تكافح ولا هي تسمح لنفسها بأن تهزم" فالحقيقة ان هجوم العدو هذا كان لا بد ان يقع ولكن احدا لم يعرف ذلك سلفا ولو تم التنبؤ به قبل حدوثه لما حدث ابدا، اذ ان الفكرة في العقل تؤدي الى لا شيء الا اذا وجدت ارادة العمل. ولو تنبأ امرؤ بالهجوم لادى الى نقضه ولو نقض ما كان حدث.

٦) اخيرا انسحب الملك بلدوين الى انطاكية، وذهب معه جوسلين، واما الرهائن التي قدمها الملك عند اطلاق سراحه من الاسر فلا اعيدوا ولا افتدوا. وهكذا عاد اهل القدس، وكذلك اهل طرابلس، كل الى دياره.

٧) على ان التدبير الآلهي يكبح جماح من أفلح حسب مقياس القيم البشرية لئلا يملأه الغرور، كما انه يغيظ الاشرار بحق لئلا يتمتعوا برفاهية الرخاء المديد.

٨) فمن يعطي كل خير ومن يطرد كل شر الا الله، مرشد الروح وسلوانها، الذي يبصر من عليائه في السماء ويدرك كل الامور؟ فمنذ امد قصير، منحنا نحن المسيحيين، بنعمته مدينة صور الجبارة المجيدة، وانتزعها من ايدي من ملكها! والان يروق له ان يسحب يده.

٩) لعله قد ادخر كرمته لمن عظم ايمانه من المزارعين ليتعهدوها بالعناية ومن توفرت لديهم الرغبة والمقدرة على ان يجنوا منها الثمار الوافرة في الفصل المناسب. والحق ان بعض الناس اذا ما زادت املاكهم قلت أفعالهم. وهم لا يردون الشكر الذي حق عليهم لمعطي كل الخيرات. فضلا عن انهم يأثمون مخادعين اذ يكذبون على الله مرارا في تلك الامور التي وعدوا بها في صلواتهم، وهم بخداعهم يخدعون انفسهم.

استقبال الملك في القدس بغبطة شديدة

١) بعد ان أسر الملك وقيد بوحشية بالسلاسل على ايد الكفار مدة عامين اثنين رجع لاعادة زيارة مملكته في القدس. وقد استقبلناه جميعا في اليوم الثالث قبل الخامس من نيسان في موكب مهيب[١٩٥]. وبعد ان امضى فترة وجيزة بيننا عاد مهرولا الى انطاكية استجابة لدعوة منها. فقد دمر الاتراك تلك البلاد، وكان اقوى قوادهم بورسكنيوس[١٩٦] (البرسقي) الذي قاد ستة الاف فارس.

اهل البندقية، في طريق عودتهم الى بلادهم، يدمرون جزر الامبراطور

١) علمنا في ذلك الوقت، ان اهل البندقية، في رحلة العودة الى بلادهم بعد

الاستيلاء على صور، فتكوا بجزر الامبراطور التي مروا بها. وتلك هي رودس وميثون، وساموس وشيوس فدكوا الاسوار وحملوا معهم الفتيان والفتيات الى السبي والعذاب، وسلبوا الاموال من كل صنف. ولما لم يكن بمقدورنا تغيير هذه الحقيقة ضد سماعنا بها، ندبنا بحرقة وتملكت الشفقة شغاف قلوبنا.[197]

٢) فقد ثار اهل البندقية واحتد عنفوانهم على الامبراطور، فاشتاط غضبا عليهم ثم احتدم غيظ كل منهما على الاخر، واصبحا عدوين لدودين حقا. ولكن "ويل للعالم من العثرات وويل لذلك الانسان الذي به تأتي العثرة (متى ١٨ : ٧). فإن كان الخطأ من طرف الامبراطور فهو اذن قد حكم بالسوء وان كان من طرف اهل البندقية فقد جلبوا على انفسهم هلاك الجحيم.

٣) والحق ان كل الخطايا تنبع من الكبرياء، أو لا يكون المرء متكبرا حين يفعل ما حرم الله؟ فقد كان هدف اهل البندقية ان يثأروا لأنفسهم وكان هدف الامبراطور ان يدافع عن نفسه وهو يقول ان ذلك اكثر انصافا. على ان الابرياء الذين وقعوا في الوسط بينهما يقاسون من العقاب لذنوب لم يقترفوها ويهلكون عن غير حق.

٤) لكن ماذا يقال عن اولئك الذين لا ينفكون بقرصنتهم عن ايقاع ما يستطيعون من الضرر بحجاج الله الذين يركبون البحر الى القدس متكبدين شديد الجهد والعناء محبة بالخالق؟[198] واذا حقت البركة على الودعاء (متى ٥ : ٧٢)* فأي رحمة تحق على فاقدي الضمير؟ فهم ملعونون محرومون من الكنيسة وسوف يهلكون غير تائبين عن غدرهم. بل ان هؤلاء القوم سوف يطرحون في جهنم وهم على قيد الحياة. (المزامير ٥٤ : ٦) فهم لم يطيعوا الرسل، واستهانوا بالبطريرك[199] وازدروا كلام الاباء المقدسين.

٥) وانا اعرف ما يجب ان يقال فيهم، ولست اخشى ان اقوله. وسوف يأتي الوقت الذي سيسمعون به من الرب، ذلك القاضي الصارم "لا اعرفكم من اين انتم (لوقا ١٣ : ٢٥، ط ٢) انتم يا من تطلبون بأن يفتح الباب لكم. انكم قد اتيتم متأخرين، ولا تجلبون معكم خيرا. فإن الباب قد اغلق (متى

---

* (متى ٥: ٧٢)
طوبى للودعاء، لانهم يرثون الارض، طوبى للرحماء لانهم يرحمون.

٢٥ : ١٠)* لم تشاؤوا ان تصغوا الي فيما مضى، اما الان فإنني لا اظن انه يجدر بي ان اصغي اليكم. فأنا الذي كنت مرة قد دعوت بأن "تعالوا" اقول الان بحق "اذهبوا" (متى ١١: ٢٨: ٢٥: ٤١)** اقول، اقول آمين ما اقول. ولا اغير ما قلت بأي حال من الاحوال". وان ما تبقى لهم رهيب ولا يطاق وسوف يكتب الشقاء الابدي على اولئك الذين استحقوه.

٦) اما الان ولكي اتابع سرد الاحداث بتسلسلها المناسب ولئلا اقطع مجرى الحديث، فسوف اعتني بتلاوة كل حادث بايجاز.

الشرور التي ارتكبها البرسقي، والمعركة التي شنت ضده

١) لذلك فإن البرسقي الذي اوردنا ذكر شجاعته وتجرده من المبادىء الاخلاقية من قبل[٢٠٠] بعد ان تزايد جيشه بالتدريج يوما بعد يوم، طوّق مدينة تدعى كفردا (كفرطاب) واخذها بعد الحصار[٢٠١] فاستسلمت له على ايدي الرجال الذين كانوا قد دخلوها للدفاع عنها، اذ انه ما كان بمقدورهم ان يحافظوا على مواقعهم اكثر من ذلك، وما بقي لهم امل في استلام العون من اي مصدر كان. فلا وصل ملكنا اليهم[٢٠٢] ولا وصل اليهم كونت طرابلس[٢٠٣] الذي اصطحبه معه.

٢) وعلاوة على ذلك، فما كان مع الملك سوى حفنة من رجال القدس، اذ انهم كانوا منهكين من شدة الجهد الذي بذلوه في الحاضر وفي العام السابق.

٣) اذ كيف يقدر اولئك الذين ما كادوا يستريحون في بيوتهم شهرا واحدا ان يحتملوا مثل هذا الجهد المتواصل؟ يقينا انه لقاسي القلب ذلك المرء الذي لا تجيش في نفسه عواطف الرحمة نحو اولئك الذين يعيشون حول القدس، الذي يحتملون ليلا ونهارا شديد الشقاء في خدمة الرب، والذين يتساءلون في

---

* متى ٢٥ : ١٠، ١١، ١٢
وفيما هن ذاهبات ليبتعن جاء العريس والمستعدات دخلت معه الى القدس واغلق الباب، اخيرا جاءت بقية العذارى ايضا قائلات يا سيد يا سيد افتح لنا، فأجاب وقال الحق اقول لكن اني ما اعرفكن.

** متى ١١ : ٢٨
تعالوا الي يا جميع المتعبين والثقيلي الاحمال وانا اريحكم
متى ٢٥ : ٤١
ثم يقول ايضا للذين عن اليسار اذهبوا عني يا ملاعين الى النار الابدية المعدة لابليس وملائكته.

خشية حين يغـادرون منازلهم، عـما اذا كانـوا سيرجعـون اليها ابـدا، واذا ما ذهبوا بعيدا فهم بحكم الضرورة يحملون الاثقال من المؤونة والاوعية.

٤) وان كانوا من الفقراء سواء من الفلاحين او من الحطابين فهم يقعـون في الاسر او يقتلون على أيدي الاحباش في كمائن في الوهاد والاحراج. ويباغتهم البابليون (المصريـون) بهجوم من البحـر والبر من هـذه الناحيـة، ومن ناحيـة الشمال يفاجئهم الاتـراك. والحق ان الاذان هنا مشرعـة لعزف الابـواق فلعل ضجيج الحرب يجلجل في الخارج. ولو أننا لم نزلّ احيانا في المعاصي لاصبحنا حقا اصدقاء الله بكل ما في الكلمة من معنى.(٢٠٤)

٥) اثـر سحقـه سـوريـا المنخفضـة(٢٠٥) ضرب الـبرسقي الحصـار عـلى قلعـة سرادانيوم (الزردانة)(٢٠٦) حريصا على ان ينشـد ما يتـأتى اليه، ولكنـه بعد ان فشـل في تحقيق اي غرض هنـاك، توجـه بجيشه نحـو مدينـة تـدعى حسـار (عزاز)(٢٠٧) وحاصرها على الفور وارهقها بقذف ثقيل الـوطأة بمجـانيقه وآلات حصاره.(٢٠٨)

٦) وسارع اليه ملك دمشق(٢٠٩) استجابة منه لطلب العون. وكان الـبرسقي في ذلك لوقت، وقد اقلقته اخبار قدوم ملكنا، قد جمع خيامـه.وارسلها مـع بقية الامتعة.

٧) بعـد ان اشتد الامـر عـلى عـزاز حتى اوشكت عـلى السقـوط وحـل وقت الهجوم على حاميتنا، انـظر، فاذا ملكنـا يصل بثـلاثة عشر فيلقـا من رجالنـا منتظمين بترتيب تام. واتخذ رجال انطاكية موقعهم في الميمنة وكـونت طرابلس وكونت الرها(٢١٠) في الميسرة بينما اتخـذ الملك موقعـه في المؤخرة حيث اشتـدت كثافة التجمعات.

٨) وبما ان الاتراك انقسموا الى احدى وعشرين كتيبة فإن عددهم بالفعل كان فائقا جدا. ونقلوا اقواسهم فـورا، منظومـة الاوتار، من ايـديهم لتستقر عـلى سواعدهم، وهاجموا رجالنا وسيوفهم مسلولة باشتباك متلاحم بالايدي.

٩) لم يطل تردد ملكنا اثر مشاهدته لذلك، فانقض على الاتراك مسلحا بحماية الصلوات وبعـلامـة الصليب، صـارخـا "الله يعيننـا" وسط زعيق الابـواق المتعالية، وأمر رجاله بأن يحـذوا حذوه اذ انهم لم يجـرؤوا على المبـادرة بالقتـال الى ان يصدر الملك اوامره بذلك.

١٠) والحقيقة ان الاتراك قاوموا ببسالة في البداية ولكنهم وهنـوا، بمشيئة خـالق

الكون، ودب فيهم اليأس واوقعت الملحمة الكبرى الفوضى بينهم، فولى من استطاع منهم الادبار بالفرار.(٢١١)

١١) شعر

طلعت الجوزاء مرات خمسا عندما منحنا الرب هذا النصر

وقد وقعت هذه المعركة التي سوف تذكر تمجيدا للرب في اليوم الثالث قبل منتصف حزيران اللافح.(٢١٢)

عدد القتلى في هذه المعركة

١) ليس في المستطاع معرفة حقيقة عدد القتلى او الجرحى في هذه المعركة، او في اي معركة غيرها، لأن الاعداد الضخمة يمكن تقديرها فحسب.(٢١٣) وعندما ينطق شتى اصناف المؤلفين بالكذب والبهتان فالحقيقة ان ذلك يرجع كثيرا الى التزلف والمداهنة، فهم يحاولون ان يغدقوا المديح على رجال بلادهم المنتصرين وان يفرطوا باطراء قوة بلادهم لكي ينتفع من ذلك اجيال الحاضر والمستقبل. وعليه فإنه من الواضح الجلي انهم سوف يبالغون بعدد قتلى الاعداء ويقللون او يحذفون كلية الخسائر التي تحل باصدقائهم فالكذب يتماشى تماما مع مثل هذه الصفاقة.

٢) على ان اولئك الذين شهدوا هذه المعركة ذكروا لنا ان الفي تركي.لقوا حتفهم، وشهد بذلك الاتراك الذين فروا منها(٢١٤). وقد هلك عدد هائل من الخيول من الطرفين تضورا من الانهاك او من العطش.

٣) كان يوما قائظا وقد زادته شدة الجهد قيظا(٢١٥)

ونشبت معركة حامية الوطيس فأصابت امرؤ جنة وهلك امرؤ اخر.

وطارد امرؤ وفر اخر، وما تعافى من كبوة احد

واحمرت الحقول والطرقات من دم الهالكين.(٢١٦) وتلألأت دروع الصدور، وتألقت الخوذ والرماح، وطرحت المعدات البراقة على الارض في كل صوب

والقى واحد درعه والقى آخر كنانته او قوسه.

٤) لم يرغب البرسقي في ان يدخر السوط، وآثر طغتكين ان يقيم حافي القدمين في دمشق وان يحافظ على حكمه بحذر. خسر الاتراك خمسة عشر واليا في تلك المعركة، وما فقدنا اكثر من عشرين رجلا كان خمسة منهم

فرسانا وكان لدينا قبل بدء المعركة الف ومائة فارس وكان لدى الاتراك خمسة عشر الف جندي بينما كان لدينا الفان من المشاة.(٢١٧)

فدية ابنة الملك

١) عبر البرسقي نهر الفرات بعد ان تلكأ بيننا لعدة ايام فقط ثم عاد الى بلاده. وما جلب الى اصدقائه في فارس المجد بل الاسى والفجيعة.(٢١٨) فالذي اتى هنا مهددا متوعدا عاد ببركة الله مستضعفا محروما من الشفقة.

٢) ثم ان الملك سارع الى القدس، بعد ان دفع نقدا فدية ابنته التي بلغ عمرها خمس سنين، والتي كانت رهينة(٢١٩) وكذلك لعدد من خدامه الذين كانوا رهن الاسر. ومضى لتقديم الشكر لله ورفع اليه اسمى التسبيحات للنصر المبين الذي حققه على البرسقي.

٣) وقد حق على الملك ان يحمد الله ويقدم له الشكر. فبعد ان سحق وداسته الاقدام لفترة طويلة وانزلته عجلة الحظ الى الحضيض، وكاد ان يستسلم في خزي وبؤس، فإن مشيئة الله قد اعادته قويا الان وارجعت اليه مجده الصافي.

٤) شعر

لقد انقضت ستة اضعاف العشرة، وضعفا الثلاث سنوات
منذ ان ولدت الى يومنا هذا(٢٢٠)
علّ الله يقضي ويحكم بالمثل فيما تبقى من ايام حياتي.

القلعة التي شيدها الملك

١) في شهر تشرين الاول من هذا العام، شيد الملك قلعة في جبال بيروت في منطقة وافرة الخصب ويدعونها مونت جلافيانوس، وذلك من "ديجلاديو" اذ ان من يحكم عليه بالموت في بيروت تقطع رأسه هنا. وتبعد عن المدينة ستة اميال. وكان فلاحو الشرقيين يرفضون في الماضي ان يدفعوا ضرائب اراضيهم ولكنهم اجبروا بعدئذ على ان يفعلوا ذلك.(٢٢١)

حملة الملك والمعركة على الاتراك

١) اثر ذلك قام الملك بالاعداد لحملة في سوريا على دمشق حيث ان السلام بينه وبين طغتكين قد خرق.(٢٢٢) فاحتل ودمر، وخرب ثلاثا من اغنى القرى وعاد الى مناطقه ومعه من الغنائم كل ما استطاع حمله.(٢٢٣)

٢) بعد ان قسم الاسلاب، ووزعها بين الفرسان وغيرهم من المشاركين حسب القواعد العادلة المرعية وجه حملته في اليوم التالي نحو بلاد الفلسطينيين.(٢٢٤)

٣) في ذلك الوقت كانت قوات جديدة قد تجمعت في عسقلان مرسلة من بابيلون (مصر)(٢٢٥) وظنت قواتنا من الفرسان، راغبة في اظهار شجاعتها على اراضينا، انها سوف تنتصر الان. ولما شاهد مواطنو المدينة المذكورة، عسقلان، رجالنا يتقدمون باعلام مرفوعة، خرجوا نحوهم بجسارة وهم يطلقون الصيحات العالية.(٢٢٦)

٤) على ان الملك لم يكن قد تقدم بعد للصف الامامي من رجاله، اذ انه كان يتباطأ بدهاء في المؤخرة لكي يقدم يد العون اذا ما اقتضت الضرورة، فيما لو حاول بعض رجاله الفرار خلسة. وهاجم فرساننا الذين كانوا في المقدمة، وما نقصتهم الشجاعة، العدو بضراوة لا تصدق، صارخين "الله يعيننا،" فسحقوا العدو. وعلى ما اعلم لو كان لدينا بضعة رجال آخرين جاهزين في ذلك الموقع لاستطاعوا دون ريب ان يخترقوا عسقلان مع اولئك الذين اشتركوا في المطاردة.

٥) فندب وتفجع من بقي من اهل عسقلان على قيد الحياة على وفاة اكثر من اربعين من افضل رجالهم واصيبوا بصدمة عنيفة لهذه النكبة التي ما كانت لهم بالحسبان.

٦) اراح الملك رجاله تلك الليلة، بعد عزف الابواق، خارج المدينة على مقربة منها. وبينما رقد رجالنا ببركة الله، قضى العدو ليلته ساهدا تعيسا. فكما قال يوسفوس "من اشتدت ثقته بنفسه يقل احتراسه ولكن الخوف يعلم الحكمة"(٢٢٧)

٧) يجب ان ندون ان خيالتنا الذين كانوا في المقدمة في ذلك اليوم لم يجدوا اي فريسة حول المدينة. فقد اخفى اهل عسقلان بحكمة قطعانهم اذ انهم كانـوا قد اخطروا بقدوم الملك.

الشرقيون يرسلون الرسائل عن طريق الحمام

١) من عـادة الشرقيين الـذين يقطنـون فلسطين ان ينقلوا الحـمائم من مـدينـة لاخرى لكي تحمل الرسائل في عودتها الى المدينة التي كانت مؤخرا موطنا لها. فترشد هذه الرسـائل، التي تكتب عـلى ورق وتربط عـلى اقدام الحـمائم، من يجدها ويقرأها عما ينبغي عمله اثر ذلك. ومن الواضح ان ذلك مـا حدث في هذه الحالة.[٢٢٨]

تنوع العادات

١) تختلف العادات والتقاليد في كل مكان حسب تنوع البلدان[٢٢٩] ففرنسا لهـا عادات معينة وكذلك انجلترة ومصر والهند كل لها عادات اخرى.

٢) تختلف البلاد في الطيـور والاشجار. فـما رأيت في فلسطين الحـوت[٢٣٠] ولا سمـك الجلكي، ولا رأيت بين طيـورها غـراب العقعق ولا الشـادي. وفيهـا حمير وحشية، وقنافذ شوكية، عـدا الضباع التي تحفـز قبور الامـوات.[٢٣١] وما رأيت بين اشجارها شجر الحور والبندق والبيلسان والآس البري ولا القبقب.

اصناف شتى من البهائم والافاعي في بلاد الشرقيين

١) شاهدنا جميعا مؤخرا حول نابلس[٢٣٢] حيوانا ما عرف امرؤ اسمه ولا سمع به، له وجه كذكر الماعـز، ورقبة شعـراء كالحـمار الصغير، وحـوافر مشقـوقة، وذيل كالعجل، وهو اكبر من الكبش.[٢٣٣]

٢) هنالك في مصر[٢٣٤] حيوان آخر يدعونه الكمير وهو طويل في مقدمته وليس في مؤخرته.[٢٣٥] وهم يلقون عليه ايام الاعياد انفس عباءة بالاضافة الى اشياء فخمة اخرى يرغبون ان يخدموا بها اميرهم.

٣) وهنالك التمساح، ذلك الشريـر الربـاعي الاقدام الـذي يستوطن اليـابسة

والانهار بإلفة متساوية، وليس لديه لسان، ويحرك فكه العلوي فتطبق عضاته بتشبث هائل. وهو ينمو حتى يفوق طوله العشرين ذراعا. ويبيض البيض مثل الوز ولكن صغاره يفقسون فقط في المواقع التي لا يصل اليها النيل عند ارتفاعه في المد. وهو مسلح بمخالب بالغة الضخامة ويقطن المياه في الليل ويستلقي على اليابسة خلال النهار. ويغلفه جلد خشن متين.(٢٣٦)

٤) وتوجد مثل هذه الرباعية الاقدام في احد جداول القيصرية في فلسطين، ويحكى انها قد احضرت مؤخراً من النيل ذاته بالخداع والمكر. لذلك فهم كثيرا ما يلتهمون الحيوانات الاخرى الآن ويسببون كثيرا من الخراب في تلك الانحاء.(٢٣٧)

٥) اما جاموس النهر (سيد قشطة) فيعيش في نهر النيل فقط، وكذلك في الهند، وهو يشبه الفرس في ظهره وعرفه، وفي صهيله، وشموخ أنفه، وانشقاق مخالبه، والتصاق اسنانه والتواء ذيله وهو يرعى في حقول الحنطة في الليل، فيقترب منها مغربا وجهه عنها في مكر وخديعة ويترك اثرا مضللا لكي لا ينصب له احد فخا في طريق عودته.(٢٣٨) ويفوق جسد هذا الحيوان الفيل ضخامة.(٢٣٩) والله يخلق جميع الحيوانات الكبير منها والصغير وما ارضاه مما خلق ينبغي ان يرضينا ولذلك وجب علينا ان نقدم الحمد له.

٦) فم التنين الحقيقي صغير ولا يستعمل للعض، وهو نوع من المسلك يتنفس من خلاله هذا الحيوان ويبرز منه لسانه لذلك فإن سمه في ذيله وليس في اسنانه وهو لا يسبب الاذى باللدغ بل بالدق والالتفاف وهنالك حجر ينحت من دماغه.(٢٤٠) والتنين هو اكبر الافاعي بأسرها ان لم يكن اكبر الكائنات الحية على وجه البسيطة.(٢٤١) وكثيرا ما يستهال لمغادرة كهفه الى العراء فينشب في الجو حينئذ هيجان عنيف. ثم ان لهذا الحيوان عرفا، وكل ما يقبض عليه يهلك، والحق ان الفيل، على ضخامة حجمه، لا يأمن شره.

٧) وهو يتوالد في الهند وفي الحبشة في حرارة الصيف الدائم، ويتربص حول الممرات التي ترتادها الفيلة، ويربط اقدام ضحيته في عقد فيهلكها بذلك خنقا.(٢٤٢) وليس لديه ارجل.

٨) يوجد الرخم* في سكيتيا الاسيوية،** وهو طائر شديد الوحشية، معتوه

---

* الرخم حيوان خرافي براس واجنحة نسر وجسم سبع.

** بلاد قديمة شمالي البحر الاسود.

يتخطى حدود الجنـون[٢٤٣] ثم هنالـك المركـانيون، وهم جنس وحشي يقـطن الادغال، تعج بلادهم بالبهائم الوحشية الضخمة ومن بينهـا النمور. ويتميـز هذا الصنف من البهائم بترقيطاته الصفراء الـلامعة ولا ادري مـا الذي يمـده بالسرعة في العدو اهي رشاقة حركتـه الطبيعيـة ام هو عـزمه وتصميمـه. ولا شيء يشتد بعده عنه فلا يستطيع النمر ان يلحق به بسرعـة، ولا شيء يسبقه فلا يستطيع ان يلحق به.[٢٤٤]

٩) يـوجد في هـيركانيـا فهود تغـطيهـا بقـع صغـيرة، ويحكى ان قـطعـانـا من الحيوانات الاخرى تتأثر بشكل عجيب برائحتها ومنظرها. وعندما تشعـر هذه الحيوانات بوجود الفهود تجتمع بعضها مع بعض في الحال في قطيـع فلا تخشى سـوى منظر انيـاب الفهد. وتقتـل الفهود بـالسم اكثر منهـا بالسـلاح وذلـك لتشبثها العنيف بالحياة.[٢٤٥]

١٠) يشابه الايل البغال ببروز شفته العليا. وهو لا يقدر ان يرعى لهـذا السبب الا اذا مشى الى الخلف.[٢٤٦]

١١) تتوالد الحرباء وهي حيوان رباعي الاقدام في الهند على الاكثر. وهي تشبه السحليـة سوى ان اقـدامها مستقيمـة وطويلة وتلتصق ببـطنها ولهـا ذيل ملتـو طـويل، ومخـالب تنحني بـرقـة، ومشيـة بـطيئـة، وجسـد خشن وجلد كجلد التماسيح وفمها فاغر على الدوام وليس له فائدة اخرى.[٢٤٧]

١٢) والغراب الاسود يعافها واذا ما قتلها الغـراب فهي تقتل من يميتهـا. اذ لو ان الغراب التهم من الحرباء لقمة صغيرة فإنـه يموت لتـوه. على ان للغـراب علاجا فهو يتماثـل للشفاء اذا اكـل ورق الغار. وليس في جسـد الحربـاء لحم ولا في احشائها طحال وهي تكتسب لون ما يحيط بها.[٢٤٨]

١٣) شعر

هي تدعى سلمندر باليونانية، وستيليو باللاتينية
وتلك الستيليو الملتهبة السلمندر الحرباء الخشنة
لديها اسماء ثلاثة ولكنها شيء واحد فقط

١٤) هنـالـك طـير يـدعى الفـرس المجنـح وليس لـه من صفـات الفـرس الا الاذنان. وهنالك قوم طوال القامات فهم يقدرون عـلى امتطاء الفيلة بسهـولة كما لو انها خيـول.[٢٤٩] وهم من الجنس الابيض في صغرهـم ولكنهم يـزدادون سوادا بتقدمهم في العمر.

١٥) الوحش الابيض وحش يفوق كل الحيوانات البرية في سرعته وهو بحجم حمار الوحش، وله عجز الوعل وصدر وأقدام الاسد، ورأس الغرير، وحوافر مشقوقة وفم يمتد من اذن لاذن، وعظام متصلة بدل الاسنان كذلك شكله، اما من الناحية الاخرى فصوته يقلد صوت الانسان.(٢٥٠)

١٦) وبينها يتوالد وحش يدعى المنتقيور، وله ثلاثة صفوف من الاسنان تنطبق وتستعمل بالتبادل ووجه مثل وجه الانسان، وعينان براقتان، ولون دموي احمر، وجسد مثل الاسد، وذيل شائك فيه زبانة مثل العقرب، وصوت صفيري كأنه نغم الناي، وهو يجد بشراهة في طلب اللحم البشري. وهو خفيف الحركة ويستطيع ان يقفز بعيدا فلا تحتويه اوسع الاماكن ولا تعيقه اشد العراقيل.(٢٥١)

١٧) ومن يقدر ان يفقه او يسبر غور آيات الله في تعددها وعظمتها في خضم بحر الحياة الشاسع الواسع حيث تعيش شتى انواع الحيوانات والزواحف التي تفوق الحصر؟ ولقد اقتبست ما اوردت هنا على قلته من الكاتب سولينس الذي بذّ الباحثين همة ومهارة. اما ما وجد الاسكندر الكبير في الهند وشاهد هناك، فسوف اتلوه فيما بعد(٢٥٢) او على الاقل سأتلو جزءا منه.

١٨) لقد اشرف هذا العام على الانتهاء الان فليمض الله في حكمه،
على سنة هذا الزمن، والان يندمج هذا العام في العام المقبل.

حملة ملك القدس على ملك دمشق

١) في عام ١١٢٦ بعد مولد سيدنا خلال الخمسعشرية الثالثة، بعد الاحتفال بأعياد الميلاد في القدس(٢٥٣)، جمع الملك جيشه لكي يشن الهجوم على ملك دمشق(٢٥٤) وبعد ان اعلن الدعاة التعبئة، تحركت القوة البشرية في مملكة القدس برمتها فرسانا ومشاة. وزحف رجال يافا والرملة وكذلك اللد عبر نابلس واخذوا طريق بيسان بينما اخذ رجال عكا وصور الطريق الشمالية.

٢) وغادروا مدينة صفورية تحت قيادة الملك، وجبل طابور عن يمينهم، ووصلوا الى طبريا وانضم اليهم هناك رجال القدس. ثم اجتازوا جميعا نهر الاردن واستراحوا بأمان في خيامهم.(٢٥٥)

شعر

ساد الهدوء والسكون في تلك الليلة الصافية
وأضاءت القرون القمر السادس عشر.(٢٥٦)

٣) وعند مطلع الفجر أطلقت الابواق الاشارة للرجال ليغادروا معسكرهم. فضربوا خيامهم وأعدوا جميعا للمسيرة. وحملوا بغالهم وجمالهم والدواب الاخرى بالمتاع مما اثار كثيرا من الجلبة فنهقت الحمير ودمدت الجمال وصهلت الجياد. وعندما بدأت الكشافة في استطلاع الاثر للمشاة عزفت الابواق واختار الرجال بعناية افضل الدروب لمسيرتهم.

٤) بعد ان توغلوا في منطقة الاعداء ارتضوا بحكمة ان يزحفوا باعلام منكسة وان ينتضوا دروعهم وقاية لئلا يباغتهم خطر ليس في الحسبان. ثم قطعوا شعاب الرب ودخلوا منطقة دمشق وقضوا ليلتين خلف الميدان. وينبع من هنا جدول يجري نحو بيسان من بحر الجليل ويصب في الاردن.

٥) ثم دمروا إثر ذلك حصنا اتوا عليه امامهم، وهكذا وصلوا الى موقع حصين يدعى سالومي. وخرج السوريون المسيحيون الذين قطنوا هناك في موكب لمقابلة الملك.

٦) اقبلوا بعد ذلك على واد يدعى مارسيوفراي "مرج الصفر"[٢٥٧]. وذلك هو الموقع الذي ضرب فيه الرب الرسول بولس ففقد بصره لمدة ثلاثة ايام (اعمال الرسل ٩: ٣ ـ ٩)، وتوقفوا هناك لمدة يومين، وقد شاهدوا من هناك خيام الدمشقيين الذين كانوا يتربصون بجيشنا في تلك المنطقة.[٢٥٨]

٧) عاد ابن الملك طغتكين، بعد ان كان غائبا يجمع بهمة ونشاط قوة من ثلاثة الاف فارس من كل حدب وصوب، وانضم الى والده مستعدا للمعركة[٢٥٩] في اليوم الذي سبق القتال.

٨) وتم في الحال ترتيب فرساننا ومشاتنا في اثني عشر تشكيلا بطريقة تمكنهم من ان يدعم واحدهم الاخر اذا ما اقتضت الحاجة. وبعد ان حضر الجميع القداس وتناولوا خبز الشركة المقدس وضموا صفوفهم على خط القتال، شرعوا في القتال وهم يصرخون "الله يعيننا".

٩) صرخ الاتراك ايضا وقاتلوا بعنف وضراوة وعجبوا للبسالة المذهلة التي أظهرها اولئك الذين ازدروهم وكأنهم كانوا قد قهروهم فعلا، فخانتهم شجاعتهم، وعزموا على الفرار بعد ان دب فيهم الخوف والرعب. ففر طغتكين وكذلك ابنه[٢٦٠]، ومع ان الشدة ضيقت على رجالنا فوق طاقة الاحتمال، الا ان شجاعتهم تزايدت اكثر فأكثر، وظلوا ثابتين صامدين في عزيمتهم.

١٠) على ان وابلا من سهام الاتراك انصب على المسيحيين فما سلم جزء من اجسادهم من كدم او جرح. والحق ان رجالنا ما شهدوا قط معركة اشد عنفا او هولا فكانوا يتراكضون محتدين وقد تعالى ضجيج المعركة حولهم وحمى وطيسها، ودوت لعلعة الابواق والانفار.

١١) طوق الاتراك في ذاك الوقت رجالنا واصابوا عددا كبيرا منهم بجراح، فلاذ هؤلاء بالفرار ولكنهم بعد ان جربوا ذلك لمسافة اربعة اميال داروا على الاتراك كما اقتضى عليهم ووجب، وشرعوا في القتال وقد افعمتهم الحماسة للحرب.(٢٦١)

شعر

"صادف يوم المعركة المقدس هذا يوم الذكرى السنوية

لاعتناق بولس دينه بولس الذي اصطفاه الله.(٢٦٢)

نشب قتال المعركة في الساعة الثالثة من النهار ووضع المساء حدا له بنصر اغدقه الله.

١٢) المعركة محفوفة بالخطر، والفرار مخز وفاضح، ولكن من الافضل ان يعيش المرء مستضعفا على ان يموت ويندب الى الابد. لذلك آثر الاتراك الفرار لكي يحافظوا على حياتهم. والحق ان اكثر من الفي تركي لاقوا حتفهم على ارض المعركة عدا المشاة الذين لم يرد ذكرهم. وخسرنا نحن اربعة عشر فارسا وثمانين راجلا.(٢٦٣)

١٣) كان تصرف مليكنا في ذلك اليوم رائعا. وكذلك تصرف فرسانه واتباع معسكره جميعا، حيث ان الله القدير كان معهم بشخصه. وفر ملك سوريا وكل من استطاع ان يتبعه.(٢٦٤) وعاد مليكنا في نشوة النصر الى القدس.

١٤) بعد صدور الاوامر بالعودة طوق رجالنا حصنا واستولوا عليه وفيه ستة وتسعون رجلا فقتلوهم واستولى الملك على حصن آخر فيه عشرون تركيا كانوا قد التجأوا اليه.(٢٦٥) وعندما ادرك هؤلاء ان رجالنا بدأوا بالحفر حول الحصن وبنزع الحجارة الضخمة منه سلموا انفسهم وحصنهم المنيع الى الملك لشدة خوفهم، فسمح لهم الملك بالمغادرة حسب الاتفاق ولكنه هدم الحصن. وكان تدميره غاية في الضرورة اذ ان مناعته كانت سوف تغوي الكثيرين بالثورة. اذ كان من الممكن ان يصمد ملجأ آمنا لمن يملكه ومصدرا للريبة والقلق لمن يهاجمه.

١٥) لعلني اسبب الضجر لسامعي روايتي لو انني اوردت كل الامور التي حصلت في حرب او نتجت عنها، سواء بالعنف او بالحيلة. فإن اهل دمشق احضروا معهم شبانا انتقوهم لرشاقة حركتهم فكانوا مسلحين وامتطوا الجياد خلف الفرسان الاتراك، وفور مقابلة العدو، قفزوا عن الجياد وحاربوا كمشاة. بينما تابع الفرسان الذين احضروهم القتال في الناحية الاخرى.[٢٦٦]

حصار مدينة الرفانية، ونهر سبتكس

١) كتب القدامى "ليس هنالك شيء مبارك من كل ناحية"[٢٦٧] وليس من الممكن ان تكون البركة قد حصلت في هذه المعركة اذ اننا فقدنا اربعة عشر من ابسل الفرسان بالاضافة الى بعض المشاة الشجعان. ولكن ذلك لا يذكر مقابل المذبحة التي حلت بالاعداء.

٢) تفسر كلمة "دمشق" بأنها "قبلة الدم" او "شرب الدم"[٢٦٨] وقرأنا انه في دمشق سفك دم هابيل.[٢٦٩] وبالفعل فإن اهل دمشق يقدرون على الاغتسال بدم القتلى بل حتى ان يشربوا من دم انفسهم بذاتها بأن يطرحوا انفسهم متمددين ووجوههم منبطحة على الارض.

٣) عاد الملك اخيرا مع جيشه الى القدس حيث قضى الجميع ذلك اليوم في اجازة وفي تقديم صلوات الشكر.[٢٧٠]

٤) بعد فترة قصيرة، استجاب الملك لصلوات كونت طرابلس.[٢٧١] وزحف لاعانته في حصار بلدة تدعى الرفانية تقع على سفح جبل لبنان.[٢٧٢] وكما يذكر يوسفوس في هذه المنطقة "ما بين ارشاص والرفانية يجري نهر له صفة فريدة عجيبة، اذ انه سريع التيار عندما تتدفق مياهه ولكن منابعه تنضب بعد ستة ايام، ويبدو موقعه وكأنه قد جف. وفي اليوم السابع ومن دون اي سبب ظاهر يرتفع النهر ثانية، وقد وجد انه يعيد تكرار هذه الصيغة على الدوام وفي نفس الوتيرة ولذلك دعي هذا النهر السبتي "سبتكس" بالنسبة لليوم السابع الذي يقدسه اليهود.

٥) وبالفعل فإن طيطس الامير قضى بعض الوقت حول بيروت ثم غادرها وهو يمدح هذا المنظر الذي فاق بروعته كل ما شوهد في المدن السورية التي زارها. وقد اشتد اعجابه بهذا النهر ورأى فيه امرا جديرا بالتقدير

العفوي.[٢٧٣]

عن نهر آخر

١) يورد المؤرخ عينه ذكر اعجوبة اخرى، فيقول انه على مقربة من مدينة عكا كان هنالك جدول ضئيل جدا يبعد حوالى ربع ميل ويدعى "بيلوس" قرب كنيسة ممنون، وهو بالفعل يستحق كل اعجاب.

٢) فهو على شكل واد مستدير وهو ينتج رملا زجاجيا، وبعد ان تأتي السفن اليه وتنقل منه الرمل، يعود الموقع فيمتلىء بالرمل. وتحمل الرياح بطبيعتها رمالا اخرى من التلال المحيطة بالوادي فيحيل ذلك المكان المواد التي يستلمها الى رمال زجاجية على الفور.

٣) "وما يثير عجبي فوق ذلك انه كلما طرح جزء من ذلك الرمل الزجاجي الى حافة المكان عاد ثانية واصبح رملا عاديا".[٢٧٤]

الاستيلاء على مدينة الرفانية

١) سقطت مدينة الرفانية، التي كنت قد اشرت اليها باقتضاب[٢٧٥] على هذا النحو: بعد ان حاصر الملك والكونت[٢٧٦] الشرقيين داخلها لمدة ثمانية عشر يوما بقذفها بحجارة المجانيق استسلم سكان المدينة وغادروها دون ان يمسهم اذى. وقع ذلك في آخر ايام اذار.[٢٧٧] وهكذا استلم الكونت المذكور المدينة وملكها منذ ذلك الحين، وقام بتحصينها، ثم عاد الملك الى القدس.

وفاة الامبراطور الروماني

١) بينما كنا نحتفل بعيد الفصح[٢٧٨] في القدس، وصلتنا روايات الحجاج تخبرنا بوفاة الامبراطور الروماني[٢٧٩] واضافوا ان دوق سكسونيا المدعو لوثير قد ارتقى الى عرش الامبراطورية[٢٨٠]

شعر

"عندما توفي هنري، اضاء برج الجوزاء[٢٨١]

واثر ذلك حكم لوثير ابن الدوق واصبح ملكا"[٢٨٢]

حملة الملك على المصريين

١) بعد فترة وجيزة(٢٨٣) شرع الملك في حملة من مدينة صور، وهبط الى سوريا السفلى(٢٨٤) مخلفا وراءه قسما من خيالته واخذ معه القسم الاخر. فعل ذلك رغم سماعه بشائعات تنم عن استعداد المصريين للحرب وبوشوك تحركهم ضدنا.

٢) فقد عزم على ان يسارع الى الموقع الذي سمع ان العدو سوف يهاجمه. فكان مثل الخنزير الكاسر تحيط به الكلاب وتنهشه بعضاتها المتتالية، واضطر ان يدافع عن نفسه يمينا ويسارا بأن ينقض باسنانه بشراسة عليهم. وكما اعتدنا ان نقول مجازيا "تذهب اليد حيث يوجد الألم"(٢٨٥)

٣) ولكن قبل وصول الملك الى هناك، حاصر الاتراك واحتل موقعا يشبه القلعة. ولما كان ذلك الموقع مصدر ازعاج للاتراك توجب علينا اخذه. وكان جنودنا قد نجوا منه عن طريق مخرج انسلوا منه بمهارة فائقة خلال الليل، مخلفين وراءهم زوجاتهم وأولادهم، مؤثرين ان يخلصوا البعض على ان يخسروا الكل.(٢٨٦)

٤) ثم بدأ في ذلك الصيف في منتصف شهر تموز شهاب في الظهور ما بين الشرق والشمال. طلع قبيل الفجر وسطع شعاعه حتى حوالى الساعة التاسعة، وقد بدا مثل ضوء خافت. وجهدنا لمدة ثمانية عشر يوما لكي ندرك معناه. ولكننا أسلمنا ذلك لخالقنا اجمعين.(٢٨٧)

٥) في ذلك الوقت حاصر الاتراك، الذين كان البرسقي اهم قوادهم، بلده تدعى الاثارب، على أنهم ما ان سمعوا بمقدم ملكنا الذي كان يتبعهم الا وانسحبوا الى مواقع دفاعية اكثر امانا، وقد احبطت مخططاتهم، اذ لم يكن لديهم اكثر من ستة آلاف جندي. لذلك عاد الملك الى انطاكية.(٢٨٨)

الاسطول المصري

١) ابحر المصريون في هذا العام، بعد ان جددوا اسطولهم وحشوده، تدفعهم ريح جنوبية، ودخلوا بلاد الفلسطينيين.(٢٨٩) ومروا بالفرما والعريش(٢٩٠) وغزة

وعسقلان وكذلك يافا والقيصرية وعكا وصور ثم صيدا. فتقصوا وتفحصوا الشاطىء خلسة حتى حدود مدينة بيروت. وتصيدوا وفتشوا من مرفأ لمرفأ ليروا ما اذا كان بمقدورهم ان يجدوا ما يعود عليهم بالمنفعة ويعود على المسيحيين بالاذى.

٢) ولما كانوا في تلك الفترة يعانون كثيرا لافتقارهم للمياه العذبة، اضطروا لان ينزلوا الى اليابسة لكي يملأوا دلاءهم من الجداول والينابيع لكي يرووا ظمأهم.

٣) على ان مواطني المدينة المذكورة استاؤوا من ذلك وخرجوا على الفور بجسارة وقاموا، وقد انضم اليهم بعض المسافرين الذين صدف وجودهم هناك، بشن هجوم عليهم. فسقط مائة وثلاثون من اولئك القراصنة قتلى او مصابين بجراح قاتلة. والحقيقة ان خمسة الاف منهم كانوا قد غادروا السفن ليقاتلوا عدا من بقي في السفن للاعتناء بها في تلك الاثناء. وكان عددها اثنتين وعشرين سفينة ثلاثية المجاذيف[٢٩١]، وثلاث وخمسين سفينة اخرى.

٤) وهكذا فإن اعداءنا كانوا قساة غلاظا، ليس في قلوبهم شفقة على من استطاعوا ان يخضعوا تحت سيطرتهم، يستمتعون بممارسة وحشيتهم على بني قومنا.

٥) ولكننا نحمد الله لانهم ما حققوا فائدة ترجى في هذه الحالة، فإن فرساننا بحرابهم وقواسينا بسهامهم، قذفوا بهم في البحر والحقوا بهم هزيمة نكراء ما كانت لهم في الحسبان. فنشروا اشرعتهم على الفور وداروا متجهين نحو طرابلس ثم قبرص.[٢٩٢]

رحلة بيهمند الاصغر

١) كم من مرة في ذلك العام[٢٩٣] اخبرنا السعاة الحجاج واعلنوا لنا، عن حضور بيهمند الاصغر؟[٢٩٤] ولكنهم خدعونا بشائعاتهم المتعددة، اذ ان بيهمند خاف من اسطول المصريين او القراصنة الذي علم انه انتشر في البحر، كما انه كان شديد القلق على بلاده نفسها وخشي ان لم يحكم حفظها بين اتباعه ان يفقدها بالمراوغة والاحتيال وبأساليب المكر والدهاء[٢٩٥] وقد ورد في امثال الفلاحين فعلا أن "من لديه جار سيىء، فصباحه سيىء"[٢٩٦]

٢) اخيرا، بعد ان أعد لرحلته مرات عديدة، جمع في اوترانتو، احدى مدن ابوليا اكثر ما استطاع من السفن، اي اثنتين وعشرين، كانت عشرة منها سفنا طويلة مزودة بالمجاذيف، وسارع بالتحضير لرحلته.[٢٩٧] فعل ذلك بعد أن أودع بلاده لدوق ابوليا، الذي انتقاه وعينه وريثا له اذا ما سبقه في الوفاة. ثم ان الدوق منحه وثبت له الحق ذاته عن طيب خاطر، فيما لو كان الدوق اول من فارق الحياة بينهما.[٢٩٨] وتم ذلك بحضور وشهادة وجهاء القوم من الطرفين.

٣) وهكذا ابحر بيهمند في اواسط ايلول[٢٩٩]، ومر بشيكلادس، المنتشرة حول سطح البحر، واتى الى ميثون، ورودس، وبامفليا، وليسيا، ووصل في خضم الامواج الى اداليا التي تملأ بالرعب من يبحر اليها. ثم مر بانطاكية الصغرى، فانطاكيا الكبرى واسوريا ومدينة سلوكيا، فكانت قبرص عن يمينه وطرطوس ومدينة مالوس الشهيرة، التي باتت خرابا عن يساره.[٣٠٠]

٤) في تلك الفترة نشر كثير من الناس الجشعين المتقلبين الذين حضروا مؤخرا عبر البحار، الحكاية بيننا في القدس[٣٠١] ان بيهمند قد وصل اليابسة فعلا في انطاكية، ولكنهم ضلوا فيما قالوا. على انهم ظنوا انهم قالوا الحقيقة لانهم حضروا مع بعض رجاله الى ان وصلوا بارتا بصحبة الصقور والبزاة، وصيادي الطيور والكلاب التي ارسلها مقدما.

المخاطر التي تعرض في البحر

١) كثيرة هي المصاعب التي تقابل من يركب البحر اذا ما شاء الله وسمح بها. فقد تنقطع المرساة وتنفصل، وقد يتحطم عمود الشراع او مؤخرة السفينة المعكوفة المزخرفة، او قد تنفصل السلسلة المعدنية.

٢) وعندما تغير الريح اتجاهها، يراقب البحارة دواره دليل اتجاه الريح ليتأكدوا من ان السفينة تجري في الاتجاه المناسب. وهنالك خطر دائم في ان تفقد مجراها في الليل. وعندما تختبىء النجوم خلف السحب او تجري السفينة على الصخور، هنالك خطر محدق في الغرق والهلاك (اعمال الرسل ٢٧ : ٢٠، ٢٩ - ٣٠)* وكما في البر، كذلك توجد المخاطر في البحر.

---

* اعمال الرسل ٢٧ : ٢٠
وإذا لم تكن الشمس ولا النجوم تظهر اياما كثيرة واشتد علينا نوء ليس بقليل انتزع اخيرا كل رجاء في نجاتنا.

٣) لماذا نستغرب ما يجري لنا اذا ما تذكرنا حطام سفينة القديس بولس؟ فقد القى ملاحوه الفادن لكي يقيسوا عمق البحر. ولو لم يشاهد ملاك الاله في محنته لانقطع رجاؤه في النجاة (اعمال الرسل ٢٧ : ٢٣ - ٢٨).

البحر العظيم

١) اعتادت كثير من السفن ان تصادف المخاطر في خليج اداليا. فقد تهب الرياح عاتية من جميع الانحاء، وتهبط من الجبال نحو الوديان، لتنحرف بين الشعاب المنخفضة وتتجمع في اعصار في الخليج. وان قابل البحارة في بعض الاحيان سفينة قراصنة تسلب اموالهم ويحل بهم الدمار دون شفقة[٣٠١]. اما اولئك الذين يعانون كل ذلك محبة بالله، فهل تخيب آمالهم قط في ثوابه؟

٢) دعنا نذكر بضع كلمات عن البحر "علينا ان لا نغفل عن ذكر مصدر البحر المتوسط. يعتقد البعض انه ينشأ في مضائق قاديس وليس له مصدر غير مصب المحيط الهادر. اما الذين يعتقدون عكس ذلك فيقولون ان كل تدفقه يأتي من مضائق بوبتس ويدعمون ذلك بالحجة الراسخة بأن المد من بوبتس لا يرتد رجوعا ابدا.[٣٠٣]

٣) لذا فلنرفع الحمد والاجلال لخالق الكون الذي "ثبت حدود البحر ووضع له تخوما ومداخل اذ قال له الى هنا تأتي ولا تتعدى، وهنا تتخم كبرياء لججك"[٣٠٤] وحين يندفع البحر هائجا نحو الشاطىء يتكسر الى زبد ترده ادنى العقبات عن الشاطىء.[٣٠٥]

٤) ثم ماذا يمنع البحر الاحمر، اللهم ان نهت شريعة السماء عن ذلك، من ان ينضم الى البحر المصري في سهول مصر، الذي يقع في منطقة اكثر انخفاضا من الوديان المنبسطة التي تتصل به؟ واخيرا ورد في الكتب ان ملكين اثنين ارادا ان يصلا هذين البحرين فيصب احدهما في الاخر، اولهما سيسوتريس المصري وثانيهما دارا الفارسي[٣٠٦] وقد شاء هذا الاخير نظرا لانه فاق الامير المصري سلطة وقدرة، ان ينجز ما سعى اليه ذاك.

= اعمال الرسل ٢٧ : ٢٩ - ٣٠
واذا كانوا يخافون ان يقعوا على مواضع صعبة رموا من المؤخر اربع مراس وكانوا يطلبون ان يهربوا من السفينة وانزلوا القارب الى البحر بعلة انهم مزمعون ان يمدوا مراس من المقدم.

٥) "ويدل هذا على ان المحيط الهندي، الذي يقع فيه البحر الاحمر، يعلو عن البحر المصري الذي يقع على مستوى اشد منه انخفاضا وليس على ذات المستوى. ولعل كلا من الملكين تخلى عن المشروع لكي يمنع البحر من ان يجري من مستوى عال الى منخفض فيفيض بذلك ويغمر البلاد." وقد ورد ذلك في مذكرات امبروز.[٣٠٧] ويذكر سولينوس غير ذلك.[٣٠٨]

٦) عجيبة اعمال الله اذن، ولكن اعجب منها من خلقها ودبرها. وان بدا بعضها قبيحا في أعيننا فعلينا ان نمدحها رغم ذلك لان خالق الكون ابتدعها.

٧) لقد زودنا الله بالدواء في حشرة البق[٣٠٩] ومنح الدهاء للمرجان ولقنفذ البحر، واعطى الحكمة للثعبان (متى ١٠: ١٦) فتقدم هذه الحيوانات الدواء في بعض الاحيان، وفي احيان اخرى تسبب المرض او حتى الوفاة. وهي تعطي الشفاء حينا والضرر حينا آخر. ويحكى انه اذا ما اعد ترياق مضاد لسموم لدغة الثعبان من لحم الثعبان فهو ضار ان اخذ وحده ولكنه ناجح ومأمون ان مزج بمواد اخرى.

اصناف الثعابين

١) اما الباسيليق فطوله نصف قدم، وهو ابيض مثل تاج الاسقف وله رأس مخطط[٣١٠] وهو لا يميل الى تدمير الانسان والحيوان فحسب بل حتى الارض نفسها فهو يسممها ويلفحها، وحيثما يكون، يترك خلفه مكمنا قاتلا تذوي فيه الاعشاب والاشجار وتموت. وهو يلوث الجو ذاته، فلا يستطيع طائر ان يطير فيه بأمان لانه يفسده بنفسه الموبوء.

٢) عندما يتحرك الباسيليق يزحف نصف جسده وينتصب النصف الباقي قائما، وحتى الثعابين ترتعد لسماع هسيسه فتزمع في الفرار شاردة لا تلوي على شيء، اما ما يقتله الباسيليق بلدغه، فلا يأكله حيوان بري ولا يقربه طير. على ان ابن عرس يتغلب عليه، لذلك يضعه الناس في ملجئه.

٣) وحقا ان اهل بيرجمون امدوا المعبد الذي جملته يدا ايلييس[٣١١] برفات باسيليق دفعوا سيسترتيوم* كاملة ثمنا له، لكي يطردوا العنكبوت فلا يغطي

---

* عملة رومانية قديمة تعادل الف سترس.

المعبد بنسيجه ولئلا تحتله الطيور.

٤) اما المثنية فلها رأسان اثنان، يقع ثانيهما في الذيل. والمقرنة لها قرون اربعة قصيرة وهي تغطي جسدها بعناية في الرمل ثم تبرز قرونها لكي تبدو وكأنها قوت فتتخفى وتقتل الطيور.(٣١٢)

٥) والحمراوية تمتص الدماء بعد اللسع، وهي تمتص الحياة من مجرى الدم في العروق. اما البرستا فهي تصيب من تلدغ بتورم فاحش فيموت. ويحل التعفن عادة بعد الورم.

٦) وهنالك ثعابين اخرى باسماء متعددة ومهما اختلفت اسماؤها فكل منها يسبب الموت بطريقة مميزة.

٧) اما العقرب والسنقور والسلحفاة فتقع كلها تحت صنف الديدان لا الثعابين، واذا ما هسهست هذه المخلوقات القذرة فهي اقل خطرا. وليس لديها اي مشاعر الا اذا ما هامت تبحث عن وليفها.

٨) ويسطع ظهر السقطلة بضروب الالوان ويأسر جمالها ألباب من يبصرها. واما العطشاوية فتسبب العطش القاتل بلدغتها. والنوامة، وتقتل بتسبيب النوم، ويؤدي النوم الى الوفاة، كما حصل مع كليوباترا. ولن نذكر سموم الثعابين الاخرى لانها قابلة للعلاج.(٣١٣)

٩) ولا تقل هذه الاعاجيب اذهالا عما شاهده الاسكندر الكبير في الهند، فقد أسرّ لمعلمه ارسطو ووالدته اوليمبيا "ما كنت لاصدق بوجود كل هذه الضروب من الاعاجيب لو لم اشاهدها بأم عيني".(٣١٤) والحق ان هذا الملك كان رجلا رائعا بكل ما في الكلمة من معنى، حكيما، مدبرا في اموره، نشيطا في همته وقويا في سلطته، لا كالريشة الطائرة ولا كالقش العائم.

وصول بيهمند الاصغر، ابن الدوق بيهمند واستقباله في انطاكية

١) لما كان بيهمند قد تأخر في اقلاعه في ذلك العام(٣١٥) عما كان متوقعا ظنا بأنه لن يحضر حسب ما اعلن وراج بين الناس. ولكن كما ورد في قول النبي ارميا "ليس للمرء طريقة وليس لانسان يمشي ان يهدي خطواته ولكن الهدى يأتي بأمر الرب" (ارميا ١٠ : ٢٣) وقد خدعتنا اوهامنا وخيبت آمالنا، فالامور لا تجري وفقا لاطماع البشر بل بما يقضي الله به جزاء عادلا لهم.

٢) ولكن قلوبنا انتعشت لما اخبرنا ملكنا في رسائله الينا في القدس عن

وصول بيهمند الى انطاكية.[٣١٧]

٣) استقبل الجميع بيهمند عند مجيئه الى انطاكية بغبطة شديدة. وسار الملك في موكب حافل واستقبله بحرارة وسط هتافات الجماهير المتتالية. وعقد الملك وبيهمند اجتماعا على الفور، وقدم الملك اثر ذلك لبيهمند بلاده بأسرها ومنحه احدى بناته زوجة له.[٣١٧]

شعر

انظر ترى الحمو وترى الصهر، الوالد والابن

فليوقر واحدهما الاخر فيزيد بذلك كلاهما منعة.

٤) بعد ان تمت مراسيم الزفاف، عقد القران بالطريقة الشرعية. وتم تنصيب بيهمند اميرا وهو جالس على عرشه، وخلع عليه رداء الامارة الانيق. وبعد ان تجمع النبلاء اقسموا له يمين الطاعة الذي حق عليهم لكونهم رجاله، وعاهدوه ان يقوموا بخدمته منذ ذلك اليوم وتم ذلك بمحضر الملك وبرضاه.[٣١٨]

٥) عاد الملك الى القدس بعد ان جرت هذه الامور[٣٢٠].

شعر

سطع برج السرطان بين نجوم السماء

عندما استقبل بيهمند حاكما لانطاكيا[٣٢١]

وقد انحسر مدار هذا العام الان، واستعد لبدء العام الجديد[٣٢٢]

وباء الجرذان

١) في عام الف ومائة وسبعة وعشرين من ميلاد الرب، وفي الخمسعشرية الخامسة ظهرت حشودات من الجرذان في منطقة فلسطين باعداد هائلة حتى ان بعضا منها قبضت على مؤخرة ثور وخنقته، والتهمته والتهمت معه سبعة اكباش مخصية. واخيرا بعد ان نشرت الدمار في اعماق بلاد عكا اتجهت الى جبال صور باحثة عن المياه. ومن هناك ردتهم الى الوديان بآلاف لا تعد ولا تحصى، ريح عاتية وعاصفة ضارية وبيلة. وقد ظلت تلك المنطقة موبوءة بجثثهم المتعفنة.

هنا ينتهي تاريخ رحلة القدس الذي كتبه فوشيه دو شارتر[٣٢٣]

هوامش الكتاب الثالث

١) كونت الرها بلدوين الثاني (١١٠٠ - ١١١٨ م) ابن هيو الاول من رثل، وهو ابن عم جودفري وبلدوين الاول (HF, 616, note 4) وتم ترسيمه يوم الاحد، في عيد الفصح، الموافق ١٤ نيسان ١١١٨ م ولكنه لم يتوج حتى ٢٥ كانون الاول ١١١٩. اذ اتضح ان شقيقه الاكبر الكونت يوستاس الثالث من بولون لن يحضر للمطالبة بميراثه.

٢) فوشيه هو اهم مصادر المعلومات عن هذه الحملة، ثم وليم الصوري (XVII, VI) الذي اعتمد جزئيا على فوشيه، ثم ابن الاثير. وقدم هاجنمير اكمل بحث عنها - HF 617 - 19 notes 1) (16 ويذكر ابن الاثير ان المصريين بعثوا قوة من سبعة آلاف فارس لعسقلان اثر غارة بلدوين الاول على الفرما (RHC, Or., I, 315). والارقام التي يذكرها فوشيه مبالغ فيها.

٣) طغتكين أتابك دمشق.

٤) حكم انطاكية في تلك الفترة روجير ساليرنو وحكم طرابلس الكونت بونز.

٥) اشدود التي ورد ذكرها في التوراة (صموئيل الاول ٦ : ١٧ - وهذه هي بواسير الذهب التي ردها الفلسطينيون قربان اثم للرب واحد لاشدود، وواحد لغزة، وواحد لاشقلون وواحد لجت وواحد لعقرون).

٦) مات البابا جيلاسيوس الثاني، بعد سنة واحدة من تنصيبه يوم ٢٩ كانون الثاني ١١١٩م.

٧) كان البابا كاليكستس الثاني (١١١٩ - ١١٢٤م) شقيقا لعدة اعضاء في حملة عام ١١٠١م الصليبية (راجع الكتاب الثاني).

٨) ارتاح ويدعوها فوشيه ارتاحيا - راجع الكتاب الثاني - وتعرف هذه المعركة عادة بمعركة سرمدا، وهي بلدة مجاورة.

٩) لم يشأ فوشيه لسوء الحظ ان يكتب كثيرا عن هزيمة ومقتل روجير في سرمدا (او حقل الدم) في ٢٨ حزيران ١١١٩م ولعله لم يعرف الكثير عنها وعوضا عن ذلك لجأ الى الرخصة الكنائسية بتأنيب روجير على خطاياه. وقد ذكرت هذه المعركة في مصادر اخرى عديدة بالتفاصيل وهي تعتبر نصرا مبينا للغازي بن ارتق (توفي عام ١١٢٢ م) امير ماردين وحلب (راجع ولتر المستشار -Bella Anti ochena, II, v - vi; and William of Tyre XII, ix- x)

١٠) وهي على الارجح سيسيليا. شقيقة بلدوين الثاني

١١) يشير فوشيه الى بيهمند الثاني، حاكم انطاكية من ١١٢٦ - ١١٣٠م راجع: الكتاب الثاني، الكتاب الثالث

١٢) وقعت المعركة قرب تل دانيث وهاب في ١٤ آب ١١١٩ م.

١٣) يذكر البيرت ايكس ان بلدوين كان يدافع عن منطقة طبريا ضد طغتكين اتابك دمشق (XII, xxxii) ويدعى البطريرك هذا جورموند.

١٤) هو افريمار وهو بطريرك القدس السابق. راجع الكتاب الثاني.

١٥) هو الكونت بونز، ومن المرجح ان تقدير فوشيه المتواضع لعدد فرسان الفرنجة صحيح.

١٦) يظهر ان بلدوين لم يتنازل عن مسؤوليته بصفته كونت الرها. ويعتقد نيكولسون ان بلدوين اقطع الرها لجوسلين امير الجليل في اواخر آب او اوائل ايلول عام ١١١٩م. (Joscelyn, 56)

١٧) زردانه وهي تبعد حوالى اربعين ميلا جنوب شرقي انطاكية واخذها الاتراك في ١٣ آب ١١١٩.
كمال الدين (RHC, Or. III, 620)
ولتر المستشار (Bella Antiochena II, xi)

١٨) الراجح ان تقدير فوشيه لقوة الفرنجة موثوق به، ولكن تقديره لقوة العدو خيالي ومبالغ به. (HF, 627, note 18) وكان قائدا الجيش التركي (المسلم) هما الغازي بن ارتق امير ماردين وحلب، وطغتكين اتابك دمشق الذي يغفل فوشيه عن ذكره.

١٩) وقعت هذه المعركة المعروفة بتل دانيث في ١٤ آب ١١١٩م. ويذكر ان ذلك هو موقع النصر العظيم الذي كان روجير قد احرزه عام ١١١٥م. راجع ولتر المستشار. (Bell. Ant. II, x - x III)

٢٠) يقصد فوشيه ببلاد الفرس العراق. فقد ربط بذهنه بين الاتراك وبلاد الفرس لانهم قدموا اصلا من بلاد الفرس للعراق. (ويلاحظ هنا بوضوح جهل الصليبيين بالرباط الاسلامي الوثيق الذي ربط بين سكان هذه البلاد فهم يشيرون اليهم مرة كشرقيين او كاتراك او كفار او مصريين واحيانا كعرب ولا نرى فوشيه يشير إليهم ابدا كمسلمين ـ المعرب).

٢١) يظهر ان بلدوين قضى يومي ١٥ و ١٦ آب قرب ارض المعركة ووصل انطاكية بعد يوم او يومين من ذلك (HF 630, note 9)

٢٢) هو بيرنارد فالنس (١١٠٠ ـ ١٠٣٥ م)

٢٣) يخطىء فوشيه بتحديد تاريخ هذه المعركة بيوم ١٩ آب ١١١٩ م، اذ انها وقعت في ١٤ آب.

٢٤) كان ذلك يوم ١٤ ايلول عام ١١١٩م، الذكرى السنوية لليوم الذي عاد فيه الامبراطور هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١ م) عام ٦٢٩ م الى القدس ومعه الصليب المقدس بعد هزيمة كسرى الثاني ملك الفرس الذي كان قد اخذ الصليب معه من القدس عام ٦١٤م.

٢٥) يطلق فوشيه العنان للبلاغة والمغالاة هنا، اذ ان بلدوين لم يكن قط ملكا لانطاكية. على ان وفاة روجير صهر بلدوين في ٢٨ حزيران ١١١٩ م، القت مسؤولية الدفاع عن انطاكية على عاتق بلدوين، وقد زود أرامل اتباع روجير الكثيرات بالازواج لكي يقوم هؤلاء الرجال باعباء الواجبات العسكرية المطلوبة من اقطاعاتهم. وقد مارس اعمال الوصاية على انطاكية حتى وصول بيهمند الثاني في عام ١١٢٦ م.

٢٦) هذه الجملة بلاغية وغير دقيقة ولكنها تنطوي على شيء من الصحة، فقد كان بلدوين ملك القدس وساد على بونز امير طرابلس كما اصبح وصيا على انطاكية بالاضافة لكونه كونت الرها. ولكن يظهر انه سرعان ما منح الرها اقطاعا لجوسلين الجليل في اواخر آب او اوائل ايلول من ذلك العام.

٢٧) يدل استعمال فوشيه لفعل المضارعة في هذا الفصل على انه كتبه بعد وقوع هذه الحوادث بفترة وجيزة.

٢٨) كان بلدوين الاول قد اقام سابقة بالتتويج في بيت لحم وفي عيد الميلاد (راجع الكتاب الثاني) اما زوجة بلدوين فلم يورد فوشيه ذكرها ابدا وقد اسماها وليم الصوري مورفيا (X, xxiv; XII, iv) وكانت ابنة جبرائيل من مالاتيا.

٢٩) يغفل فوشيه ان يذكر هنا ان هذا القانون الغى المكوس على الحجاج. كان احد دوافع بلدوين ان ينشط التجارة مع العرب (راجع وليم الصوري XII, xv) كما حاول جودفري ان يفعل من قبل بعقد المعاهدات مع العرب (البيرت ايكس VII, XIV) وجدير بالذكر ان الغازي الغى المكوس في حلب وعقد معاهدة صلح مع بلدوين في ذات الفترة الزمنية على الاغلب (ابن القلانسي The

Damascus Chronicle 162، سبط ابن الجوزي RHC, Or. III. 562، كمال الدين المصدر نفسه 565)

٣٠) حصل ذلك في حزيران عام ١١٢٠م كما يذكر فوشيه في الفقرة الرابعة ويلاحظ انه كان في ذلك الوقت في القدس.

٣١) يذكر كمال الدين، الذي يورد اكثر الروايات تفصيلا عن هذه الحملة ان الغازي عبر الفرات في ٢٦ ايار ١١٢٠ م في غارة على سوريا انتهت جنوبي قنسرين وهنا تفرق معظم جيشه وفي تلك الاثناء كان الفرنجة قد حشدوا قواتهم (RHC, Or. III. 623 - 24)

٣٢) يذكر كمال الدين ان طغتكين اتابك دمشق قد انضم الى الغازي في هذا الوقت. وقد تعلقوا على اجنحة الفرنجة الى ان وصلوا معرة مصرين ثم انسحبوا متفقين على مهادنة لصالح الفرنجة (RHC, Or. III, 624 - 25)

٣٣) ٢٠ تشرين الاول ١١٢٠ م ويتضح هنا وجود فوشيه في القدس لا في الحملة في تلك الفترة.

٣٤) ٥ تموز ١١٢١ م وهذا التاريخ مبني على التقويم الروماني القديم الذي بني على اليوم السابع من بعض الشهور.

٣٥) هو اتابك دمشق طغتكين. وفوشيه هو المصدر الرئيسي للمعلومات عن هذه الحملة عدا عن اشارة غامضة اوردها ابن الاثير عن ان طغتكين حارب وهزم بعض الفرنجة في جمادى الاولى عام ٥١٥ هـ (١٧ تموز، ١٧ اب ١١٢١ م) دون تحديد المكان. (RHC, Or. I, 344 - 45)

٣٦) يقع هذا الموقع الحصين (جرش) حوالى عشرين ميلا شرقي نهر الاردن، وثلاثة وعشرين ميلا شمالي عمان. وقد شيد الرومان المباني الجميلة التي يشير اليها فوشيه بين ١٣٠ - ٨٠ قبل الميلاد.

٣٧) لا نعرف عن الاسقف اودو سوى ما ذكره فوشيه من انه توفي في العام ذاته (١١٢٢م) ثم حذف هذه الجملة من طبعته الثانية (HF, 647, note C) ويذكر وليم الصوري ان اودو توفي خلال حصار صور (XIII, Xiii) بين شباط - ٧ تموز ١١٢٤ م.

٣٨) اصبح برتراند تابعا لبلدوين الاول عام ١١٠٩م (راجع الكتاب الثاني)
راجع وليم الصوري (I, 539, note 55)

٣٩) هذا الاسقف غير معروف، ويرى بعضهم انه الاسقف بطرس من افاميا

٤٠) تلك اشارة لاجتياح سوريا ابتداء من ٢٥ حزيران ١١٢٢م والهجوم الذي شنه على زردانة الغازي امير حلب وابن اخيه نور الدولة بلك، بالاشتراك مع طغتكين اتابك دمشق على ما ظهر، بين ٢٧ تموز - ١١ اب ١١٢٢م (راجع كمال الدين 32 - RHC, Or. III, 631)

٤١) يذكر كمال الدين ان الاتراك بادروا بالمغادرة بعد هجوم استفزازي ثان على الزردانة.

٤٢) ٢٠ ايلول ١١٢٢م

٤٣) هذه ترجمة لشعر فرجيل.

٤٤) وهو ابن شقيق الغازي النشيط ويدعى نور الدولة بلك وقد هاجم جوسلين في كمين وأسره ومعه ابن عمه جاليران من البيرة يوم ١٣ ايلول ١١٢٢م قرب سروج. وقد طالب بالرها ثمنا لاطلاق سراحهما ولما فشل في الحصول على ذلك اسرهما في قلعة خربوط.
راجع Nicholson, Joscely, 62 - 63
ثم راجع التفاصيل عن حياة جاليران مقالة لامونت Specum XVII (1942), 106 - 108

٤٥) يدعو فوشيه بلاد العراق وايران بارثيا وقد كانت تلك البلاد تحت حكم السلاجقة الاتراك ويدعو مصر بابيلون وقد كانت تحت حكم الخلفاء الفاطميين في القاهرة.

٤٦) يشير فوشيه الى اتفاقية ويرمز بين الامبراطور هنري والبابا جاليكتس التي فضت النزاع حول تثبيت الكهنة الذين كانوا يتبعون الامبراطور. وقد تم التوصل اليها في ٢٣ ايلول عام ١١٢٢م.

٤٧) وصل اهل البندقية الى عكا والموانيء الفلسطينية الاخرى قبيل منتصف نهار ١١٢٣م.

٤٨) شرع هذا الاسطول في الابحار تحت امرة الدوج دومينجو ميشيل، في محاولة طموحة للحصول على امتيازات تجارية في موانيء الدويلات الصليبية، وفي الفتوحات في الجزر التي تقع في طريقهم التابعة للبيزنطيين منافسي البندقية التجاريين. وقد ابحر بعد تحضيرات شاملة بحجة الاجابة على استغاثة بطريرك انطاكية بيرنارد، وبطريرك القدس جورموند، وملك القدس بلدوين الثاني اثر الهزيمة الساحقة التي لحقت بروجر امير انطاكية عام ١١١٩م (راجع وليم الصوري XII, xxii)

٤٩) على الارجح في ٨ آب ١١٢٢ م.

٥٠) حاول اهل البندقية احتلال حامية كورفو البيزنطية.

٥١) تراوحت قوة اسطول البندقية بين اثنين وسبعين سفينة (وليم الصوري XII, xxii) وبين مئتي سفينة.

٥٢) في عام ١١٢٣ بعد قضاء فصل الشتاء في كورفو.

٥٣) يقترح هاجنمير ان هؤلاء الحجاج كانوا المانا في طريقهم الى البلاد المقدسة عن طريق البندقية (HF, 657, note 7)

٥٤) ميناء على سواحل ميسينيا.

٥٥) يدل وصف فوشيه التفصيلي لهذه الرحلة على انه لا بد قد حصل على معلوماته من شاهد عيان وهو يقدم ادراكا قيما لوسائل الملاحة الساحلية السائدة في ذلك الزمن.

٥٦) ١٨ نيسان ١١٢٣ م.

٥٧) ١٣ ايلول ١١٢٢ م.

٥٨) يوستاس جارينير، لورد القيصرية وصيدا، احد رجالات المملكة البارزين (HF, 660, note 7)

٥٩) البطريرك جورموند

٦٠) وقد ارسلت هذه السفينة السريعة (ليبزرنا) على الارجح من يافا التي كانت مهددة الى الدوج الذي كان قد ألقى مراسيه في عكا قبيل ذلك في منتصف ايار.

٦١) يذكر المؤرخ العربي ابن الميسر ان هذه الحملة بدأت بعروض للتعاون بين طغتكين اتابك دمشق واقسنقر البرسقي اتابك الموصل وحامي حلب وبين الخليفة الفاطمي الآمر في القاهرة. مع ان هذا التعاون لم يوضع موضع التنفيذ. (Gibb in Setton ed., Crusades I, 454)

٦٢) راجع الفصل ما بعد التالي

٦٣) يذكر ابن الميسر انها دامت ستة ايام (RHC, Or. III, 469)
ما بين ٢٣ - ٢٨ ايار ١١٢٣ م.

٦٤) يذكر وليم الصوري ان عدد السفن سبعون سفينة (XII, xxi) بينما يذكر ابن الميسر ان عددها اربعون.

٦٥) قاقون - وتبعد عشرة اميال جنوب شرقي القيصرية.

٦٦) اللد - ويدعوها فوشيه ديوسيوليس

٦٧) مر ذكر ذلك سابقا في الكتاب الثاني.

٦٨) ذكر فوشيه في النسخة الاولى من كتابه ان عدد قتلى الاعداء كان اثني عشر الفا في البحر والبر من مجموع قدر عدده بثلاثين الفا.

٦٩) في ٢٩ ايار ١١٢٣ م حسب رواية فوشيه، اما حسب رواية ابن الميسر ففي ٣٠ ايار (RHC, Or. III, 469) راجع Stevenson, Crusaders in the East
٧٠) تعني هذه الجملة ضمنا وجود فوشيه في القدس.
٧١) تاريخ فوشيه هنا غير واضح فمن الممكن انه يشير الى الانتصار في ابلين يوم ٢٩ ايار ١١٢٣ م او الى اعادة الصليب المقدس الى القدس بعد ذلك بقليل.
٧٢) راجع الفصول السابقة.
٧٣) واسمه دومينكو ميشيل.
٧٤) يذكر وليم الصوري ان اهل البندقية استعملوا سفنا كبيرة ذات مائة مجداف ذات منقار، تدعى الواحدة منها شاتر. وكان لديهم في البدء ثمانية وعشرون منها عدا اربع سفن تجارية في المقدمة لاغواء الاسطول المصري.
٧٥) بل ميلان اثنان كما يذكر وليم الصوري (XII, xxiii)
٧٦) وصلوا الى العريش حسب رواية وليم الصوري. (المصدر السابق).
٧٧) استعمل فوشيه هذه الجملة مرتين من قبل (في المقدمة، وفي الكتاب الاول)
٧٨) راجع الفصول السابقة.
٧٩) راجع الفصول السابقة.
٨٠) ١٥ حزيران ١١٢٣ م.
٨١) كان وليم بوريس لورد طبريا احد النبلاء البارزين في المملكة
٨٢) لا بد ان اطلاق سراح بلدوين من زنزانته قد وقع قبل ٧ آب ١١٢٣م، عندما وصلت الاخبار لنور الدولة في حلب (انظر كمال الدين RHC, Or. 111, 637) ومن المرجح ان هذه الاخبار وصلت الى فوشيه في القدس في اواسط آب. ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار ان بلدوين وغيره من الفرنجة قد افرج عنهم من زنزاناتهم ولكنهم بقوا في القلعة.
٨٣) وتدعى قلعة خربوط بالتركية وحصن زياد بالعربية وهي تبعد حوالى ١١٠ اميال شمالي الرها وخمسة وثلاثين ميلا شرقي الفرات.راجع خربوط في (Encyclopedia of Islam II, (1927) 914 - 917)
٨٤) راجع الفصول السابقة للتفاصيل بخصوص وقوع جوسلين وبلدوين في الاسر.
٨٥) راجع وليم الصوري XII, xviii
٨٦) يذكر متى الرهاوي ان عدد هؤلاء الانفار كان خمسة عشر (RHC, Arm. I,133) راجع ستيفنسن Crusaders in the East 110, note 2
٨٧) يدعي فيتالس ان ثلاثاً من زوجات بلك كن هناك.
٨٨) راجع هاجنمير (HF, 680, note 3)
٨٩) يذكر كمال الدين ان جوسلين كان وحيدا (RHC, Or. III, 637) ويذكر ابو الفرج انه كان معه ارمني ويذكر فيتالس ان شخصا يدعى جيوفري النحيف كان معه ويذكر متى الرهاوي ان مجموعة من الفرسان كانت معه
٩٠) يؤرخ هاجنمير هذه النجاة بيوم ٨ آب ١١٢٣ م. (HF, 681, note 8)
٩١) لا تزال الجلود المنفوخة تستعمل لعبور الجداول في تلك المناطق.
٩٢) راجع فيتالس Hist. ecc. MPI.
٩٣) يذكر فيتالس ان عمرها كان ست سنوات ـ المصدر السابق.
٩٤) في النصف الثاني لآب (Nicholson, Joscelyn, 67)

٩٥) وهي زوجته الثانية ماريا، شقيقة روجير انطاكية
٩٦) في اواخر آب ـ المصدر السابق HF, 686, note 29
٩٧) في منتصف ايلول ـ المصدران السابقان.
٩٨) لا نستطيع تحديد هذا التاريخ.
٩٩) يشير فوشيه الى انه بلغ سن الخامسة والستين في هذا الوقت ـ اي في خريف عام ١١٢٣ م.
١٠٠) لا نعرف تاريخ وصول الفرنجة الى تل باشر، ومن المرجح انه كان في اوائل تشرين الاول بين مغادرتهم القدس في منتصف ايلول وتدميرهم بلاد حلب حوالى ٢٠ تشرين اول.
١٠١) يخطىء فوشيه بكتابة اسم حران بدل خربوط في النص.
١٠٢) ١٦ ايلول ١١٢٣ م (كمال الدين RHC, OR. III, 637)
١٠٣) دمر الفرنجة ضواحي حلب لان بلك كان قد امتلك المدينة في ٢٦ حزيران ١١٢٣م ابن القلانسي (The Damascus Chronicle, 167)
كمال الدين RHC, Or. III, 636
١٠٤) يذكر كمال الدين تدمير البلاد حول حلب ويؤرخ انسحاب جوسلين في يوم ٢٣ تشرين الاول (المصدر السابق) وبما ان جوسلين مكث هناك اربعة ايام فلا بد انه وصل اليها حوالى ٢٠ تشرين الاول.
١٠٥) لم يطل بقاء جوسلين حول انطاكية كثيرا اذ انه كان يدمر البلاد حول حلب في ١٠ تشرين الثاني ١١٢٣م (المصدر نفسه).
١٠٦) يكتب الكاتب السرياني المجهول ان برجين اثنين قد قوضا وكان احدهما قرب مصدر مياه القلعة.
ويذكر متى الرهاوي ان البرج الاعظم، اي القلعة، قد انهار (RHC, Arm. I, 135)
١٠٧) في ١٦ ايلول ١١٢٣ م
كمال الدين RHC, Or. III, 637
١٠٨) يذكر كمال الدين ايضا وجود قريب لبلدوين ويدعوه بابن اخته. كما يذكر ذلك اليوم وليم الصوري الذي نقل عن فوشيه ولا يذكر اي منهما اسمه ولا يعرف من هو (Runciman, Crusades II, 165, note)
١٠٩) كان اثنان من هؤلاء الرجال جاليران وابن اخت الملك بلدوين. ويذكر كمال الدين وجود ابن اخ لتنكريد (RHC, Or. III, 637)
ولكن ابن اخ تنكريد المعروف، روجير انطاكية كان قد قتل عام ١١١٩ م.
١١٠) يدل فوشيه هنا على انه علم بهذه الاحداث من اخرين، ومن المرجح انه كان في القدس في تلك الفترة.
١١١) يجانب فوشيه الصواب اذ ان عام ١١٢٣م حل بعد نهاية الحملة الصليبية الاولى في ١٠٩٩ م باربعة وعشرين عاما وليس بعد بدئها في ١٠٩٥ ـ ١٠٩٦م.
١١٢) يبدأ فوشيه هنا بحثه في استيلاء الفرنجة على صور عام ١١٢٤ م وقد كان ذلك حدثا عظيما بسبب اهمية صور كميناء بحري وكمخرج لدمشق وكآخر ميناء شمالي عسقلان ما زال في ايدي المسلمين. وبعكس حصار عام ١١١١ ـ ١١١٢م الفاشل الذي ذكره باقتضاب شديد يكرس فوشيه ثمانية فصول لحصار عام ١١٢٤م.
١١٣) دوج البندقية هو دومينيكو ميشيل
١١٤) في ٦ كانون الثاني ١١٢٤ م.
١١٥) يظن البعض ان الدائنين كانوا اهل البندقية HF, 695, note, 9

١١٦) من الارجح ان "الموقع المحدد" المذكور كان عكا.
١١٧) ٢٠ كانون الثاني ١١٢٤ م.
١١٨) البطريرك جورموند بيكنجي.
١١٩) في اليوم السادس من شباط عام ١١٢٤ م وليس في الخامس عشر منه، اذ ان سنة ١١٢٤ م كانت سنة كبيسة.

ويذكر ابن القلانسي ان الحصار بدأ في شهر ربيع الاول عام ٥١٨ هـ (بين ١٨ نيسان ـ ١٧ ايار)

١٢٠) شعر من اوفيد.
١٢١) لا نستطيع تحقيق هذا التاريخ.
١٢٢) يذكر وليم الصوري ان هذه الساعات الثلاث انقضت بالانتظار المترقب (XIII, viii)
١٢٣) يذكر فوشيه في طبعته الاولى ان خمسة واربعين رجلا قد قتلوا بينما يذكر وليم الصوري رقم اثنين واربعين. المصدر السابق.
١٢٤) يصف وليم الصوري ثروة صور وقوتها العسكرية ببلاغة، وقد كان اسقف تلك المدينة حوالى عام ١١٧٤ ـ ١١٨٥م (XIII, ii, ٧) وقد تلقت كثيرا من الدعم عن طريق البحر من مصر وعن طريق البر من دمشق عندما هاجمها الفرنجة عام ١١١١ ـ ١١١٢م ثم ثانية عام ١١٢٤م. راجع ابن القلانسي. (The Damascus Chronicle, 119 - 26)

١٢٥) يشوع ١١: ١٠ ـ ١١

ثم رجع يشوع في ذلك الوقت واخذ حاصور وضرب ملكها بالسيف، لان حاصور كانت قبلا راس جميع تلك المالك وضربوا كل نفس بها بحد السيف. حرموهم ولم تبق نسمة. واحرق حاصور بالنار.

يلاحظ هنا وفي الفقرات التالية ان فوشيه يعرض معرفته بالتوراة وباللغة الكلاسيكية.

١٢٦) المصدر نفسه. راجع HF, 701, note 12
١٢٧) عبارة فوشيه هنا عن بناء صور غير مسندة الى اي مصدر معروف. راجع بخصوص اصل وبناء صور Sidon - By F.C. Eislen, Col. U. Press 1907
وراجع Fleming History of Tyre Col. U Press 1915
١٢٨) راجع المصدر السابق ثم فيليب حتي ـ تاريخ سوريا.
١٢٩) يخطىء فوشيه هنا فكلمة سور تعني صخرة باللغة السامية ومنها يأتي اسم المدينة ـ راجع المصدرين السابقين.
١٣٠) يشير يوسفوس الى كتاب حكايات ميناندر افيسيس الذي ضاع اثره. وكان ملك الاشوريين شلمنصر (٧٢٧ ـ ٧٢٢ ق.م) اما الملك هيلوسيوس (ايلولايوس، لولي، الو ـ الاي) فقد حكم صور من ٧٢٥ ـ ٦٩٠ ق.م راجع فيليب حتي Lebanon, 143 - 44
١٣١) يذكر نص المؤرخ اوروسيوس الحديث ان طول السور كان اثنين وعشرين ميلا. Hist. adv. paganos libri
١٣٢) المصدر السابق.
١٣٣) المصدر السابق.

يذكر النص الحديث ان قرطاجة انشئت قبل روما باثنين وسبعين عاما. هيليسا المشار اليها هي ديدو.

١٣٤) المصدر السابق.
يذكر النص الحديث ان قرطاجة دمرت في عامها السادس بعد الستمائة ٦٠٦.
القنصل المذكور هو بابلوس كورفيليوس سكيبو اميليانس الافريقي الاصغر، وقد تم انتخابه عام ١٤٧ ق.م وحاصر بابلوس سكيبو قرطاجة واحتلها ودمرها عام ١٤٦ ق.م خلال الحرب البونية الثالثة.

١٣٥) راجع HF 706, note 3

١٣٦) راجع الفصل السابق.

١٣٧) كانت آركي تدعى الزيب، وهي تبعد نحو تسعة اميال شمالي عكا. وصور القديمة هي تلك المنطقة من المدينة التي تقع على البر الرئيسي لا على شبه الجزيرة.

١٣٨) يذكر يوسفوس (حسب ترجمة روفينوس) ان عددها كان ثمانمائة (HF, 706, note 3)

١٣٩) من الممكن انه يشير الى نهر القاسمجي (HF, 707, note 11) او الليطاني الذي يصب حوالى خمسة اميال شمالي صور (Baedeker, Palestine and Syria, 274)

١٤٠) هناك نظريتان، تقول الاولى ان شلمنصر الخامس اخذ السامرة عام ٧٢٣ ق.م وتقول الاخرى انه بدأ بحصارها لكن خليفته سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥) اخذ المدينة عام ٧٢٢ او ٧٢١ (راجع فيليب حتي (History of Syria 196)

١٤١) يعتقد اولمستيد ان فول (الذي كان يعتقد انه ملك اشور الذي حكم بين ٧٧٥ ـ ٧٧٠ ق.م) هو اللقب الذي اتخذه تغلت فلاسر الثالث (٧٤٧ ـ ٧٢٧ ق.م) ملك اشور عندما استلم عرش بابل عام ٧٢٩ ق.م

١٤٢) راجع البحث في فيليب حتي History of Syria, 167, 196

١٤٣) هو الملك سرجون الثاني. وترتان هو لقب قائد عسكري اشوري.

١٤٤) الملوك الثاني ٢٥: ١ ـ ١١
"وفي السنة التاسعة لملكه في الشهر العاشر في عاشر الشهر جاء نبوخذ نصر ملك بابل هو وكل جيشه على اورشليم ونزل عليها وبنوا عليها براجا حولها. ودخلت المدينة تحت الحصار الى السنة الحادية عشرة للملك صدقيا. في تاسع الشهر اشتد الجوع في المدينة ولم يكن خبز لشعب الارض. فثغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلا من طريق الباب بين السورين اللذين نحو جنة الملك. وكان الكلدانيون حول المدينة مستديرين. فذهبوا في طريق البرية. فتبعت جيوش الكلدانيين الملك فادركوه في برية اريحا وتفرقت جميع جيوشه عنه. فاخذوا الملك واصعدوه الى ملك بابل الى ربله وكلموه بالقضاء عليه. وقتلوا بني صدقيا امام عينيه وقلعوا عيني صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاءوا به الى بابل.
وفي الشهر الخامس في سابع الشهر وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذ نصر ملك بابل جاء نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل الى اورشليم. واحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت اورشليم، كل بيوت العظماء احرقها بالنار. وجميع اسوار اورشليم مستديرا هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط. وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذين هربوا الى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط".

١٤٥) استسلمت دمشق وصيدا للاسكندر في اواخر عام ٣٣٣ ق.م على الارجح ثم صور وغزة في عام ٣٣٢ ق.م ويعتقد بأن قصة زيارته للقدس خرافية.

١٤٦) من المحتمل ان فوشيه استعمل في اشارته الى الملك السلوقي انطيوكس ابيفانس الرابع (١٧٥ ـ ٦٤ ق.م) المصادر العبرية.

١٤٧) احتل الجنرال الروماني جناوس بومبييس (بومباي) فلسطين عام ٦٣ ق.م.

١٤٨) Joseph, Bell. Jud. i, 21, 13

١٤٩) راجع بخصوص اصل هذه التسمية. وليم الصوري II, 1, note 2

١٥٠) Joseph Bell. Jud. iii, 35 - 58

يستعمل فوشيه جوزيفس مرجعا بخصوص معظم الجمل المتعلقة بالفقرات ٨ ـ ١٢. ماشيروس (مقارو) تبعد نحو خمسة اميال شرقي البحر الميت، بيللا (طبقات فحل) كانت تبعد سبعة اميال جنوب شرقي بيسان (بتسان) وثلاثة شرقي نهر الاردن. ومؤاب تقع جنوب شرقي بحر الميت، وفيلادلفيا هي مدينة عمان المعاصرة وتقع جرش على بعد عشرين ميلا شرقي نهر الاردن. زبلون هي شابولو او شابولون، وهي منطقة غير محددة جنوبي زبلون التي وردت في التوراة. وبلاد الطراخونيين كانت تلك البلاد التي تمتد حوالى اربعين او خمسين ميلا شرقي بحيرة طبريا ولا تدل بلاد النبطيين على البتراء (بلاد الانباط) بل على البلاد التي تمتد عشرين او اربعين ميلا شرقي بحيرة طبريا بين البحيرة وبلاد الطراخونيين. راجع الكتاب الثاني.

١٥١) طال حصار الفرنجة لصور عام ١١٢٤ م من ١٦ شباط الى ٧ او ٨ تموز.

١٥٢) نور الدولة بلك، الذي خلف عمه الغازي بن ارتق حاكما لحلب في اوائل عام ١١٢٣م وقد كان في تلك الفترة يحتفظ بالملك بلدوين قيد الاسر.

١٥٣) يدعوها فوشيه هلابيا.

١٥٤) منبج، وهي تبعد خمسين ميلا شمال شرقي حلب. وقد اسر بلك غدرا، ولكنه لم يقتل، حاكمها حسن بن قمشتقين. وقد رفض عيسى شقيق حسن تسليم منبج لقواد بلك وطلب العون من جوسلين، ويفسر ذلك اقتراب جوسلين.

كمال الدين RHC, Or. III, 641

ابن الاثير RHC, Or. III, 355

١٥٥) قتل بلك بسهم من قلعة منبج (كمال الدين، ابن الاثير المصدر السابق ص. ٣٥٥)

راجع الصورة اكثر تفصيلا Nicholson, Joscelyn, 70 note 385

١٥٦) يعتقد ان هذا الوصيف هو الذي زود فوشيه بالمعلومات.

١٥٧) ٥ ايار ١١٢٤ م.

١٥٨) راجع الفصول السابقة.

١٥٩) يحتوي هذا الفصل على التفاصيل العملية التي يزودنا بها فوشيه، الذي كان في القدس على الارجح، عن حصار صور. ويضيف وليم الصوري الكثير لرواية فوشيه (XIII, vi-vii, ix-xi, xiii)

١٦٠) دافع طغتكين، امير دمشق التركي عن مدينة صور عام ١١١٢م اذ كانت تخرج ولايته الى البحر المتوسط، وقد حافظ على حامية فيها، برضى المصريين من عام ١١١٢ ـ ١١٢٢ م ثم ثانية عام ١١٢٤ م. ويذكر وليم الصوري انه كان هناك في المدينة سبعمائة جندي دمشقي عام ١١٢٤ م.

١٦١) يزودنا وليم بمعلومات اكثر تفصيلا (XIII, x)

١٦٢) ٢٢ ايار ١١٢٤ م ولا يشير وليم الصوري الى الحكاية (HF, 730, note 12)

١٦٣) يذكر وليم الصوري ان هذا القارب كان يرسو للطوارىء، وقد اختطفه بعض العوامين من صور.

١٦٤) من المحتمل ان فوشيه هو مؤلف هذا البيت.

١٦٥) البيرة وتبعد حوالى تسعة اميال شمالي القدس بين رام الله وبتل (بتونيا)

١٦٦) يظهر هنا وجود فوشيه في القدس.
١٦٧) البطريرك جورموند بيكنجي. وترد الاشارة هنا ثانية لوجود فوشيه في القدس في ذلك الوقت.
١٦٨) طغتكين اتابك دمشق.
١٦٩) يذكر ابن القلانسي ان من اختار المغادرة من الصوريين لم يستطع ان يخرج معه من المتاع الا ما قدر على حمله فحسب. (The Damascus Chronicle, 172)
ويذكر وليم الصوري ان جنود المسيحيين اصيبوا بخيبة امل مريرة لانهم لم يستطيعوا ان ينهبوا البلد.
١٧٠) يذكر فوشيه ان ذلك وقع في ٧ تموز ١١٢٤ م (HF 753, note 7) بينما يذكر ابن القلانسي انه صادف يوم ٢٣ جمادى الاولى عام ٥١٨ هـ الموافق ٨ تموز
١٧١) راجع HF, 739, note 27
١٧٢) يعني فوشيه هنا ان صور سقطت اخيرا بالاستسلام لا بالاقتحام.
١٧٣) كانت طرابلس من اقطاع القدس منذ سقوطها عام ١١٠٩ م (راجع الكتاب الثاني)
١٧٤) يشير فوشيه الى ان بطاركة انطاكية في زمن البيزنطيين كانت لهم السلطة على اسقفة صور، ولكن بطاركة القدس ادعوا السلطة مؤخرا نتيجة لفتوحات الفرنجة واستنادا لمرسوم اصدره البابا باسكال الثاني عام ١١١١م.راجع وليم الصوري (XIII, xxiii)
كان البطريرك جورموند في عام ١١٢٢ م قبل بدء حصار صور، قد نصب اودو اسقفا رئيسيا لها، ولكن اودو توفي قبل سقوط المدينة. ولم يعين لها اسقف حتى عام ١١٢٨. ويلاحظ ان فوشيه كتب هذا المقطع في تلك الفترة، وتعكس كتابته التوتر الذي ساد انذاك.
١٧٥) Cartulaire de L'Eglise du Saint-Sepulcre, No. 9
١٧٦) يدل كلام فوشيه ضمنا على ان البطريرك ديمبرت في اواخر عام ١٠٩٩ م او اوائل عام ١١٠٠ م كان قد منح جودفري وبيهمند اقطاعيها في القدس وانطاكية مع كل الحقوق المتعلقة بذلك.
١٧٧) يرد نص هذه الامتيازات في وليم الصوري XI, xxviii
١٧٨) جبلين بن آرلز (١١٠٨ - ١١١٢) م.
١٧٩) HF 742, note 1
يعتقد هاجنمير ان هذه الامتيازات كتبت في ٨ او ٩ تموز، او من الممكن في ١١ تموز عام ١١١١م.
١٨٠) راجع Runciman, Crusades II, 167 - 168
١٨١) لاحظ عدة رواة اوروبيين هذا الكسوف في ١١ آب ١١٢٤ م.
١٨٢) اعتبر فوشيه نجاح الصليبيين معجزة الهية (راجع المقدمة ٢ - ٤ والكتاب الثاني).
وقد كتب هذا الفصل الجديد بالملاحظة لكي يبين للصليبيين المتوقع قدومهم من اوروبا فتنة الحياة في الشرق اللاتيني، فضلا عن كونها محمية بالقدرة الالهية.
١٨٣) يعني فوشيه بالرومي من حضر من مدينة روما او على الاقل ايطاليا، ويعني بالفرنجة من حضر من بلاد الغال، وبالجليلي يعني من قطن في امارة طبريا، وبالفلسطيني من قطن في فلسطين الجنوبية او المنطقة حول مدينة القدس.
١٨٤) حدث ذلك يوم ٢٩ آب ١١٢٤م حسب رواية فوشيه ويوم ٣٠ آب (١٧ رجب ٥١٨ هـ) حسب رواية كمال الدين. (RHC, Or. III, 644) وقد وقع بلدوين في الاسر في ١٨ نيسان ١١٢٣م.
١٨٥) حسب اتفاقية ٢٥ حزيران ١١٢٤ م، قدم بلدوين كرهائن ابنته جوفيتا وعمرها خمس سنوات، وابن جوسلين امير الرها، وحوالى خمسة عشر شخصا اخرين كما وعد بدفع فدية ضخمة.

كمال الدين RHC, Or. III, 644
وليم الصوري XIII, XVi
متى الرهاوي RHC, Arm, Im 139

١٨٦) تشابكت هنا مناورات سياسية معقدة. فقد تدخل بلدوين لتقديم المساعدة لتمرطاش ابن الغازي امير حلب الذي اطلق سراحه ضد دبيس بن صدقة امير الحلة، ولكن بلدوين بدل ذلك تحالف مع دبيس ضد تمرطاش

كمال الدين، RHC, Or. III, 643 - 45
ابن الاثير RHC, Or. I, 360

١٨٧) تقع حلب حوالى خمسة وخمسين ميلا شرقي انطاكية.

١٨٨) حكاية رعي ابراهيم وحلبه لماشيته حول حلب مذكورة في التراث العربي (راجع ابن بطوطة - ترجمة H.A.R. Gibb, The Travels of Ibn Batuta بعد الميلاد) وقد ورد في سفر التكوين ان ابراهيم توقف في حران، وانه كان ثريا يمتلك الماشية ولكن لم يرد ذكر حلب هناك(سفر التكوين ١١: ٣١، ١٢ - ١ - ٥، ١٦ ١٣: ٦،٢)

١٨٩) تاريخ فوشيه هذا ٢٠ كانون اول ١١٢٤م مشكوك به (HF, 752, note 13)

١٩٠) قاد بلدوين تحالفا صليبيا مسلما خلال هذا الحصار. وتألف من بلدوين بصفته وصيا على انطاكية وجوسلين امير الرها، وبونز امير طرابلس ودبيس امير الحلة وسلطانشاه ابن رضوان امير حلب، وعيسى امير منبج وياغي سيان امير باليس، والمصدر الاسلامي الرئيسي لذلك هو كمال الدين RHC, Or. III, 646 راجع Nicholson, Joscelyn, 72 - 73

١٩١) دام حصار حلب من ٨ تشرين الثاني ١١٢٤ م حتى ٢٩ كانون الثاني ١١٢٥ م - كمال الدين RHC, Or. III, 645

١٩٢) لم يكن قائد الاتراك تمرطاش الذي فقد اهتمامه بحلب عندما حصل على ميراث ميافارقين فجأة، بل اقسنقر البرسقي، الذي كان اتابك الموصل في ذلك الوقت. وقد انضم الى اقسنقر طغتكين اتابك دمشق وكرخان بن كاراجه امير حمص (كمال الدين RHC, Or. III, 647 - 49)

١٩٣) الاثارب. وتبعد حوالى ثلاثة وعشرين ميلا غربي حلب. وقع ذلك في ٣٠ كانون الثاني ١١٢٥م، بعد يوم واحد من نجدة حلب.

١٩٤) ٢٩ كانون الثاني ١١٢٥ م ويوافق كمال الدين على هذا التاريخ "ثمانية ايام قبل نهاية ذي الحجة عام ٥١٨ هـ RHC, Or III, 649"

١٩٥) قضى الملك بلدوين في الاسر من ١٨ نيسان ١١٢٣م الى ٢٩ او ٣٠ آب ١١٢٤م، اي حوالى ستة عشر شهرا. يدلنا فوشيه هنا على انه كان في القدس عند عودة بلدوين.

١٩٦) اقسنقر البرسقي امير الموصل.

١٩٧) لا يعرف كيف ومتى سمع فوشيه بهجوم اسطول اهل البندقية على ممتلكات الامبراطور حنا كومنين الثاني (١١١٨ - ١١٤٣م) خلال عودتهم في شتاء عام ١١٢٤ - ١١٢٥م. فقد هاجموا رودس اولا ثم شيوس وساموس فميثون على شاطىء مسينيا. ويذكر البندقي سيربانوس سيرباني تفاصيل هذه الحملة.

١٩٨) لا نستطيع التأكد اي قراصنة يعني فوشيه هنا، ولكن من الواضح انه شعر بأن افعال اهل البندقية كانت مزعجة.

١٩٩) هذه اشارة الى البابا على الارجح HF, 761, note 19

٢٠٠) راجع الفصول السابقة.
٢٠١) تبعد كفر طاب حوالى خمسة وخمسين ميلا جنوب غربي حلب. يورد كمال الدين التاريخ ٩ ايار ١١٢٥م RHC, Or. III, 631
٢٠٢) HF, 745, note 1
٢٠٣) الكونت بونز.
٢٠٤) يشير فوشيه في هذه الفقرة الى المخاطر التي يتعرض لها فلاحو الفرنجة الذين عاشوا حول مدينة القدس. والارجح انه يعني باشارته للاحباش السود من المشاة في الجيش المصري.
ويعني بالبابليين المصريين وبالاتراك يعني رجال طغتكين من دمشق.
٢٠٥) يعني فوشيه بذكره سوريا المنخفضة ذلك الجزء المنخفض في شمالي حوض نهر العاصي الذي يقارن عكسيا مع المرتفعات في المنطقة الجنوبية حول بعلبك.
٢٠٦) زردانة تبعد حوالى ٢٥ ميلا جنوب غربي حلب.
٢٠٧) عزاز تبعد حوالى ٢٥ ميلا شمالي حلب.
٢٠٨) حسب رواية متى الرهاوي كان لدى اقسنقر البرسقي اثنا عشر منجنيقا (الة حربية قديمة لرمي القذائف) (RHC, Arm. 1, 143)
٢٠٩) هو طغتكين، اتابك دمشق ويذكر كمال الدين انه انضم الى اقسنقر البرسقي في حماه قبل حصار كفرطاب. (RHC, Or. 111, 651)
٢١٠) بونز كونت طرابلس وجوسلين كونت الرها.
٢١١) فوشيه هو المصدر اللاتيني الرئيسي لهذه الحملة وقد ورد ذكرها في مصادر اخرى:
متى الرهاوي (RHC, Arm., I, 143 - 45)
ابن الاثير (RHC, Or. I, 362 - 63)
كمال الدين (RHC, Or. III, 651)
٢١٢) ١١ حزيران ١١٢٥م
٢١٣) يثير هذا الفصل الاهتمام لان فوشيه هنا يقوم بابداء ملاحظات ثاقبة على مدى ثقة التقديرات العددية في العصور الوسطى. على انه يبدي في الفقرة الرابعة من الفصل ذاته نفس الضعف الذي يصفه هنا. وهو يقدم في الفقرة الثالثة وصفا حقيقيا جدا لاهوال معركة اشتدت حدتها.
٢١٤) يذكر فوشيه هنا انه علم بتفاصيل هذه المعركة من شهود عيان.
٢١٥) Ovid, Metam, V., 586
٢١٦) Vergil, Aen, viii, 695
٢١٧) تجمع المصادر كلها على ان اقسنقر وطغتكين قد منيا بهزيمة ساحقة في عزاز
متى الرهاوي (RHC, Arm. I, 145)
كمال الدين (RHC, Or. III, 651)
ابن الاثير (RHC, 1, 363)
٢١٨) لا يعرف موعد عودة اقسنقر البرسقي للموصل ولكن لا بد ان ذلك كان اثر هزيمته في عزاز يوم ١١ حزيران ١١٢٥ م. على ان ذلك لم يتم قبل ان توصل الى اتفاقية مع بلدوين (كمال الدين RHC, Or. III, 65) تتضمن دفع رهينة ابنة بلدوين ورهائن اخرين (متى الرهاوي RHC, Arm. I, 145)
٢١٩) اصبحت هذه الابنة جوڤيتا بعد سنين عديدة رئيسة دير راهبات (العازر في العازارية). وليم الصوري (HF, 770, note II)

٢٢٠) يكشف فوشيه هنا النقاب عن عمره: ستة وستون عاما في عام ١١٢٥ م، ويذكر انه كان يكتب معاصرا لتلك الفترة.

٢٢١) فوشيه هو مصدر المعلومات الاصلي عن هذا البناء وقد حدد اي. ج. راي هذا الموقع بدير القلعة، ويبعد عن بيروت ستة اميال (كما يذكر فوشيه) شرقا، ويرتفع ٢٢٠٠ قدم عن سطح البحر ويشرف على تجمع وادي سليما ووادي حمانا حيث يشكلان نهر بيروت، وهو موقع هيكل قديم مكرس لبعل ماركود وموقع دير ماروني حديث (HF, 771, note 4)

يلاحظ ان الكلمة الفرنسية glaive (سيف) مشتقة من اللاتينية gladius كما يشير فوشيه.

٢٢٢) الاتفاقية بين بلدوين واقسنقر، وطغتكين على الارجح كما يشير فوشيه التي تمت في صيف عام ١١٢٥.

٢٢٣) لا تعرف اسماء هذه القرى.

٢٢٤) يعني النواحي حول عسقلان.

٢٢٥) يذكر وليم الصوري ان المصريين اعتادوا ان يرسلوا اربع حملات جديدة لعسقلان كل عام ليحافظوا باستمرار على تجديد الحامية فيها. (XIII, xvii)

٢٢٦) يروي وليم ان بلدوين اغوى المصريين للوقوع في كمين. المصدر السابق.

٢٢٧) Joseph, Bell Jud. i, 374

٢٢٨) يعني فوشيه "بهذه الحالة" ان رجال عسقلان اخطروا بقدوم بلدوين بهذه الطريقة فاستطاعوا ان ينجوا بقطعانهم.

٢٢٩) في هذا الفصل وفي فصول ثلاثة اخرى ينحرف فوشيه عن الموضوع الرئيسي ويستطرد من دون هدف في حقل التاريخ الطبيعي كمن يبحث عن شيء يكتبه. ويرجع فوشيه اصل معلوماته لسوليناس الذي كتب في هذا الموضوع في النصف الاول في القرن الثالث الميلادي.

٢٣٠) Solin, "Collectanea rerum memorabilium" 52, 42

٢٣١) المصدر السابق

٢٣٢) نابلس ـ يدعوها فوشيه نيابوس (شخيم كما وردت في التوراة)

٢٣٣) لا يزودنا سوليناس بأية فكرة عن ماهية هذا الحيوان الخرافي ولكن وصف فوشيه يوافق وصف الجدي.

٢٣٤) يدعوها فوشيه بابيلون.

٢٣٥) HF, 778, note 5

٢٣٦) Solin, Col. 32

٢٣٧) HF, 779, note 11

٢٣٨) Solin., Col. 32, 30

٢٣٩) Rypins, Three Old English Prose Texts, 84

٢٤٠) Solin, Col. 30

٢٤١) المصدر السابق

٢٤٢) المصدر السابق.

٢٤٣) المصدر السابق

٢٤٤) المصدر السابق

٢٤٥) المصدر السابق

٢٤٦) المصدر السابق.

٢٤٧) المصدر السابق.
٢٤٨) المصدر السابق.
٢٤٩) المصدر السابق.
٢٥٠) المصدر السابق.
٢٥١) المصدر السابق.
٢٥٢) راجع الفصول السابقة.
٢٥٣) ٢٥ كانون الاول ١١٢٥م لا عام ١١٢٦م.
٢٥٤) هو طغتكين اتابك دمشق. وفوشيه هو المصدر اللاتيني الرئيسي للمعلومات عن هجمة بلدوين على دمشق في كانون الثاني عام ١١٢٦ م ومن المرجح انه كتب في ذلك العام او العام الذي يليه، وقد كتب بوضوح وواقعية ومن المرجح انه اعتمد على شهود عيان. وقد اعتمده وليم الصوري (XIII, xviii) وافضل مصدر عربي هو ابن القلانسي. The Damascus Chronicle, 175 - 177
وبعده ابن الاثير RHC, Or. I, 372 - 73
ثم سبط ابن الجوزي RHC, Or. III, 565 - 66
٢٥٥) يشير فوشيه الى ان افواج بلدوين الجنوبية زحفت الى طبريا عن طريق نابلس وبيسان وان القوات الشمالية وصلت عن طريق الصفورية التي اشتهرت فيها بعد لكونها منطلق الملك جاي نحو هزيمته الساحقة في حطين عام ١١٨٧م ولا بد انهم عبروا النهر على مقربة من مخرج بحيرة طبريا قرب موقع هزيمة الملك بلدوين الاول في الاقحوانة عام ١١١٣ م. (الكتاب الثاني).
٢٥٦) ١٥ كانون الثاني ١١٢٦ م.
٢٥٧) يظهر ان بلدوين شق طريقه عبر وادي اليرموك وهو الجدول الذي يجري نحو بيسان. ومن المرجح انه ذهب الى منطقة اربيل حيث عبر وادي الراهوب ووادي الميدان نحو منطقة المزيرب. ثم تبع طريق الحجاج القديمة الى الصنمين (سالومي) ثم الى مرج الصفر التي تقع بين تل الشرخوبة جنوبا وكسوا شمالا. وتقع هذه الاخيرة على نهر الاعوج الذي يحده شمالا سهل الغوطة ومدينة دمشق.
٢٥٨) لو ان المعركة وقعت يوم ٢٥ كانون الثاني ١١٢٦م (راجع الفقرة ١٠) فلا بد ان بلدوين اقام معسكره في مرج الصفر في ٢٣ - ٢٤ كانون الثاني. ويذكر ابن القلانسي ان طغتكين كان يجمع حشوده في هذا المرج (The Damascus Chronicle, 175)
٢٥٩) ابن طغتكين ووريثه هو تاج الملوك بوري وقد صار اتابك دمشق مستقبلا (١١٢٨ - ١١٣٢ م).
٢٦٠) يعاني هذا الجزء من رواية فوشيه من الالتباس اذ ان ابن القلانسي يذكر ان المسلمين كانوا البادئين بشن الهجوم وهزموا الفرنجة هزيمة منكرة (The Damascus Chronicle 175) ولكن الفرنجة لموا شعثهم وارتدوا ثم الحقوا هزيمة ساحقة بهم كما يذكر فوشيه. فروايته اذن تجانب الصواب اذ يذكر ان الاتراك فروا في البداية ولكنها تورد ذكر ما جرى في المعركة بالتفصيل. ويذكر ابن الاثير ان طغتكين وقع عن حصانه مما ادى الى بث الذعر بين رجاله. (RHC, Or. I, 372)
٢٦١) يقدم ابن القلانسي صورة مطابقة لذلك: هجوم اسلامي في البداية تتبعه هجمة فرنجية بعد ان لموا شملهم.
٢٦٢) يقع عيد اعتناق القديس بولس للدين المسيحي يوم ٢٥ كانون الثاني. ويذكر ابن القلانسي في المصدر السابق وسبط ابن الجوزي RHC, Or. III, 566 ان المعركة وقعت يوم ٢٧ ذي الحجة ٥١٩ هـ وصادف ذلك في تلك السنة يوم ٢٤ كانون الثاني وليس ٢٥ منه.

٢٦٣) لا نستطيع اعتماد الارقام التي يوردها فوشيه. يذكر ابن القلانسي ان مشاة المسلمين قد تقطعت اوصالهم (The Damascus Chronicle, 177) ويذكر ايضا، ومعه ابن الاثير (RHC, Or. I 372) ان مشاة الفرنجة اصيبت بخسائر فادحة في بدء المعركة.

٢٦٤) هذا هو الموقع المناسب لجملة فوشيه عن فرار طغتكين التي وردت في الفقرة التاسعة. وتذكر المصادر الاسلامية انه فر الى دمشق واستعد للمقاومة ولكن الفرنجة لم يذهبوا ابعد من مر شهورا الذي يبعد عشرة اميال جنوبي المدينة وانسحبوا في اليوم التالي (ابن القلانسي The Damascus Chronicle 166)

سبط ابن الجوزي. (RHC, Or. III, 566)

٢٦٥) لا نستطيع التأكد من ماهية هذين الحصنين ويذكر جروسيه انهما في الجولان في المنطقة الشمالية الشرقية من بحيرة طبريا.

٢٦٦) تذكر المصادر العربية ان بوري ارسل فصائل غير منتظمة للقتال.

ابن القلانسي The Damascus Chronicle, 175

سبط ابن الجوزي RHC, Or. III, 566

٢٦٧) Harat. Od. ii 16, 27

٢٦٨) يعاني فوشيه هنا من اختلاط المعاني والالفاظ. ولكنه يعرب عن نظرته الهمجية لشعب بلاد الشام.

٢٦٩) يرد ذكر مقتل هابيل على يد قابيل في سفر التكوين ٤ : ٨، ولكن كون دمشق موقع ذلك يرد في الروايات العربية. (HF, 794, note 5)

٢٧٠) عاد الملك الى القدس في اوائل شباط على الارجح.

٢٧١) حصل ذلك قبل ١٤ اذار ١١٢٦ م ويشير فوشيه هنا الى بونز كونت طرابلس.

٢٧٢) تبعد الرفانية حوالى سبعة وعشرين ميلا جنوب غربي حماه.

٢٧٣) هذا الجدول هو فوار الدير (HF, 796, note 16) وقد استولى طيطس على القدس عام ٧٠ م واصبح امبراطور الدولة الرومانية بعد ذلك ٧٩ - ٨١م.

٢٧٤) هذا الجدول هو نهر النعمان.

٢٧٥) راجع الفصول السابقة.

٢٧٦) بلدوين وبونز.

٢٧٧) ٣١ اذار ١١٢٦ م حسب رواية فوشيه اما كمال الدين فيذكر ان ذلك وقع في نهاية صفر عام ٥٢٠ هـ (٢٦ اذار) (RHC, Or. III, 652)

ويذكر فوشيه ان الحصار بدأ في ١٤ آذار.

٢٧٨) ١١ نيسان ١١٢٦ م، ويشير فوشيه الى انه كان في القدس في ذلك الوقت.

٢٧٩) توفي الامبراطور هنري الخامس في المانيا ٢٣ ايار ١١٢٥م

٢٨٠) اصبح لوثير دوقا سكسونيا عام ١١٠٦م وملكا لالمانيا عام ١١٢٥م، وامبراطورا عام ١١٣٣ م. ومات عام ١١٣٧م.

٢٨١) بدأ حوالى ٢١ ايار.

٢٨٢) كان لوثير ابن الكونت جيبهارد من سبلنبرج الذي مات عام ١٠٧٥م من دون ان يحصل على لقب دوق سكسوني

٢٨٣) بعد عيد الفصح ١١٢٦ م.

٢٨٤) سوريا الشمالية

٢٨٥) مثل لاتيني.

٢٨٦) يبدو ان ذلك المكان كان حصن الدير، وهو حصن أقيم على دير قديم قرب سرمدا حسب رواية كمال الدين، الذي يضيف الى ذلك انه سقط على يد احد قواد اقسنقر وهو بابك ابن ثلماس (RHC, Or. III, 653)

٢٨٧) دام ذلك الشهاب من حوالى ١٥ تموز الى اوائل آب ١١٢٦ م، ومن الممكن انه شوهد في الصين.

٢٨٨) ذلك هو حصن الاثارب الذي يبعد عشرين ميلا غربي حلب. ويذكر كمال الدين ان اقسنقر البرسقي دمر موقعين متقدمين قبيل قدوم بلدوين، وان الفرنجة انسحبوا الى معرة مصرين في آب ثم عادوا الى بلادهم. (RHC, Or. III, 653 - 54)

وينطوي كلام فوشيه ضمنا على ان الاتراك شعروا بأن قوتهم المؤلفة من ستة الاف رجل لن تفي بالغرض. راجع Nicholson, Joscelyn, 77 - 78

٢٨٩) فلسطين.

٢٩٠) الفرما وتقع على احد مصبات النيل، وكان بلدوين الاول قد وصل اليها عام ١١١٨ م والعريش وتبعد حوالى خمسة وسبعين ميلا شرقا منها، حيث توفي فيها (راجع الكتاب الثاني).

٢٩١) كانت هذه السفن تحمل الات الحصار.

٢٩٢) لا بد ان فوشيه اخطأ هنا، اذ لا يعقل ان يتجه المصريون بعد هزيمتهم نحو موانىء تقع تحت سيطرة المسيحيين.

٢٩٣) ١١٢٦ م.

٢٩٤) بيهمند الثاني، امير انطاكية، وابن بيهمند الاول وكونستانس الفرنسية (راجع الكتاب الثاني) وكان بلدوين الثاني وصيا له على عرش انطاكية منذ عام ١١١٩ م (الكتاب الثالث)

٢٩٥) راجع Curtis, Roger of Sicily, Knickerbocker Press, 1912

٢٩٦) لم يستطع احد ان يتقصى اصل هذا المثل.

٢٩٧) تسع عشرة سفينة ثلاثية المجاذيف، وست سفن ناقلة.

٢٩٨) دوق ابوليا هذا هو وليم (١١١١ - ١١٢٧م) ابن عم بيهمند الثاني وكلاهما حفيد لروبيرت جيسكارد ولكن حين وفاة الدوق وليم عام ١١٢٧ م طالب روجير الثاني في صقلية بالارث ووضع يده على بلاده بما فيها تلك التي تركها بيهمند.

٢٩٩) راجع HF, 807, note 14

٣٠٠) يخطىء فوشيه في ترتيبه الجغرافي، والاصح ميثون، ثم سيكلادس ليسيا، اداليا، بامفليا، قبرص سلوكيا، اسوريا اما انطاكية الصغرى (وليست بيسيدنا) فهي غير معروفة (HF, 807, note 19)

٣٠١) يشير فوشيه الى وجوده في القدس في ذلك الوقت.

٣٠٢) راجع HF, 811, note 2

٣٠٣) راجع Solin, Col. 18, 1- 2

٣٠٤) ايوب ٣٨: ١٠ - ١١

٣٠٥) Vergil, Aeniad, i, 105

٣٠٦) سيسوتريس هو اسم اسطوري في التاريخ المصري. ودارا هو دارا الاول ملك الفرس ٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م

٣٠٧) امبروز

٣٠٨) يشير فوشيه هنا الى ما ذكره عن البحر المتوسط في الفقرة الثانية نقلا عن سولينوس.

٣٠٩) بق المنزل
٣١٠) يبحث فوشيه في هذا الفصل ايضا عن شيء يشغل به وقته ومرجعه كالعادة سولينوس.
٣١١) Solin, Col. 27, 52
٣١٢) المصدر السابق.
٣١٣) المصدر السابق.
٣١٤) راجع Rypins
٣١٥) في اواسط ايلول ١١٢٦ م.
٣١٦) بقي بلدوين في نواحي انطاكية منذ اغاثته للاثارب في اواخر الصيف. ويخمن هاجنمير انه وصل منها في اواخر تشرين الثاني. ويشير فوشيه انه هو نفسه كان في القدس. (HF 820, note 2)
٣١٧) اليس، وهي الابنة الثانية لبلدوين الثاني
٣١٨) يتضح هنا عزم بلدوين على الحفاظ على التحالف وعلى مساعدة انطاكية، كما يظهر ذلك في تزويجه ابنته لبيهمند.
٣١٩) يقرر هاجنمير ان ذلك حصل قبل عيد الميلاد (HF 822, note 14).
٣٢٠) امتدت فترة برج العقرب من ٢٣ تشرين الاول الى ٢٢ تشرين الثاني.
٣٢١) المرجح ان «الآن» تدل على ٢٥ كانون الاول ١١٢٦ م.
٣٢٢) حكاية وباء الجرذان في عام ١١٢٧ م اصيلة في فوشيه.

تدل هذه النهاية المقتضبة على ان فوشيه توقف عن الكتابة هنا، ويفترض انه توفي او اصيب بمرض اقعده والا فقد كان سيورد بعض الاحداث كحملة بلدوين الثاني على وادي موسى في آب وايلول ١١٢٧ م، ووصول الرجل الذي اختاره بلدوين وصيا على عرشه وزوجا لابنته، فولك انجو في الربيع المقبل، ووفاة البطريرك جورموند وانتخاب ستيفين شارتر خليفة له في عام ١١٢٨ م ايضا. (راجع وليم الصوري XIII, xxiv, xxv)

المراجع

Addison, James T., The Christian Approach to the Moslem, AMS Press Inc., New York, 1966.

Benveniste, Meron, The Crusaders In The Holy Land, Macmillan Company, New York, 1970.

Benveniste, Meron, Conflicts and Contradictions, Villard Books, New York, 1986.

Bettes, Robert Brenton, Christians in the Arab East, Lycabebettus Press, Athens, Greece, 1975.

Brenner, Lenni, Zionism in the Age of Dictators, Croom Helm, London, 1983.

Eidelberg, Shlomo, The Jews and the Crusaders, University of Wisconsin Press, 1977.

Erdmann Carl, The Origin of the Idea of Crusade, Princeton University Press, 1977.

Haslip, Joan, Catherine the Great, Putnam, New York, 1977.

Hess, Moses, Rome and Jerusalem, Bloch Publishing House, New York, 1945.

Kedar, Benjamin Z., ed,m Outremer: Studies in the History of the Crushing Kingdom of Jerusalem, Yad Izhak Ben-Zvi Institute, Jerusalem, 1982.

Kedar, Benjamin Z., ed., Crusade and Mission: European Approaches toward the Muslims, Princeton University Press, 1984.

Kedar, Benjamin Z., ed., Crusaders in their Kingdom, 1099 - 1291, Jerusalem, 1987 (in Hebrew).

Kobler, Franz, Napoleon and the Jews, Schoken Books, New York, 1976.

Maalouf, Amin, The Crusades through Arab Eyes, Schoken Books, New York, 1985.

Malachy, Yona, American Fundemantalism and Israel, The Hebrew University Press, Jerusalem, 1978.

Murphy, Thomas Patrick, The Holy War, Ohio State University Press, Columbus, 1976.

Newman, Louis I., Jewish Influence on Christian Reform Movements, AMS Press, New York, 1966.

Prawer, J. - A History of the Latin Kingdom of Jerusalem, 2 Vols, Jerusalem 1963

- The Latin Kingdom of Jerusalem, European Colonialism in the Middle Ages. London 1972.
- Crusader Institutiis, Oxford, 1980.
- Social Calsses in the Crusader State:

«The Minorities» in **A History of the Crusader**, ed. Kenneth M. Sutton. Madison, 1985.

Rabinowicz, Oskar K., Winston Churchill on Jewish Problems, Prager Ltd., London, 1956.

Said, Edward, Orientalism, Pantheon Books, New York, 1978.

Sartre, Jean Paul, Anti Semite and Jew, Schoken Books, New York, 1972.

Sharif, Regina, Non-Jewish Zionism, Zed Press, London, 1983.

Sokolov, Nahum, Zionism in the Bible, Zionist Organization Publications, 1918.

ABBREVIATIONS

AHR

The American Historical Review, I (1895 ff).

AOL

Archives de l'Orient Latin. 2 vols. Paris: Pubsous le patronage de la Société de l'Orient latin, 1881 - 84.

Crusades-Munro

Lous j.Paetow (ed.). The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro.
New York: F.S. Crofts and Co., 1928.

HChr

Heinrich Hagenmeyer. «Chronologie de la premiére croisade (1094 - 1100),» ROL, VI-VIII (1898 - 1901): and «Chronologie de L'histoire du royaume de Jérusalem, régne de Baudouin I (1101 - 1118)» ROL, IX-XII (1902 -11).

HEP

-----(ed.). Epistulae et chartae ad historiam Primi belli sacri spectantes. Innsbruck, 1901.

HF

-----. Fulcheri Carnotensis historia Hierosolymitana (1095 - 1127). Heidelberg, 1913.

HG

-----. Anonymi gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum. Heidelberg, 1890.

MPL

J.P. Migne (ed.). Patrologiae cursus completus, series latina. 221 vols. Paris, 1844 ff.

RHC

Recueil des historiens des croisades, Académie des inscriptions et belles-lettres. 16 vols. in fol.

Paris, 1841 - 1906

Arm. Documents arméniens: 2 vols. 1869-1906.

THE EXPEDITION TO JERUSALEM.

Occ. Historiens occidentaux. 5 vols. 1841 - 95

Or. Historiens orientaux. 5 vols. 1872-1906

ROL

Revue de L'Orient Latin.12 vols. Paris, 1893 - 1911.

Rolls Series

William Stubbs (ed.). Rerum Britannicarum medii aevi scriptores: or Chronicles and Memorials of Great Britain and Ireland during the the Middle Ages, pub. by the authority of Her Majesty's Treasury un der the direction of the Master of the Rolls. 99 works in 244 vols. Lon don: Her Majesty's Stationery Office, 1858 - 96.

Setton (ed.),

Crusades

Kenneth M Setton (editor-in-Chief). A History of the Crusades. Vol. I, Marshall W. Baldwin (ed.), The First Hundred Years. Philadelphia, 1955.

كلمة شكر

لا يفوتني ان انوّه في ختام كتابي هذا بالمساعدة التي قدمها اخي الدكتور كامل سـواء في مراجعـة الكتاب او الاهتـمام بنشره، وكذلـك بالمسـاعـدات المختلفـة التي قدمتها زوجتي نائلة في جميع مراحل العمل. فلهما مني اجمل الشكر واجزله.

زياد جميل العسلي

محتوى الكتاب

كلمة المترجم ٥
المقدمة ٧
مقدمة المؤلف ٢٥
الكتاب الاول ٢٩
الكتاب الثاني ١٠١
الكتاب الثالث ١٨٣
المراجع ٢٦١
كلمة شكر ٢٦٥
محتوى الكتاب ٢٦٧

الغلاف: دار الشروق

تاريخ الحملة الى القدس

عندما دعا البابا رجال اوروبا المسيحية لحمل الصليب لتحرير القدس من قبضة "الكفار"، استجاب لندائه الكثيرون ومنهم القسيس فوشيه دو شارتر. وقد انضم فوشيه الى الحملة الاولى التي انتهت باحتلال القدس ثم قضى بقية حياته في القدس، حيث كتب تاريخه هذا، الى ان انقطع عن الكتابة عام ١١٢٧ م وربما توفي في ذلك العام عن عمر يناهز الثمانية والستين عاما.

من المرجح ان فوشيه ولد في شارتر في فرنسا حوالى عام ١٠٥٨ م او ١٠٥٩ م ولا نعرف شيئا عن مستهل حياته هناك الى ان شارك في الحملة الصليبية وأدرك الاهمية التاريخية للأحداث التي عاشها فابتدأ في تدوينها. وقد رافق الحملة الصليبية التي غادرت شارتر الى أن انضم الى بلدوين الاول حين انشق هذا عن الجيش الرئيسي في آسيا الصغرى وزحف بمجموعة صغيرة شرقاً عبر الفرات وأسس امارة الرها الصليبية عام ١٠٩٨ م. وبقي هناك مدة عامين الى أن تولى بلدوين عرش القدس بعد وفاة اخيه جودفري. وكان فوشيه قسيس بلدوين الخاص ورافقه في حروبه واسفاره، ومن المحتمل انه كان مستشاراً له.

يقع تاريخه في ثلاثة كتب. يبدأ الكتاب الاول بمجلس كليرمونت وخطبة البابا التاريخية وينتهي بوفاة جودفري امير القدس. ويبتدىء الكتاب الثاني باعتلاء بلدوين الاول عرش القدس ووصف الاحداث التي جرت الى وفاته في العريش. ثم يبتدىء الكتاب الثالث باعتلاء بلدوين الثاني عرش القدس الى أن ينتهي فجأة عام ١١٢٧. ومن المرجح ان فوشيه توفي في ذلك العام أو أصيب بمرض أقعده عن الكتابة.

الناشر: دار الشروق للنشر والتوزيع
عمان - الأردن

التوزيع: المركز العربي لتوزيع المطبوعات ش.م.م
بيروت - لبنان